القسم الاول

التاريخ السياسي

obeikandl.com

obeikandl.com

سلاطين دولة المماليك البحرية

٦٤٨ — ٧٨٤ هـ و ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

م	سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنه ميلادية
		(١) السلطنة المملوكية حتى الناصر محمد	
١	٦٤٨	السلطان الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي	١٢٥٠
٢	٦٥٥	« « المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك	١٢٥٧
٣	٦٥٧	« « المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
٤	٦٥٨	« « الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي	١٢٦٠
٥	٦٧٦	« « السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة خان بن بيبرس	١٢٧٧
٦	٦٧٨	« « العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس	١٢٧٩
٧	٦٧٩	« « المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي	١٢٧٩
٨	٦٨٩	« « الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	١٢٩٠
		(٢) عصر الناصر محمد	
٩	٦٩٣	« « الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى)	١٢٩٣
١٠	٦٩٤	« « العادل زين الدين كتبغا المنصوري	١٢٩٤
١١	٦٩٦	« « المنصور حسام الدين لاچين المنصوري	١٢٩٦
	٦٩٨	« « الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	١٢٩٨
١٢	٧٠٨	« « المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١٣٠٨
	٧٠٩	« « الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)	١٣٠٩
		(٣) أولاد الناصر	
١٣	٧٤١	« « المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد بن قلاوون	١٣٤٠
١٤	٧٤٢	« « الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون	١٣٤١
١٥	٧٤٢	« « الناصر شهاب الدين احمد بن محمد بن قلاوون	١٣٤٢
١٦	٧٤٣	« « الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون	١٣٤٢
١٧	٧٤٦	« « الكامل سيف الدين شعبان بن محمد بن قلاوون	١٣٤٥
١٨	٧٤٧	« « المظفر زين الدين حاجي بن قلاوون	١٣٤٦
١٩	٧٤٨	« « الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن بن محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى)	١٣٤٧
٢٠	٧٥٢	« « صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون	١٣٥١
	٧٥٥	« « الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	١٣٥٤
		(٤) أحفاد الناصر	
٢١	٧٦٢	« « المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي	١٣٦١
٢٢	٧٦٤	« « الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون	١٣٦٣
٢٣	٧٧٨	« « المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين	١٣٧٦
٢٤	٧٨٣ — ٧٨٤	« « الصالح زين الدين حاجي	١٣٨١ — ١٣٨٢

obeikandl.com

الباب الأول

دولة المماليك ومميزاتها الرئيسية

يرجع ظهور المماليك فى العالم الاسلامى إلى ماقبل قيام دولتهم بأمد طويل . وربما كان أول من استخدمهم هو الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هـ = ٨١٣ — ٨٣٣ م) ، إذ كان فى بلاطه بعض المماليك المعتوقين . ثم الخليفة المعتصم العباسى (٢١٨ — ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٣ م) حينما استخدم فرقا من التركمان لتدعيم سلطانه . وكان سبب استخدام المعتصم للمماليك هو قلة ثقته بالعرب ، فالواقع أن الجند الفرس الذين قامت على أكتافهم الدولة العباسية فقدوا عطف الخلفاء ، فاراد هؤلاء أن يحموا أنفسهم بجيش من الجند الترك (١) . وكانت هذه سابقة أولى لكثير من الخلفاء والحكام الذين خلفوه . وقد أخذ بمبدأ استخدام المماليك ، ولاة مصر الاسلامية من الطولونيين إلى الاخشيديين ثم الفاطميين .

ذلك أن احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية قد أكثر من شراء مماليك (٢) الديلم سكان جنوب بحر قزوين وبلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام من الأتراك وأربعين ألف من السود وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة (٣). وكان طولون أبو احمد من الترك الذين كانوا يقيمون بين تركستان وسيبيريا ، وقد أسر فى بعض الحروب فأهداه نوح ابن أسد السامانى إلى الخليفة المأمون العباسى نحو سنة ٢٠٠ هجرية فى جملة من الرقيق (٤) والهدايا كما كان الشأن فى بلاد ما وراء النهر . ثم تأسست الدولة الاخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ = ٩٣٥ — ٩٦٩ م) فجعل محمد بن طغج الاخشيد جيشه من الأتراك ومن الديلم . وقد بلغت عدة ذلك الجيش بمصر والشام أربعمائة ألف جندى (٥) عدا حرسه الخاص الذى بلغ عدده

---

(١) Ph. Hitti : History of the Arabs, p. 466.

(٢) كلمة « مماليك » جمع ومفردها « مملوك » . ويقصد بها غالبا الرقيق الأبيض . وهى اسم مفعول ، فعله ملك ، واسم الفاعل مالك . والملوك هو عبد مملكة .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٤ .

(٤) يحدث الرق بسبب الأسر فى الحرب أو بالشراء . وكان العبد يتحرر إما بإعتاق سيده له مكافأة له على عمل عظيم قام به أو لشجاعة فائقة أظهرها فى القتال أو لإخلاصه الشديد لمولاه . ولم يكن تحرير العبد مقصوراً على هذه الأسباب بل لقد جعل الشرع الاسلامى تحرير العبد من أعظم القربات إلى الله وتشوق كثيرا لذلك حتى جعله كفارة للقتل خطأ وكفارة للظهار والإيمان وغيرها . انظر كتاب النظم الاسلاميه للدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٩ .

ثمانية آلاف مملوك . ولما جاء الفاطميون إلى مصر (٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م) كانوا فى حاجة إلى جيش كبير يوطد أركان دولتهم فيها ويسهل عليهم ما اعتزموه من مد سلطانهم إلى بلاد الشرق وكان جيشهم بادىء الأمر مؤلفاً من المغاربة فأضافوا اليه فى مصر غير أولئك من أتراك وأكراد وغز وديلم ومصامدة . (١)

ولما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) نهجوا نفس تلك السبيل وأكثروا من شراء المماليك الترك وبنيت لهم الثكنات بجزيرة الروضة ، وأطلق عليهم اسم المماليك البحرية (٢) ، وأتيح لهم بعد ذلك أن يتولوا الحكم فى مصر (٣)

وكانت الغالبية العظمى لجماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم فى مصر من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق (٤) وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطا من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد فضلا عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية (٥) . وكان تيار الوافدين من أولئك الأجناس بصحبة التجار لا ينقطع بسبب ازدياد حاجة السلطنة إلى اقتناء المماليك واستخدامهم فى الجيش ، ولأن ثراء الدولة الملوكية وتواتر الأخبار بأن فى وظائفها وسلطنتها ميداناً فسيحاً لكل ذى موهبة وقدرة — كل ذلك كان سبباً لاجتذاب عدد كبير من أجناس مختلفة إلى مصر . ولقد قيل إن ما كان يصل إلى بلاد التركستان من الأقاصيص عن أحوال المماليك فى مصر وما يذاع عن ثروة الناس بالقاهرة كان باعثاً لكثير من أهل تلك البلاد على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا فى حاشية سلطان مصر

لذلك كثر تجار المماليك فى هذه الأقاليم ، وهؤلاء كانوا يترددون على بلاد الشرق الأوسط

---

(١) نسبة إلى مصمودة قبيلة من البربر بالمغرب .

(٢) نسبة إلى بحر النيل . وكان أول من عمل هذا السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ — ١٢٤٠ م) .

(٣) أنظر مقال الأستاذ سوبرنهايم Sobernheim عن المماليك فى دائرة المعارف الاسلامية . ويلاحظ أن السلطان أيوب قد أكثر من شراء المماليك من الترك خاصة ، وهو الذى بنى لهم الثكنات فى القلعة التى أنشأها سنة ٦٣٨ هـ بجزيرة الروضة . وجهز تلك القلعة بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وأنشأ فيها جامعا وستين برجا . ولما تم بناءها انتقل إليها هو وأفراد أسرته ومماليكه البحرية ، كما اتخذها مقراً للملك .

(٤) تشمل بلاد القفجاق حوض القلجا والأراضى الواقعة حول بحر قزوين .

(٥) Heyd : Histoire du Commerce du Levant, tome II. p. 260

من ذلك ما يقال عن أن السلطان لاچين كان من ضفاف بحر البلطيق . انظر :

Hautecoeur et Wiet Les Mosquées du Caire, p. 48.

والمعروف كذلك أن أنس والد السلطان برقوق كان من فلاحى الدانوب . انظر :

R. L. Devonshire : Rambles in Cairo, pp. 555—561.

خاصة فيشترون المماليك ويبعثون بهم الى مصر فيأخذ منهم سلاطين المماليك ما يحتاجون اليه فى جيوشهم (١).

ولم تكن تجارة المماليك مقصورة على الشرق الأوسط ومصر بل امتد نطاقها إلى أوربا حيث قامت تجارة المماليك بصورة واضحة . وكان يمارس هذه التجارة الغربيون الذين جنوا منها أرباحاً وفيرة . وكان التجار الأوربيون ينافسون التجار الشرقيين فى هذا النوع من التجارة فى وقت سبق قيام عصر المماليك . وقد اضطر الكثير من ملوك أوربا وبابواتها الى اتخاذ اجراءات شديدة ضد التجار المسيحيين بما كانوا يقومون به من بيع المماليك للعرب والبنادقة . وكان البنادقة وأهل جنوة يذهبون إلى مناطق عدة ، نخص بالذكر من بينها سواحل البحر الأسود ، لجمع الشبان وبيعهم فى مصر . ويقال إن التجار الاوربيين كانوا يجلبون إلى مصر كل عام نحو ألفين تقريبا من المغول والشراكسة والروم والألبانيين والصقالبة والصرب (٢) كما كان الترك يرسلون بعض أسراهم المجر إلى أسواق الرقيق فى مصر ليشتريهم المماليك . وقبل ذلك بعدة قرون باعت الجيوش الجرمانية أسراها من الصقالبة إلى المسلمين فى أسبانيا (٣)

وكان المماليك الذين يجلبون إلى مصر يباعون — وهم فى مقتبل العمر — فى أسواق النخاسة بيع الأرقاء . (٤) . وكان خان مسرور (٥) هو الساحة التى تقام فيها سوقهم فى القاهرة كما كان للمماليك من التتار سوق قائمة باستمرار فى الاسكندرية (٦). وكانت أهم الأسواق التى يشترى فيها المماليك واقعة على الساحل الشمالى من البحر الأسود وبحر آزوف وفى مستعمرة كافا Caffa وكانت تابعة لجمهورية جنوة .

ولنضرب هنا مثلا يكشف لنا عن كيفية اختيار السلاطين أو كبار الأمراء مماليكهم . كان بيبرس — الذى أصبح سلطاناً على مصر — قفجاقى الأصل . ويظهر أنه بيع أولا بمدينة سيواس وحضر مع أحد التجار إلى حماة ومعه مملوك آخر ، فلما عرضا على الملك المنصور صاحب

---

(١) Heyd : op. Cit p.536.

(٢) Heyd : Op. Cit. p. 443, 560. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV (L'Egypte Arabe),p. 389

(٣) Wiet : Op. Cit. p. 389.

(٤) أطلق على هؤلاء اسم « عبيد الشراء » لأنهم اشتروا بالمال .

(٥) حدد المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٩٢) موضع خان مسرور فقال : « خان مسرور مكانان : أحدهما كبير والآخر صغير . فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة (أحد أبواب القصر الشرقى الكبير الذى بنى فى عهد الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م) إلى الحريرية وكان موضعه خزانة الورق . والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر ، وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية » . وموضع هذه المدرسة لا يزال إلى اليوم بجوار جامع السلطان برقوق من بحريه وتعرف باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل .

(٦) Heyd : Op. Cit. p. 443.

حماة لم يعجبه بيبرس وبيع بدمشق بثمانمائة درهم . ولكن مشتريه رده لبياض فى إحدى عينيه فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار مملوك الصالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بحماة ثم انتقل إلى خدمة الملك الصالح (١) .

وتعد رواية ابن واصل عن سبب رفض الملك المنصور صاحب حماه شراء بيبرس من الروايات الطريفة ، فهو يقول : « كان السلطان المنصور إذ ذاك فى سن الصبا ، وكان من عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر وتراه الصاحبة والدته ومن أشارت بابتياعه أخذ . وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر وهو مع التاجر تقدم باحضاره فأحضر ومعه خشداش(٢) له وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة . فلما استأذنها السلطان ولدها فى شرائهما ، قالت له : خذ المملوك الأبيض ، والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة — يعنى بيبرس — فان عينيه فيهما الشر لايح فردهما جميعاً على التاجر فسرها ذلك . وبلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا فطلبهما إلى عنده فلما رآهما صلحا له فاشتراهما وهو فى الاعتقال »(٣) . ولما أفرج عن الأمير علاء الدين البندقدار سار من حماه إلى مصر ومعه مملوكه بيبرس وظل فى رعاية أستاذه البندقدار حتى أخذه منه الصالح أيوب ، فانتسب إلى الملك الصالح دون أستاذه .

وليس من السهل علينا دراسة عادات هؤلاء المماليك وحياتهم الخاصة دراسة عميقة ، لأن المصادر التى نستطيع أن نعتمد عليها فى استقصاء تاريخ المماليك قد أغفلت إلى حد كبير دراسة هذه الناحية . ونحن لانجد فى تاريخ العالم نظيراً لعصر المماليك . فهم طائفة من الأرقاء المشترين بالأموال ، ثم كثر عددهم وحكموا قطراً غنيا كمصر ووضعوا أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر . ومن الغريب أن المماليك عاشوا أثناء حكمهم لمصر كطائفة منفصلة عما حواليها واحتفظوا بشخصيتهم ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان المصرية ، سواء فى ذلك الأقباط والمسلمين ، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أى جزء من أجزاء ممتلكاتهم بالانخراط فى صفوفهم ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر . وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم وذهبوا إلى مدى أبعد من ذلك ، حيث اشترطوا الا ينخرط فى سلك المماليك الحربية الا من يستوردونه من جديد . فأبناء المماليك مهما عظم شأنهم كانوا يقصرونهم على الأعمال الكتابية والادارية ولا يسمحون لهم بالدخول فى الجيش . أما أهل مصر فكانوا فى عصر المماليك يتولون وظائف القلم ، ولم

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨ المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) يطلق على الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة زمالة قديمة اسم « الخوشداشية » (ومفردها خشداش) . المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ . وكلمة خشداش معربة من اللفظ الفارسى « خواجاتاش » أى الزميل فى الخدمة .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٤٠ ب .

يكن لهم نصيب فى الجيش العامل ، اللهم إلا فى بعض الأعمال غير العسكرية كأعمال الأئمة والصناع والأتباع .

وبذلك يمكن القول بأن مماليك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم . وهذه العزلة والترفع انفرد بهما المماليك حتى صارا من أخص ميزاتهم . ولم يكن زواج بعض المماليك من بنات القضاة وكبراء المسلمين فى القاهرة داعياً إلى تغيير عادة العزلة فيهم وحثهم على الاختلاط بغيرهم . ولعل هذا كان ترفعا منهم على أهل البلاد المحكومين ومحافظة على الارستقراطية التى تؤهل للعرش بدون نظر إلى اختلاف أصول أفرادها وما مروا به من رق وعبودية .

وكان المماليك فيما بينهم ينقسمون إلى أحزاب متطاحنة لا تربأ بنفسها عن استعمال أدنأ طرق التنكيل الواحد بالآخر . ومع هذا فان الانقسام الداخلى لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجى الذى كانوا يواجهونه كعصبة واحدة ، مما يفسر لنا سر قوتهم وانتصاراتهم الحربية إزاء عدوهم المشترك .

ومن خواص المماليك جمعهم بين الصلاح فى نظر الشعب والاستمساك بقواعد الدين الحنيف من حيث الصلاة والزكاة وتشييد العمائر الدينية وغير ذلك ، بينما تجدهم فى حياتهم الخاصة لا يتورعون عن اتيان أشنع المنكرات والتعسف فى أذى الخلق وإهراق الدماء بلا اكتراث بأبسط المبادىء الانسانية . وهذا المزج بين الصلاح والطلاح غريب فى بابه يظهر لنا أن المماليك كانت لهم شخصيتان : واحدة عامة وأخرى خاصة . واحدة تعمل على إعلاء كلمة الاسلام وأخرى لا تأبه بما يبشر به الاسلام من قواعد العدل والخلق الكريم . وهذا طبعا كلام عام ينطبق على المماليك فى مجملهم لأنه كان هناك أيضا فى صفوفهم أفراد قلائل اتصفوا بحب الخير والدين الصحيح . وعلى ذلك فاننا لا نظن أن شعورهم الدينى كان عميقا ولكنهم رغم رذائلهم وجرائمهم كانوا فى بعض الأحيان يتخذون مظهراً خارجياً فيه شىء من التقوى ، فيبنون العمائر الدينية ويوزعون الاحسان والعطايا (١) .

والمعروف أن المماليك كانوا لا يجدون بأساً فى الاحتفاظ بنسبة تشير إلى صاحبهم الأول أو إلى أستاذهم . وتذكر هذه النسبة بعد أسمائهم : فالمعز أيبك التركمانى تسمى بالصالحى النجمى لأنه كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب . كذلك الظاهر بيبرس العلائى البندقدارى الصالحى تسمى « بالعلائى البندقدارى » لأنه كان فى أول أمره من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، ثم تسمى بالصالحى بعد أن انتقل إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب وصار من مماليكه البحرية . وشيخو العمرى نسبة إلى تاجر اسمه عمر كان قد اشتراه فى البداية (٢) .

---

(١) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire pp. 46—47.

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 76.

وإذا كان صاحب المملوك هو السلطان الجالس على العرش ، فان نسبته إلى اسم هذا السلطان يسبقها لفظ « الملكى » فيقال مثلا : « قوصون الملكى الناصرى » (١).

وكذلك كانت بعض الألقاب التى تطلق على المماليك تشير إلى الثمن الذى دفع فيهم . ومثال ذلك لفظ « الألفى » الذى عرف به السلطان قلاوون والذى يشير إلى ألف الدينار التى اشترى بها فى صباه(٢). ومن ذلك نرى أن المماليك كانوا ينسبون إما إلى صاحبهم الأول أو إلى التجار الذين باعوهم أو إلى الثمن الذى دفع فيهم . على أنه من المعروف كذلك أنه يضاف إلى أسمائهم فى بعض الأحيان النسبة إلى الوظائف التى شغلوها أولا بين غلمان السلطان . وربما كان السبب فى هذا كله يرجع إلى الرغبة فى التميز بين المماليك ذوى الاسم الواحد ، فقد كان الاقبال على بعض الأسماء كبيراً جداً حتى لقد ورد فى المنهل الصافى لأبى المحاسن ذكر اسم نحو عشرين مملوكا باسم بيبرس فى نهاية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

وكان المملوك شديد التمسك بسيده أو أستاذه الذى اشتراه وقام بتربيته . وكانت رابطة الأستاذ بمماليكه رابطة لا انفصام لها ، فقد كانوا يخلصون له فى السراء والضراء ويكونون رهن إشارته يوجهم كيفما شاء لتحقيق مآربه . وثمة علاقة أخرى كان لها شأنها وهى الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد ، فنبتت بينهم رابطة زمالة قديمة ، وكان يطلق على هؤلاء اسم « الخشداشية » على ما بيناً . وهذه الرابطة كانت لها قوة واحترام . ويشهد بصحة ذلك ما تكرر فى عصر المماليك من أن السلطان كان يرقى خشداشه إلى أتابك ، بل الظاهر أنه كان يحدث كثيراً أن خشداش المملوك يستولى على موجوده عند وفاته . وقد أبطل السلطان الظاهر بيبرس هذه العادة سنة ٦٦٢ هـ (٣) . على أن بعض المؤرخين ينكر وجود رابطة الزمالة أو الخشداشية ، ويذهب إلى أن وسط المماليك لم تكن فيه صداقة ولم تكن فيه أبسط أنواع الزمالة (٤) ، وخاصة حين يرتقى المماليك ويصبحون على المسرح الأول ، يتنافسون فى الحصول على الوظائف الكبيرة أو على السلطنة ، حينذاك تنسى بينهم الزمالة والصداقة ، ويصبح مقياس نجاح كل منهم عدد من يحيطون به ويلوذون بحزبه من صغار المماليك (٥) .

وكان باب الترقى فى حكومة المماليك مفتوحا على مصراعيه لكل مملوك يثبت كفايته للعمل فيترقى من مملوك بسيط إلى أمير خمسة أو عشرة أو خمسين أو مائة أو ألف حتى يبلغ السلطنة نفسها . على أن المماليك لم يكونوا متساوين من حيث فرص الترقى ، فان المماليك الذين كانوا فى

---

(١) Van Berchem : Ibid. pp. 177—180.

(٢) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٣٤

(٣) ابن الفرات جـ ١١ ص ٢٥ .

(٤) Wiet : Précis de l'Histoire d' Egypte, t. II p. 238.

(٥) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 45.

خدمة الأمراء كانوا يظلون مماليك أرقاء طوال حياتهم ولم تكن لديهم فرصة للترقى . أما مماليك السلطان فان باب الترقى لم يكن يفتح لهم إلا إذا أعتقهم السلطان وانضموا إلى الحرس السلطانى الذى كان نواة الجيش الحقيقية أو انضموا إلى غلمان السلطان ممن يقومون بوظائف البلاط المختلفة (١) . ولم يكن السلطان إلا واحداً من أمراء المماليك قدموه على أنفسهم primus inter pares لقوة شخصيته ووفرة أنصاره وكثرة جنده وقدرته على التغلب على المنافسين من الطامعين فى العرش أو لأنه كسب قلوبهم بكرمه وجوده وكفايته ووعوده . وبذلك كان مملوك اليوم هو سلطان الغد كما يقول ميور Muir (٢) The Slave of to-day, the Sovereign of tomorrow.

ولم يكن هناك اعتبار لنشأة المماليك أو أوطانهم الأولى . بل كانت الجامعة الكبرى بينهم أنهم مماليك غرباء فى هذا البلد الذى تطورت نظمه ، فسنحت لهم المقادير بالاستيلاء على أزمة الحكم فيه . وقيل لو أن الجنرال الفرنسى عبد الله مينو أو سليمان باشا الفرنساوى عاشا فى مصر فى عصر المماليك لما استحال عليهما الوصول إلى العرش (٣) .

وكان المملوك لا يصل إلى مرتبة سيده إلا بعد أن يتربى تربية عسكرية ويتثقف تثقيفا عاما فى مدارس خاصة أعدت لهذا الغرض ، ثم بعدئذ يلحق بجيش سيده ويتدرب على رمى النشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل (٤) .

وكانت سياسة سلاطين المماليك تقوم على الاكثار من المماليك ، فقد استكثر منهم السلطان قلاوون حتى يكونوا عونا له ولأولاده من بعده فى تثبيت عروشهم ، وبذل الأموال الضخمة فى شرائهم وأحسن اليهم ونهاهم عن التعرض لشعبه بسوء . وقد بلغ عددهم ١٢,٠٠٠ مملوك وهو عدد لم يجمعه أحد من سلاطين مصر قبله (٥) . وتعهدهم قلاوون بالتربية والتهذيب وأوصلهم الى أعلى المناصب فصار منهم الأمراء الكبار ونواب ممالك الشام والحصون الاسلامية وغير ذلك من مناصب الدولة الكبرى التى برهنوا فيها على شجاعة نادرة وكفاءة ممتازة . وقد أثر عن مماليك قلاوون أنهم كانوا يهابونه ولا يخرجون عن طاعته .

وقد أنشأ السلطان قلاوون فرقة جديدة من المماليك من الأرمن والجركس وأطلق عليها

---

(١) Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV (L' Egypte Arabe), pp. 393 et seq.

(٢) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 215.

(٣) Hautecoeur et Wiet : les Mosquées du Caire, p. 48.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ٩٥ .

اسم « البرجية » نسبة إلى أبراج قلعة الجبل(١) التى أقاموا بها كما بينا . وإذا عرفنا أن كتبغا ولاچين وبيبرس الجاشنكير كانوا من مماليك تلك الفرقة الجديدة وأنهم اغتصبوا العرش من ابنه الناصر محمد أمكننا القول أن الملك انحصر فى ذرية قلاوون ومماليكه منذ وفاته سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) حتى نهاية دولة المماليك البحرية(٢) . وعرفت تلك الطائفة باسم « الشراكسة » أيضاً وبلغ عددها ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك . وأسكن قلاوون جنس الخطا والقفچاق بقاعة عرفت باسم «القاعة الذهبية» وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم اسم «الخاصكية»(٣) وقد أدمج السلطان قلاوون ذرارى المماليك البحرية الصالحية فى طائفة المماليك البحرية التى أنشأها فى أوائل سلطنته . « فجمعهم ورتّب لهم الجوامك والعليق والكسوة ورسم بأن يكونوا جالسين على باب القلعة وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية »(٤) .

وسار الناصر محمد على سياسة أبيه قلاوون فى الاكثار من شراء المماليك الذين اعتمد عليهم فى حروبه وأصبحوا عوناً له ضد أعدائه . وقد بذل فى سبيل ذلك ما بذله أبوه . وأحسن تربية مماليكه وأنعم عليهم بالملابس الفاخرة والخيول المطهمة والعطايا الوفيرة . وذاع أمر إحسان السلطان الناصر محمد لمماليكه وشدة عنايته بأمرهم فى غير مصر من الأقطار حتى تشجع تجار الرقيق وجلبوا إلى مصر فى عهده عدداً وفيراً منهم من بلاد أزبك وبلاد الروم ومن مدينتى تبريز وبغداد . وكان الآباء يسارعون لبيع أبنائهم إلى هؤلاء النخاسين . وفى أيام الناصر ارتفع ثمن المماليك حتى بلغ ثمن الواحد منهم مائة ألف درهم فى بعض الأحيان أى خمسة

---

(١) كانت القلعة تعرف إذ ذاك باسم قلعة الجبل تمييزا لها عن قلعة الروضة التى أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٧٢ هـ . وأتم بناءها الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب سنة ٦٠٤ هـ وصارت منذ ذلك الوقت مقراً للدواوين السلطانية ودور الحكومة . وهى حصينة جدا تشتمل على كثير من القصور والايوانات والطباق والأحواش والميادين والاصطبلات والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات . وكان بها دار الوزارة وديوان الانشاء وديوان الجيش ودار النيابة وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة والدور السلطانية والجب والأبراج التى كان يحبس بها الأمراء والمماليك الخارجون على السلطان . القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٣٣ — ٢٣٤ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ . كتاب السلوك ج ١ ص ٤٣٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٧ .

ويضيف أبو المحاسن إلى ذلك عبارة تنص على أن من وصل إلى العرش فى عهد دولة المماليك البرجية كان «إما من ذريته وإما من مماليكه أو مماليك مماليك أولاده وذريته » . وأبو المحاسن مؤرخ لا يستهان به ، وربما أنتج البحث فى المستقبل أن نساء بيت قلاوون وذراريهم وكذلك كثير من سلاطين الدولة البرجية كانوا فعلا من مماليك أواخر سلالة البيت القلاوونى .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٦٥٨ .

آلاف دينار (١) ، بواقع الدينار ٦٠ قرشاً صاغاً ذهباً حسب تقدير سمو المغفور له الأمير عمر طوسون ، فيكون ثمن المملوك إذن بالنقد الحديث ما يوازى حوالى ٣٠٠٠ جنيها ذهباً . وهذا بالطبع كثير جداً إذا روعى ما كان للنقود وقتئذ من قيمة . ولكننا لا نقبل هذا الرقم إلا بتحفظ كبير ، ونحن نحمله على ما نعرفه من مبالغة الكتاب فى العصور الوسطى ، ولا سيما إذا علمنا أن المقريزى أشار فى الموضع نفسه إلى أن نفقات المماليك بلغت فى كل شهر سبعين ألف درهم (أى نحو ٢١٠٠ جنيه) ثم تزايدت حتى صارت فى سنة ٧٤٨ هـ مائتين وعشرين ألف درهم (أى نحو ٦٦٠٠ جنيه مصرى) . والواقع أنه إذا صح هذا الرقم فان الأمراء كانوا يحتاجون إلى ثروات طائلة جداً لشراء المماليك الذين نعرف عددهم عند بعضهم .

وقد جرى سلاطين المماليك على اختيار كبار الموظفين من بين مماليكهم . ولذا عنوا بتربيتهم وتثقيفهم وتعليمهم فنون الحرب فى طباق(٢) قلعة الجبل التى كانت عبارة عن ثكنات الجيش المملوكى كله . ويقول المقريزى « كان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة منها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان وأنزله فى طبقة جنسه وسلّمه لطواشى برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم . وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمدن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار . وكان الرسم إذ ذاك الا يجلب التجار إلا المماليك الصغار . فاذا شب الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار إلى سن البلوغ أخذ فى تعليمه أساليب الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج اليه »(٣).

ومن هذه العبارة يتضح أن المماليك كانوا يأخذون نصيبهم من التعليم المدنى والحربى ، وكثيرا ما تفقد السلاطين بأنفسهم شئون تربية مماليكهم . فقد أثر على السلطان الملك المنصور سيف

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) شاهد المقريزى طباق القلعة فقال : « وأدركنا بالقلعة البيوت التى كان يقال لها الطباق » (الخطط جـ ١ ص ٤٤٣) . ثم قال (نفس المصدر جـ ٢ ص ٢١٣) « ان المماليك كانت تقيم دائما بهذه الطباق ولا يسمح لها بمبارحتها ليلا ونهاراً » . والمقصود هنا بطبيعة الحال صغار المماليك الذين كانوا فى مرحلة التربية والتعليم ، بدليل ما ذكره المقريزى (نفس المصدر جـ ٢ ص ٢١٣) من « أن الناصر محمد ابن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوما فى الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم . ولكن لما جلس السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) على عرش مصر بعد أبيه قلاوون سمح المماليك بمغادرتها ليلا ، على شرط ألا يبيتوا بمكان غيرها » . (المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة) . وكان عدد طباق المماليك السلطانية اثنتى عشرة طبقة ، كل طبقة منها قدرحارة ، تشتمل على عدة مساكن ، تسع نحو ألف مملوك . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٣ .

الدين قلاوون أنه كان يخرج فى كثير من أوقاته إلى رحبه القلعة عند موعد تناول الطعام ويأمر بعرضه عليه . ويتفقد مايقدم للمماليك من الأطعمة للوقوف على مبلغ إتقانها ، فاذا رأى عيبا اشتد على المشرف ونهره وعنفه . وبلغ من شدة عنايته بأمر المماليك وحرصه على ترقية شئونهم وتوفير أسباب الراحة لهم أنه كان يقول « كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال ورجال وعقار وأنا عمّرت أسواراً وعملت حصوناً لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك » (١) .

ولقد أحسن قلاوون تربية مماليكه حتى صار منهم الأمراء والنواب « فكان بهم منفعة للمسلمين ومضرة للمشركين وقيامهم فى الغزوات معروف وشرهم عن الرعية مكفوف » . (٢) وقد سار الناصر محمد على سياسة أبيه فى العناية بأمر المماليك وزاد عليه ما كان يفيضه عليهم من العطاء الجزيل والمنح الوفيرة .

ومما يدلنا على أن هؤلاء كانوا موضع العطف والرعاية من سلاطين مصر وأمرائها ما أورده ابن فضل الله العمرى صاحب « التعريف بالمصطلح الشريف » فى الوصايا التى تذكر فى العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم . ومن « وصية مقدّم المماليك » نتبين كيف كان رؤساء المماليك يوصون بحسن معاملتهم وإكرامهم وفادتهم والعمل على ما فيه راحتهم وتفقد أحوالهم والسهر على ما فيه خيرهم ورفاهيتهم ، لا سيما وقد تغربوا عن أوطانهم وحرموا عطف آبائهم وأمهاتهم فصاروا ينتظرون العطف والرعاية وحسن المستقبل .

وهاك بعض ما جاء فى هذه الوثيقة التاريخية الهامة :

« ليحسن إليهم ، وليعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدم عليهم ، وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التى يخيل إليهم أنه معهم وخلفهم وبين أيديهم . وليلزم مقدم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليهم . وليكن لأحوالهم متعهدا ولأمورهم متفقدا . وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيرة ويتعرف ماهم عليه مما لايخفى عليه فانهم إن لم يكونوا أهلا فانهم جيرة . . . وليفرق فيهم مالهم من الكساوى ويسبل عليهم رداء الشفقة . . . وليحمل النظر فى أمر الصغار منهم والكبار أصحاب الطبقات العالية . . . وليوص مقدميهم بتفقد ما يدخل إليهم فان الغش أكثره من الطعام أو الشراب . . . » (٣).

ولكن على الرغم من هذه المعاملة الطيبة ، فان المشرفين على أمر تربية المماليك وتهذيبهم وتأديبهم كانوا لا يترددون فى توقيع أقسى العقوبات عليهم اذا بدرت من أحدهم هفوة أو قصّر فى تحصيل العلوم أو انحرف عن طريق الدين . يقول المقريزى : « ولهم (للمماليك) أزمة

---

(١) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢١٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٣٢٣ .

(٣) العمرى : التعريف ص ٩٨ — ٩٩ .

من النواب وأكابر من رؤوس النواب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته . فإن عثر أحد مؤدبيه الذين يعلمونه القرآن أو الطواشى الذى هو مسلّم إليه أو رأس نوبة الذى هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنبا أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين والدنيا قابله على ذلك بعقوبة شديدة على قدر جرمه . . . فذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون فى سبيل الله وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى »(١) .

ومن ذلك كله نرى أن المماليك قد عنوا بوضع نظام خاص لتربية من يضمونهم إلى صفوفهم من الأطفال الجدد حتى يضمنوا رقيهم فى أغلب النواحى الثقافية بمدارس خاصة يتعلمون فيها القراءة والكتابة وكثيراً من مختلف العلوم بما فيها الفقه والفلسفة والرياضة وغيرها . وأهم من ذلك أنهم كانوا يدربون فى معاهد خاصة على صناعة الحرب والفروسية . وكانت الأموال الطائلة التى جمعها المماليك أكبر عون لهم فى الأنفاق بسخاء على تربية صغار المماليك . ولكننا مع ذلك نجد فى بعض الأحيان من المماليك من بقى أميا أو لم يأبه باستعمال اللغة العربية فى حياته الخاصة والعامة .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٤ .

وهنا يلزم أن نضيف النص المشهور الذى حكم فيه المقريزى على ما آلت إليه حال المماليك فى دولتهم البرجية ، فكتب : « واستقر رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم . فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا وأشحهم نفسا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضا عن الدين . ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب . لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر » . (راجع خطط المقريزى : نفس الجزء والصفحة) .

الباب الثانى

سلطنة المماليك فى مصر

الى أن اعتلى الناصر العرش

(٦٤٨ — ٦٩٣ هـ = ١٢٥٠ — ١٢٩٣ م)

١ — السلطنة المعزية الى أن اعتلى بيبرس عرش مصر (٦٤٨ — ٦٥٨ هـ = ١٢٥٠ — ١٢٦٠ م)

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب عدة أشخاص كان لهم أكبر الأثر فى تغيير مجرى السياسة المصرية ، من أهمهم شجرة الدر أم خليل وهى أرمينية . وكانت أم ولد فى حريم الصالح أيوب ، بعثها اليه الخليفة المستعصم من بغداد . فولدت له ابنه خليلا ، وكانت فى صحبته وهو ببلاد الشرق فى حياة أبيه الملك الكامل . ثم ظلت معه حينما حبسه الملك الناصر داود صاحب حلب بالكرك سنة (٦٣٧ هـ (١١٣٩ م)[1]. وصفها ابن اياس بأنها كانت « صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة سكرانة من خمرة العجب والتيه »[2] . وقد قامت بدور هام فى حوادث انتقال السلطنة من أيدى الأيوبيين إلى أيدى أمراء المماليك .

كانت شجرة الدر أول سلطانة على مصر من غير الأيوبيين واتفق المماليك بعد وصولها إلى العرش أن يكون عز الدين إيبك التركانى الصالحى أحد المماليك البحرية « مقدما للعساكر » وخطب لها على منابر مصر والقاهرة . إلا أن الأحوال قد اضطربت على أثر توليها الملك فامتنع أمراء دمشق عن الحلف لها وناصرهم فى ذلك الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب ودمشق . ولما كانت الدولة الأيوبية تؤيد الخلافة العباسية ، حاول أمراء المماليك منذ إقامة شجرة الدر سلطانة على مصر أن يحصلوا على موافقة الخليفة العباسى المُسْتعصم بالله (٦٤٠ — ٦٥٦ هـ = ١٢٤٢ — ١٢٥٨ م) على اختيارها . ولكن الخليفة نعى عليهم إقامة امرأة فى السلطنة وكتب اليهم يقول : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلا »

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٢ .

(٢) بدائع الزهور جـ ١ ص ٩١ .

لذلك عارض الشعب فى توليها عرش الديار المصرية بعد أن علم أن الخليفة العباسى لم يوافق على تنصيبها سلطانة . إلا أن شجرة الدر احتفظت — بما أوتيت من حذق ومهارة — بالعرش فى بيتها بزواجها من الأمير عزالدين أيبك (١٩ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ = ١١٥٠ م) ونزلت له عن العرش بعد أن حكمت مصر ثمانين يوما برهنت فيها على كفاية وبراعة وحكمة فى تصريف الأمور (١) .

بعد أن زالت دولة بنى أيوب وانتقل حكم مصر إلى مماليكهم بانتخاب الأمير عز الدين أيبك (٢) لعرش السلطنة (٦٤٨—٦٥٥ هـ = ١٢١٠—١٢٥٧ م) ، نلاحظ أن الحالة لم تستقر تماما ، كما هو شأن كل دور من أدوار الانتقال فى مختلف عصور التاريخ البشرى .

على أن المماليك لم ينتخبوا من بينهم الأمير أيبك سلطانا لأنه كان أقواهم مراساً فى إدارة شئون البلاد ، بل على العكس من ذلك دفعهم إلى هذا الاختيار كونه من أواسط الأمراء مكانة وليس من أعيانهم ، حتى إذا بدا لهم أن مصلحتهم تقتضى صرفه عن العرش استطاعوا ذلك فى يسر وسهولة لضعف شأنه وضآلة نفوذه (٣) .

وقد اعترض ايبك فى عهد سلطنته عدة عقبات، فان الناس لم ينسوا بنى أيوب باعتلاء ايبك عرش السلطنة ، فقد أورد لنا ابن اياس عبارة نستدل منها على أن كثيراً من المماليك البحرية كانوا لا يزالون يذكرون حق الأيوبيين الشرعى فى عرش البلاد ، فلم يرضوا عن سلطنة ايبك ولم يطمعوا فى أن يكون المماليك حكم وادى النيل (٤) . لذلك وقع فى عهد سلطنة أيبك حادث نادر الوقوع فى تاريخ الأمم والشعوب وهو إقامة سلطانين معاً فى وقت واحد ، إذ اتفق بعض أمراء المماليك بزعامة الأمير فارس الدين أقطاى مع المعز ايبك (٥ جمادى الأولى سنة ٦٤٨ هـ) على إقامة سلطان آخر من بنى أيوب « لأنفتهم وخوفهم من المعز ايبك . . . فاختاروا أن يقيموا صبياً من بنى أيوب ويكون (صحتها ويكونوا) هم الذين يدبرون الملك ويأكلون الدنيا باسمه »(٥) . فاستدعوا الناصر صلاح الدين يوسف (٦) ابن الملك المسعود

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٩ .

(٢) مما هو جدير بالملاحظة أن معظم أسماء أمراء المماليك عبارة عن أسماء أشياء وردت فى اللغات التركية والفارسية والتترية (Lane—Poole : The Art of the Saracens, p. 20) فلفظ أيبك يتركب من كلمتين هما : « أى » ومعناها قمر و « بك » ومعناها « الأمير » . فمعنى الاسم « أمير قمر » (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٩) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٤ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٠ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٧٨ .

(٦) ويقال له مظفر الدين موسى وتسيس ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

يوسف صاحب بلاد اليمن وبايعوه بالسلطنة ولقبوه الملك الأشرف[١] .

وقد اختلف المؤرخون فى اللقب الذى تلقب به أيبك بعد وصول الملك الأشرف إلى مصر . فقال بعضهم أنه ظل يحكم مصر كأتابك للملك الأشرف . يقول ابن واصل : « فأقيم الملك الأشرف سلطانا وخطب له بالديار المصرية ويكون المعز عز الدين أيبك التركمانى أتابكه واليه تقدمة العسكر »[٢] . ويقول أبو المحاسن : « فأحضروه (أى الأشرف) وسلطنوه وخطبوا له وجعلوا الملك أيبك التركمانى أتابكه وتم ذلك . فكان التوقيع يخرج وصورته : رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى »[٣] .

وقال بعض المؤرخين أنه ظل هو والأشرف يحكمان مصر كل منهما بلقب « سلطان » . يقول المقريزى « فاجتمع رأى الأمراء على إقامة الأشرف شريكا للمعز فى السلطنة فأقاموه معه فى جمادى الأولى سنة ٦٤٨ هـ »[٤] . ويقول ابن إياس : « فلما تسلطن يوسف المذكور لم يعزل أيبك عن السلطنة بل صار معه مثل الشريك وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها وضربت السكة على الدنانير باسمهما »[٥] .

على أن المؤرخين قد أجمعوا على أن الأشرف الناصر صلاح الدين لم يكن له مع أيبك سوى الاسم . وفى ذلك يقول المقريزى : « وصارت المراسم تبرز عن الملكين . إلا أن الأمر والنهى للمعز وليس للأشرف معه سوى مجرد الاسم »[٦] . ويقول أبو المحاسن : « واستمر الحال على ذلك مدة والمعز هو المستولى بالتدبير ويعلم على التواقيع والأشرف المذكور صورة »[٧] .

وظل الناصر صلاح الدين شريكا فى السلطنة حتى قويت شوكة أيبك بانضمام عدد كبير من المماليك اليه ، فانتهز فرصة ازدياد خطر التتر فى بلاد الشام وتهديدهم مصر سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) وقطع اسم الأشرف من الخطبة وسجنه بقلعة الجبل[٨] ثم بعث به إلى عمانه[٩]

---

(١) اختلف المؤرخون فى تقدير سن الملك الأشرف . فذكر المقريزى (الخطط حـ ص ٢٣٧ والسلوك حـ ١ ص ٣٦٩) أنه كان فى السادسة من عمره حين جاء إلى مصر . وذكر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٥) أن عمره كان عشر سنين . على أننا نرجح رواية ابن إياس (بدائع الزهور حـ ١ ص ٩٠) التى ذكر فيها أنه كان فى العشرين من عمره .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب (مخطوط) حـ ٢ ص ٣٧٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٥ — ٦ .

(٤) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ٩٠

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٧) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٦ .

(٨) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١٦٥ .

(٩) العمرى : مسالك الأبصار حـ ١٦ القسم الثالث ص ٥٧١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ ص ١٢ .

القطبيات (١) . وكان الأشرف آخر ملوك بنى أيوب بمصر ، ولم تقم للايوبيين بعد ذلك قائمة على الرغم من المحاولات التى حاولها كثير من الأيوبيين فى سبيل الوصول إلى عرش مصر وإحياء الدولة الأيوبية فيها .

كذلك خرج الملك الناصر صاحب الشام بجيوشه ووصل إلى الديار المصرية بقصد الاستيلاء عليها . ولكن جيوش المعز أيبك هزمته وأرغمته على العودة إلى الشام(٢) . كما أن عدداً كبيراً من الجند عزموا — فى الشهور الأولى من سلطنته — على خلعه ، وإقامة الملك المغيث عمر أحد أبناء البيت السلجوقى مكانه فى السلطنة . وهنا نرى المعز أيبك يبتكر هذه الحيلة للتخلص من منافسيه فى السلطنة ، فيستعين بالخلافة العباسية لتحقيق أغراضه ويأمر بأن ينادى فى القاهرة ومصر أن « البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك المعز نائبه فيها » (٣) .

ومما أقلق بال أيبك أن الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار مقدم المماليك البحرية — الذى ساعد على إقامة الناصر صلاح الدين فى السلطنة مع أيبك — ظهر إذ ذاك على مسرح السياسة المصرية ، وأخذ يعمل على التقليل من شأن أيبك حتى أنه كان يعده من أتباعه ويسميه باسمه دون لقب السلطنة تكبراً منه . كما كان يأنف من أن يتلقى أوامره من السلطان وإنما كان يقطع فى المسائل الهامة برأيه (٤). ولما اشتد عسف أقطاى ومماليكه (٥) وتجرءوا على السلطان أيبك بعث فى طلبه وتظاهر بأنه يريد استشارته فى مهام الدولة . ولما وصل إلى قلعة الجبل (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) أغلق بابها ومنع مماليكه من الدخول معه ثم أمر به فقتل . وعلى أثر

---

(١) المقصود بلفظ « القطبيات » : بنات الملك العادل الكبير . وقد عرفن بذلك الاسم نسبة إلى شقيقهن الملك العادل . راجع ما ذكره ابن واصل صاحب مفرج الكروب عند كلامه على حوادث سنة ٦٤٨ هـ .

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٧٠ .

(٤) أجمل ابن أيبك صاحب كنز الدرر المخطوط (جـ ٨ القسم الأول ص ٢٢) صفات فارس الدين أقطاى وموقفه بالنسبة إلى المعز فقال : « إنه كان قد طغى وتجبر وبغا وتكبر ووصل من أمره أنه كان إذا ركب من داره إلى القلعة أن يقتل جماعة بأمره وبين يديه ولا يلتفت إلى المعز ولا غيره وأمره مطاع فى الحقيرة والكبيرة لا يرد له مرسوم . والملك المعز معه باسم الملك لا غير . . . وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شىء عنده وكان كثيرا ما يذكره فى مجلسه بين خشداشية المعز ويستنقصه ولا كان يسميه إلا أيبكا . وبلغ ذلك المعز وهو يغضى عنه لكثرة خشداشيته البحرية والصالحية وكانوا قد ساروا إلى القاهرة ومصر أنجس سيرة من العسف بالناس والجور » .

(٥) ليس أدل على عسف اتباع اقطاى مما رواه المقريزى (كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٩٠) عند كلامه على حوادث سنة ٦٥٢ هـ : « وكانت أصحابه [الفارس أقطاى الجمدار] تأخذ أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم ، فلا يقدر أحد على منعهم . وقال المقريزى فى موضع آخر (نفس المصدر والجزء ص ٣٨٠) : « كثر ضرر المماليك البحرية [ومن بينهم مماليك أقطاى] بمصر ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم » .

ذلك فر أنصار أقطاى من الأمراء من أمثال الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى والأمير سيف الدين قلاوون والأمير سُنقر الأشقر إلى الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك والملك الناصر يوسف صاحب دمشق .(١)

ولا يكاد عهد المعز أيبك يخلو من المنازعات التى قامت بينه وبين كبار المماليك البحرية على السلطة والنفوذ (٢). فان الأمر لم يستتب للسلطان أيبك بالتخلص من الأشرف صلاح الدين وقتل فارس الدين أقطاى وفرار أعوانه ، لأن هؤلاء الأعوان بزعامة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى صاروا حزبا ضده برغم تفرقهم فى نواحى البلاد الشامية . فخاف المعز عاقبة ذلك وكتب إلى الناصر يخوفه ممن كان عنده منهم وحذره شرهم (٣) . فطلب الناصر استرداد البلاد التى كان قد أخذها منه لاقامة طائفة المماليك البحرية بها فأعادها اليه الملك المعز وتم الصلح بينهما على ذلك .

ولكن هذه المحاولات لم تجد نفعا فقد خاف المعز ، ولجأ إلى الخلافة العباسية مرة أخرى إذ أرسل إلى الخليفة ببغداد ، يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر » وهو فى ذلك يرمى إلى تثبيت ملكه وجعله شرعياً بتأييد الخليفة العباسى ، مترسما خطوات صلاح الدين الأيوبى حين طلب إلى الخليفة العباسى الاعتراف له بسلطان شرعى ليتقوى بذلك على القائلين بوجوب بقاء الملك فى بيت نور الدين .

صفا الجو للمعز أيبك مدة . وإلى هنا كانت السلطنة المملوكية تستند إلى القوة الحربية وتأييد الخلافة العباسية تاييداً يدل على شىء من التبعية .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٥ — ٣٧٦ . المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٢) تتبين لنا درجة العداء الذى قام بين السلطان أيبك وبين المماليك البحرية من المنافشة التى بين سلطان سلاجقة الروم والأمير علم الدين سَنْجَر الباشْقَرْدى — زعيم المماليك الجمدارية الصالحية الفارين من وجه المعز — على أثر الكتاب الذى أرسله المعز إلى سلطان الروم عندما التجأ إليه فريق من أولئك المماليك . وفى ذلك يقول المعز فى كتابه إلى سلطان الروم : « البحرية قوم مناحيس أطراف (جمع طرف وهو هنا الرجل الذى لا يثبت على صحبة أحد) لا يقفون عند الايمان ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم وإن استأمنتهم خانوا وإن استحلفتهم كذبوا وإن وفقت بهم غدروا فتحرز منهم على نفسك فانهم غدارون مكارون خوانون ولا آمن أن يمكروا عليك » . فخاف سلطان الروم منهم وأرسل يستدعيهم فلما حضروا قال لهم : يا أمراء ما لكم ولأستاذكم ؟ « فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : « يا مولانا من أستاذنا ؟ » قال : « الملك المعز صاحب مصر » . فقال الباشقردى : « يحفظ لنا مولانا السلطان إن كان الملك المعز قال فى كتابه انه أستاذنا فقد أخطأ إنما هو خُشْداشنا . ونحن ولیناه علينا وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالمملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا فهربنا منه وتشتتنا فى البلاد ونحن التجأنا إليك » . المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٩٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٩٢ .

واستمر الحال على ذلك إلى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) حين ساءت العلاقة بينه وبين زوجته شجرة الدر، إذ علمت أنه أرسل يخطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فدب فى نفسها دبيب الغيرة والحقد فأرسلت فى طلبه وحرضت عليه من قتلوه[١]. وتم لهم ما أرادوا فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م). فاضطربت الأحوال فى مصر وطمع كثيرون إلى الجلوس على عرش السلطنة. فعضد جماعة من الأمراء الصالحية الأمير عزالدين الحلبى واتفق رأى من بقلعة الجبل على تنصيب الأمير علم الدين سنجر الحلبى — أتابك الملك المعز — سلطاناً. ولكن لم يتم لهؤلاء تولية أحدهم.

انتقلت السلطنة بعد مقتل المعز أيبك إلى ابنه علىّ. وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة، على أن يلقب بالمنصور ويعين الأمير سيف الدين قطز أتابكا له. ولم يكن اعتلاء على عرش السلطنة احتراما لمبدأ الوراثة، فقد كان ذلك المبدأ غريباً عن عقلية المماليك كما سيتضح فيما يلى بل لأن أتباع أبيه رأوا الاحتفاظ بالعرش فى بيته انتقاماً من قتلته. وقد بدأ هذا السلطان الشاب عهده بالانتقام لأبيه أيبك من شجرة الدر، إذ أوعز إلى بعض الجوارى فقتلتها[٢]. وفى عهده اضطربت الأحوال فى مصر، لأن هولاكو كان قد وصل إلى حلب وبدأ يهدد بغزو الديار المصرية.

وكان قطز يعمل منذ تعيينه أتابكا للمنصور على اغتصاب الملك منه. فاستغل الفرصة وأعلن أن الملك المنصور صغير السن وأنه لا يحسن تدبير أمور مصر فى مثل ذلك الوقت المضطرب الذى يحتاج إلى وجود سلطان معروف بالجرأة وسداد الرأى، كى يتمكن من قتال التتر وردهم عن مصر[٣]. والحق أن المنصور كان شابا مستهترا بأمور الدولة فهو طائش العقل يلعب بالحمام مع الصبيان فى أحواش القلعة، بل تدخلت أمه فى شئون البلاد تدخلا ربما أعاد إلى الأذهان موقف بعض الأمراء من شجرة الدر وسلطنتها. فقبض عليه قطز واعتقله بقلعة الجبل[٤]، وأعلن نفسه سلطانا على مصر (٦٥٧ هـ و ١٢٥٩ م). ولما أنكر الأمراء على قطز هذا العمل، اعتذر إليهم بقوله: «انى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فاذا خرجنا وكسرنا هـذا العدو، فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم»[٥]

وبوصول قطز إلى الملك تتضح لنا سهولة اغتصاب الأتابكة للعرش. لم يكن الأتابكة

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٣٩٥.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٨.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٩٢؛ المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٤١٧ — ٤١٨
(٤) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٤١٧.
(٥) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠.

وحدهم الذين اغتصبوا عروش أولاد أسيادهم ، بل إن الأمراء الحاقدين على السلطان قد يدبر أحدهم أمر اغتياله كى يصل إلى العرش .

واجه قطز من مبدأ حكمه تهديد التتر لمصر . وخرج للقائهم فى أواخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) وألحق بهم هزائم شائنة فى عين جالوت (بين بيسان ونابلس بفلسطين) . (١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ) ثم فى بيسان نفسها (وتقع بين حوران وفلسطين) وقتل من التتر نحو النصف[١] . وخرج بعد ذلك من دمشق عائداً الى مصر حتى وصل إلى القصير ، إحدى قرى مركز فاقوس بمديرية الشرقية ، فبقى مع بعض خواصه وأمرائه ورحل جنده الى جهة الصالحيه . وكانت جماعة من المماليك بزعامة الأمير ركن الدين بيبرس قد اتفقوا على قتل السلطان « لكمين كان فى نفس بيبرس لأجل نيابة حلب ، التى كان قطز قد أعطاها لصاحب الموصل »[٢] . ولكى يصلوا إلى تحقيق ما اتفقوا عليه من الغدر بالسلطان تقدم إليه بيبرس وشفع عنده فى إنسان ، وقيل طلب منه امرأة من سبى التتار ، فأنعم عليه بها . وتقدم بيبرس يقبل يده وقبض عليها ، فانتهز الأمير أنص هذه الفرصة وضرب قطز بالسيف وتتابع الباقون عليه ورموه عن فرسه . ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه فى ١٧ ذى الحجة سنة ٦٥٨ هـ . وتركوه ملقى على الأرض فدفنه بعض من كان فى خدمته فى القصير[٣] .

٢ — بيت بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٩ هـ = ١٢٦٠ — ١٢٧٩ م) :

انتقل الملك بعد قطز إلى قاتله بَيْبَرس . ومما رواه المؤرخون عن هذه المسألة نتبين كيف وصل بيبرس إلى السلطنة . يقول المقريزى : « لما قتل قطز ، خرج الأمراء الذين قتلوه إلى الدهليز السلطانى بالصالحية ، واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس . فقام الأمير أقطاى المُسْتَعْرِب الأتابك — وكان بالدهليز — وقال للأمراء عند حضورهم : مَن قتله منكم ؟ بيبرس : أنا قتلته . فقال الأمير أقطاى : ياخوند ! اجلس فى مرتبة السلطان مكانه فجلس فقال الأمير بيبرس[٤] . ويقول ابن إياس : إنه لما قتل قطز ساق الأمراء الذين اشتركوا فى اغتياله ، وهم شاهرون سيوفهم إلى أن وصلوا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية ، فجلس الأمير بيبرس على مرتبة السلطان ، وأخذ المملكة بالقوة »[٥] .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣٨ . Enc. Isl. art. Mamluk.

(٢) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٥٩٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٤ و ١٠١ .

(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٠٧ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٠ و ٣٠١

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٣٦ . وهذا يتفق مع ما أورده العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٥٩٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٤ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٧ .

من ذلك نرى أن ركن الدين أبا الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) اغتصب العرش من قطز . وقد كفانا المؤرخون مؤونة التدليل على أن بيبرس يعد مغتصباً للعرش ، فقد رأينا المقريزى فى كتابيه : الخطط والسلوك ، يذكر أن فارس الدين أقطاى سأل الأمراء هذا السؤال : من قتله منكم ؟ ولما علم أنه بيبرس ، رد فى بساطة تستدعى الدهشة : ياخوند ! اجلس فى مرتبة السلطان مكانه . كذلك رأينا ابن اياس فى عبارته التى أوردناها يقول إن بيبرس أخذ المملكة بالقوة .

وصل بيبرس الى العرش فى ١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وهو بالصالحية واستدعيت الجند فحلفوا له فى اليوم الذى قتل فيه قطز[١]. ثم بايعه فارس الدين أقطاى ، وتبعه بقية الأمراء على اختلاف طبقاتهم [٢]، وحلفوا له جميعا : أن لا يخونوا ولا يثبوا عليه ، وتم ذلك الحلف على المصحف الشريف[٣] .

حلف الجند والأمراء يمين الطاعة ، وبيبرس لم يصل بعد إلى القاهرة . فلما دخلها لم يكن أهلها قد علموا بما حدث للسلطان الملك المظفر قطز ، بل كانت القاهرة قد زينت أبهج زينة والناس فى فرح وسرور لعودة سلطانهم الذى قضى على التتار ، لذلك كانوا متلهفين لرؤيته واستقباله بمظاهر الحفاوة والتكريم ، بل ان الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة بمصر خرج إلى ظاهر القاهرة لاستقبال قطز ، ولم يكن قد وصل إلى علمه ما حل به ، فأعلمه بيبرس بما حدث ، فحلف هو أيضاً لسلطانه الجديد ، وسارع إلى قلعة الجبل لاستقباله فيها . وفى ليلة الاثنين ١٩ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وصل بيبرس ومعه الأمراء إلى القلعة وتسلمها . وفى اليوم التالى نودى فى القاهرة أن : ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر [٤] ركن الدين بيبرس »[٥] .

ولما جلس بيبرس بالإيوان بقلعة الجبل أمر أن يكتب إلى الأقطار بتوليه الملك ، وذلك شبيه بما يتبع فى الوقت الحاضر من إعلان الدول بخبر اعتلاء امبراطور أو ملك جديد عرش ملكه ، وسار على هذه الخطة من خلفه من السلاطين . ثم خلع على الأمراء خلعا سنية ، وفى

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر حـ ١ ص ٢٠٧ .

(٢) اقرأ نص اليمين التى كانت تؤخذ عنـد مبايعة السلطان الجديد فى العمرى : التعريف ص ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ٩٨ .

(٤) تلقب بيبرس بالملك القاهر أولا ، ولـكن الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير أشار عليه بتغيير لقبه القاهر بالظاهر . النويرى : نهاية الأدب حـ ٢٨ ص ١ والعمرى : مسالك الأبصار حـ ١٦ القسم الثالث ص ٥٩٨ ؛ . وقيل إنه كان يلقب أولا بالملك المجاهد . ابن أيبك : كنز الدرر حـ٨ القسم الأول ص ٥٥ أنظر أيضا : Journal Asiatique 1. Série 11. (1829). pp. 3—4.

(٥) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٤٣٦ .

ذلك يقول بيبرس الدوادار : « وأفيضت الخلع على الأمراء والمقدمين والوزراء والمعممين على تفاوت أقدارهم ، وكتب إلى صاحب المغرب وصاحب اليمن وملوك الشام وثغور الاسلام بما قدره الله له من القيام بأمر عباده وإيالة بلاده »[١] .

وان قصة اعتلاء عرش مصر بهذه الصورة اذا صحت دلت على أن بيبرس لم يخاطر بأى شيء فى قتله قطز وأنه تولى العرش بموافقة تامة ولم تقم فى وجهه أى معارضة قوية من جانب الأمراء ، اللهم جانب الأمير علم الدين سنجر نائب دمشق . ولم يكن من الضرورى أن يصل قاتل السلطان الى العرش . فان بيدرا حين قتل الأشرف خليل سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) وبايعه بعض الأمراء بالسلطنة تبعه الآخرون وذبحوه وقدموا العرش للناصر محمد السلطان أخى السلطان خليل . كذلك لم يتمكن كل من الأمير طغجى وكرجى قاتلى السلطان لاچين من الوصول الى العرش . ولعل عدم وصول قتلة الأشرف خليل والمنصور لاچين الى السلطنة يرجع الى أن السلاطين من بيت قلاوون كانوا محبوبين من الشعب واستقر الرأى فى الحالتين على اسناد العرش الى الناصر محمد .

ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك ، اذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام . وقد أطنب المؤرخون فى مناقبه بسبب ما ابتدعه من النظم والقواعد التى قوّت أسس دولة المماليك[٢]. ففى عهده أقيمت الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠ م) بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م)[٣]. وباحيائها اكتسبت سلطنة بيبرس صفة شرعية بفضل التقليد الذى حصل عليه من الخليفة . وأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه فى الداخل والخارج ، وأحاط بيبرس عرشه وعرش من جاء بعـــده من سلاطين المماليك بسياج من القداسة والتبجيل ، وأثبت أحقية المماليك فى تولى شئون مصر . وساعد ذلك على إخماد الاضطرابات وتسكين الفتن التى قد يثيرها بعض أمراء المماليك فى حكم بيبرس وكتم الاحقاد التى كانت تغلى فى صدورهم كالمرجل .

وسنّ بيبرس نظام ولاية العهد فى دولة المماليك البحرية وحصر وراثة العرش فى أسرته (٦٦٢هـ) وذلك بتولية ابنه محمد المسمى بركة خان[٤] عهده ، ليحول بذلك دون تدبير الدسائس والمؤامرات التى كان يحيك شباكها كبار الأمراء حول عرش السلطان القائم ولكى يحتفظ بالسلطنة فى بيته بعد وفاته .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨ .

(٢) راجع G. Wiet : Le Sultan Baibars (Editions de la Revue du Caire, 1943).

(٣) راجع ما كتب عن ذلك فى الباب الخاص باحياء الخلافة العباسية فى القاهرة .

(٤) سمى بركة خان على اسم جده لأمه بركة خان الخوارزمى . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٦٧ .

ذلك أنه فى ١٣ شوال سنة ٦٦٢ هـ أمر بيبرس بأن يقام لابنه محمد هذا موكب حافل ابتهاجاً بتوليته العهد وكتب له تقليد الولاية ولقب الملك السعيد . وركب الملك السعيد لابساً شعار السلطنة (١) ومشى فى ركابه كبار الأمراء يتبادلون حمل الغاشية السلطانية ، كما سار الأعيان والعلماء وعليهم الخلع الفاخرة والحلل الزاهية وزينت القاهرة زينة باهرة وتقرر أن يكون الأمير عز الدين أيدمر الحلى أتابكا لولى العهد .

ولم يكتف بيبرس فى هذا التقليد بمنح ابنه السعيد ولاية العهد ضماناً لوصوله الى عرش السلطنة من بعده ، بل عمد الى إشراكه فى حكم البلاد فمنحه كل الاختصاصات التى كان يباشرها السلطان ، بل يمكننا أن نقول إنه جعله سلطاناً ثانياً يعمل تحت إشرافه دون أن يكون له حق الاستقلال بالعمل ، وتتلخص السلطات التى وضعها أبوه فى يده فى الإشراف على مسائل الحرب (السيف) ، وعلى ميزانية الدولة (الرزق) ، كما أمر بذكر اسم الملك السعيد فى خطبة الجمعة بجانب اسمه ، وبأن تضرب السكة باسميهما معاً . وهذا أعظم ما تطمح إليه نفس حاكم . ولم يقف بيبرس فيما منحه لولده من الاختصاصات عند هذا الحد ، بل وسّع فى سلطته حتى كادت تكون عامة فمنحه : حق تدبير شئون (العباد) ومباشرة أمر (الثغور والقلاع والبلاد) بل ما وراء مصر من الأقاليم التابعة (من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام بعد شام) وكأنه كان يخشى أن يعتقد الناس أن سلطته فى تصريف شئون الدولة مقصورة على أمور دون أخرى (٢).

وبعد أن أوضح بيبرس مدى اختصاصات ابنه خاف أن يظن الناس أنه منحه كل تلك السلطات دون أن يتعهده بنصائحه الثمينة ويفهمه ما يجب أن يتحلى به من الخصال الحميدة ، فقال « وستشاهد الولد من الوصايا بما ينشأ معه توأما ويمتزج بلحمه ودمه » ثم كشف عما اتصف به ابنه من الذكاء وسرعة الخاطر وحدة الذهن ، حتى يطمئن الناس الى أن الملك السعيد سيعى بسهولة ما يسديه اليه أبوه من النصائح والوصايا فقال : « وفى الولد بحمد الله من نقاء الذهن وصحة التصور ما تتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل » . ولكنه لم يشأ أن يذكر نصائحه لابنه مع أنه كان يهمنا الوقوف عليها حتى تعطينا الصورة التى كان يرجو أن يطبعها فى ذهنه ويعامل شعبه بها حين يصبح سلطاناً عليهم .

---

(١) شرح القلقشندى (صبح الأعشى فى مواضع متفرقة) شعار السلطنة من أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان السلطان يظهر بها فى موكب السلطنة ونحوه من الملابس . ولم يكتب فى هذا الموضوع بهذه الإفاضة غيره من الكتّاب المعروفين .

(٢) اقرأ نص تولية السلطان الظاهر بيبرس عهده لابنه الملك السعيد فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١٦٣ — ١٦٦ .

وعلى أثر كتابة التقليد بولاية العهد للملك السعيد وانتهاء موكب الاحتفال بذلك ، عرض السلطان الظاهر بيبرس الجيش بنفسه وأخذ على الناس الايمان الموثقة باحترام ولاية العهد لابنه « فحلف عند ذلك الأمراء والمفاردة والحلقة والبحرية وساير الناس له بآمال منبسطة وطاعة غير مشترطة وعهود بالوفا مقسطة »(١) . وأذيع هذا العهد فى سائر البلاد المصرية وفى جميع الأقطار التابعة لمصر .

وفى سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) جدد بيبرس ولاية العهد لابنه الملك السعيد . وكأنه خاف أن ينقض الناس أيمانهم وينكثوا ماعاهدوه عليه بمواثيقهم المؤكدة من احترام الولاية لابنه فى سنة ٦٦٢هـ فأراد أن يجـــدد هذه المواثيق ثانية ، ففى ٩ صفر سنة ٦٦٧ هـ تحدث السلطان بيبرس مع الأمراء فى أمر تفويض أمور الدولة من بعده إلى ابنه الملك السعيد وتجديد ولاية العهد له فقبلوا ما أشار به بيبرس وحلفوا هم والجند على ذلك(٢) . وفى ١٣ صفر ركب الملك السعيد فى الموكب كما ركب عند منحه ولاية العهد لأول مرة . وبعد انتهاء الموكب جلس فى الايوان بقلعة الجبل للنظر فيما يباشره والده من أمور الدولة(٣) ، وفى ٢٠ صفر قرىء التقليد الجديد بالايوان بحضور الأمراء والأعيان وهو من إنشاء فخر الدين بن لقمان كاتب الانشاء ولا يخرج عن كونه توكيداً للاختصاصات التى منحها الملك السعيد فى ولاية العهد الأولى .

ولكن على الرغم من هذه السلطات الواسعة التى وضعها بيبرس فى يد ابنه يظهر لنا أن ابنه لم يباشر هذه السلطات فى حياة أبيه ، بل ظل أبوه قابضاً على أزمة الحكم يصرفها بنفسه دون منازع .

* * *

كان بيبرس إدارياً حازماً فقد دأب على ترقية شئون بلاده وتنمية مواردها . فحفر الترع وأصلح الحصون وأسس المعاهد وبنى المساجد وكان له مقام عظيم بين أمراء مصر فقد هابوه وخشوا بأسه حتى لم يكن أحدهم يجسر على الدخول عليه إلا بإذنه الخاص(٤) . لذلك لم يفكر أحد منهم فى الخروج على طاعته أو تدبير الفتن والدسائس بقصد اغتصاب عرشه اللهم إلا اذا استثنينا هذه الفتنة التى أثارها آقوش البرلى بحلب . على أن ذلك كان فى أوائل عهد بيبرس وليس فى المراجع المعاصرة ما يدل أن أميراً آخر قد حدثته نفسه بالخروج على هذا السلطان .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٠ .

(٢) اقرأ نص تجديد الحلف بتولية السلطان بيبرس العهد لابنه الملك السعيد فى النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٢٣٩ ا — ب .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٦٩ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٣٧ .

كانت حكومة بيبرس حكومة استبدادية مستنيرة وكان بيبرس على رأسها صاحب السلطان المطلق، وهو يعد بحق مؤسس دولة المماليك ومبتدع طريقة حكمها. فقد نظم الأداة الحكومية واستعان فى إدارة شئون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب، واستحدث كثيراً من الوظائف الهامة، وأدخل فى سنة ٦٦٣ هـ تعديلا جوهرياً على النظام القضائى بمصر، ووجه عنايته إلى إعداد جيش قوى يكون عدة له وقت الحروب ليتمكن من القيام بالدور الذى رأى أن يقوم به من محاربة الصليبيين تقليداً لصلاح الدين، هذا فضلا عن محاربة المغول، كما عمل بيبرس على إعادة شأن الأسطول إلى ما كان عليه.

وقد اقتنى بيبرس عدداً كبيراً من المماليك حتى أصبحت مصر مملوءة بهم. وأكثر منهم بدليل ما ذكره المقريزى من أن بيبرس قد «جرى على عادته فى عتق ثلاثين نسمة» (١) فى كل ليلة من شهر رمضان. ومن ذلك يتبين لنا أن بيبرس كانت لديه أعداد وفيرة من المماليك حتى استطاع أن يقرر عتق مثل هذا العدد فى كل ليلة.

كان بيبرس قائداً شجاعاً ضربت الأمثال ببطولته وشهامته. وقد تجلى ذلك فى كثير من المواقع الحربية التى خاض غمارها كواقعة المنصورة التى انتهت بانتصار المصريين على الصليبيين سنة ٦٤٧ هـ وواقعة عين جالوت التى قاد فيها جيوش السلطان قطز ضد جيوش التتار التى أغارت على بلاد الشام. وكان بيبرس أحسن مثل للحاكم العادل فقد كان يجلس للمظالم ويعطف على الفقراء والمعوزين كما كان عالى الهمة وافر النشاط مقداماً خفيف الركاب يسير على الهجن وخيول البريد لكشف القلاع وتدبير أمور الاقطاعات التابعة لمصر (٢).

وقد توّج بيبرس إصلاحاته بعدة قوانين أصدرها لتهذيب أخلاق المصريين فأمر سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٦ م) بمنع بيع الخمور وإقفال الحانات التى بالقاهرة وجميع أعمال مصر ونفى كثيرين من المفسدين (٣).

وقد أجمل الدكتور زكى حسن مزايا السلطان بيبرس فى هذه العبارة «لم يكن بيبرس قائداً عظيما فحسب أو حاكما شديد العناية بتنظيم الجيش وإنشاء البحرية وإصلاح الثغور والحصون وإنشاء البريد وتعبيد الطرق وتخفيف الضرائب. ولم يعن فقط بعمارة الحرم النبوى وقبة الصخرة تدعيما لنفوذ مصر على الأماكن المقدسة، وبشن الحروب على الصليبيين الذين أنهكتهم المنافسات والجرى وراء المنافع المادية والذين لم يبقوا بعد صلاح الدين إلا بفضل النزاع بين خلفائه من الأمراء الأيوبيين. ولم يكن فقط صاحب الفضل فى القضاء على طائفة الحشيشيين التى كانت تؤذى المسلمين والمسيحيين على السواء. ولم تكن لبيبرس كل هذه المزايا

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٥١٣.

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٣٨.

Lane Poole ; The Art of the Saracens, p. 26.

(٣) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص ٥٥٣.

فحسب بل كان سياسيا عظيما . وحسبه فخرا فى هذا الميدان أنه نجح فى تحقيق حلم احمد بن طولون فجعل مصر عاصمة الخلافة السنية[١] » .

* * *

وفى ٢٧ المحرم سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) توفى بيبرس — على أثر عودته من واقعة قيسارية — بدمشق ودفن بها . ولما حضر الأمراء من دمشق أعلنوا موت السلطان ثم دخلوا على ابنه الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة خان (٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م) وأعلموه بوفاة أبيه . ولم يعين له أتابك إذ كان قد بلغ التاسعة عشرة من العمر حين اعتلى العرش . وقام الخلاف بينه وبين الأمراء من بدء حكمه ، مما أدى فى النهاية إلى خلعه[٢] . ذلك أن بركة خان خرج فى سنة ٦٧٧ هـ إلى دمشق فاتصل بأمرائها انه يريد القبض عليهم فرحلوا عنها إلى مَرْج الصُفَّر (قرب دمشق) وأقاموا هناك . فلما بلغ بركة خان ذلك أرسل اليهم « ملتمسا منهم الرجوع ومتلطفا إليهم بأنواع الخضوع وباذلا دخوله تحت مراضيهم ووقوفه عند أوامرهم ونواهيهم . . فما ازدادوا إلا جماحا عنه ونفارا منه وقالوا لا سبيل إلى مراجعته وقد انصدعت القلوب وجرت بهذه الخطوب »[٣] . ولما سار هؤلاء الأمراء إلى مصر ليعملوا على خلع بركة خان رحل هذا من دمشق ووصل إلى الديار المصرية . فلما بلغ الأمراء خبر وصوله على حين غفلة خرجوا اليه يضمرون له السوء العاجل . ولولا ضباب القاهرة فى ذلك اليوم لما استطاع بركة خان

---

(١) زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٤ .

(٢) هذا يبين لنا أن خلع السلطان لم يكن دواما عن طريق الأتابك بل كان يقع أحيانا على يد أمراء الدولة الأقوياء إذا لم يرضهم السلطان القائم مهما كان حقه فى العرش واضحا . وفى ابن واصل (مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٤) ظرف عن وصية أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه بركة خان من دمشق عند ما أحس بدنو أجله ومنها نعلم أن بيبرس لم يكن يأمن على نفسه وعلى ابنه من غدر أمراء مصر وأنه كان يعلم مدى قدرتهم على الدس وإثارة الفتن لمن لا يردعهم ويأخذهم بالشدة : « إنك صبي وهؤلاء الأمراء يرونك بعين الصبي . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقه ولا تستشر أحدا فى هذا وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك » .

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٨ .

هذا القول الذى جاء على لسان المؤلف يدل على قوة شكيمة الأمراء وضعف السلطان أمامهم ورغبته فى جلب رضاهم . وكانت صفة الغدر متأصلة فى نفوس المماليك . فكثيرا ما غرر السلاطين بالأمراء الفارين وبعثوا إليهم برسائل كانت تكتب عادة بالترضية والتأمين حتى لا يستشفوا من ورائها أية نية سيئة للسلطان نحوهم فيأمنون جانبه ويعودون إليه فينفذ فيهم ما أراده من قتل أو حبس أو تشريد . ومن ثم أطلق المؤرخون على هذه الرسائل اسم ملطفات . وقد وردت كلمة « ملطف » بهذا المعنى فى كثير من مصادر عصر المماليك (راجع ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ القسم الأول ص ٣٦) . وهذا يجعل المؤرخ يلتمس العذر لهؤلاء الأمراء فى رفضهم الصلح وأخذهم جانب الحذر قبل فوات الأوان .

أن يصل إلى قلعة الجبل بسلام(١) . ولما علم الأمراء بوصوله إلى القلعة حاصروه بها وشددوا عليه الحصار حتى قبل أن يخلع نفسه من السلطنة بحضور الخليفة الحاكم بأمر الله والأمراء والقضاة وعمل بذلك محضر شرعى أمضاه الحاضرون(٢) .

ظهور الأمير قلاوون :

وفى أثناء المنازعات التى قامت بين بركة خان بن بيبرس وأمراء مصر ، ظهر أمير قوى كان له أثر كبير فى سير الحوادث الجارية فى ذلك الوقت ، هو الأمير سيف الدين قلاوون (٣) (الألفى العلائى الصالحى النجمى أبو الناصر محمد) أحد المماليك البحرية الذين نبغوا فى أواخر الدولة الأيوبية . وهو قفجاقى من قبيلة بُرْج أعلى فجلب صغيراً واشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر الساقى العادلى — أحد مماليك الملك العادل أبى بكر بن أيوب — بألف دينار . « وغالى فى قيمته لحسنه وصورته فعرف بالألفى » (٤) . ولما مات الأمير علاء الدين فى سنة ٦٤٧ هـ انتقل قلاوون وعدد من المماليك إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وأطلق على هؤلاء اسم « العلائية » نسبة إلى أستاذهم الأمير علاء الدين . وجعل الملك الصالح « قلاوون » من المماليك البحرية ومازال كذلك إلى أن اعتلت شجرة الدر عرش مصر(٥) .

وكان قلاوون أحد الأمراء الذين خرجوا من مصر مع من غادرها من المماليك البحرية عقب مقتل الأمير فارس الدين أقطاى على يد السلطان أيبك . ولكنه مالبث أن عاد إليها ،

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ١١٤ .

(٢) ابن أبى الفضائل : الدر الفريد ص ٤٥٢ . المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٦٥٥ .

(٣) لخص أبو المحاسن فى كتابه « المنهل الصافى » (مخطوط حـ ٣ ص ٣٧ ب) حياة الأمير سيف الدين قلاوون منذ ولادته إلى أن اعتلى عرش السلطنة فقال : « قلاوون بن عبد الله الاقسنقرى الكاملى الصالحى النجمى سيف الدين أبو المعالى أبو الفتح التركى الألفى سلطان الديار المصرية . اشتراه آقسنقر الكاملى من تاجره بألف دينار ثم مات اقسنقر بعد مدة يسيرة فارتجع هو وجماعة من خجداشيته إلى الملك الصالح فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، وكان لهذا يعرف بالألفى . ثم ارتقى بعد موت الملك الصالح حتى صار من أمراء الألوف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية بن بيبرس البندقدارى . وكان مع بيبرس لما خاض بيبرس الفرات وفى واقعة اباستين مع التتار والروم . ولما قدم الملك السعيد إلى دمشق فى سنة ٦٧٧ هـ جهز قلاوون هذا بنصف الجيش لغزو سيس . . . ولما خلعوا الملك السعيد من السلطنة وحلفوا لسلامش وهو ابن سبع سنين حلفوا لقلاوون هذا معه وذكرا فى الخطبة معا . وبقى الأمر على هـذا شهرين إلى أن خلعوا سلامش فى يوم الثلاثاء حادى عشرين شهر رجب » .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٥ . ويلاحظ أن لقب « الألفى » ظل من بين ألقاب قلاوون الرسمية حتى بعد اعتلائه عرش السلطة . وقد بينا فى الباب الأول بأن ذلك من أدلة تفاخر المماليك بأصلهم كعبيد اشتروا بالمال .

(٥) راجع تاريخ حياة قلاوون فى خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٣٨ ، وأبى المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٩٢ .

وعظيم نفوذه فى عهد السلطان بيبرس حتى أصبح من أمراء مصر البارزين . وإلى ذلك يشير بيبرس الدوادار بهذه العبارة : « وارتقت فى دولة الظاهر مرتبته وارتفعت لديه منزلته ووقر فى نفس الملك الظاهر أن الملك اليه صاير »(١) .

زوج الظاهر بيبرس ابنه بركة خان من السيدة غازية خاتون(٢) ابنة سيف الدين قلاوون بدمشق فى سنة ٦٧٤ هـ . وقد رمى بيبرس بهذا الزوج إلى هذا الغرض السياسى وهو أن يصبح قلاوون عضداً لابنه فى إدارة شئون الدولة الحربية لأنه كان فى ذلك الوقت أكبر أمراء المماليك فى مصر . ويظهر أن قلاوون كان يرمى إلى اعتلاء عرش السلطنة وأنه كان يمهد لذلك بدليل ما أجمع عليه المؤرخون من أن الحصار لما اشتد على السلطان بركة خان بعث فى طلب صهره الأمير قلاوون ليستشيره فى أموره ويطلب منه المعونة فأشار عليه أن يخلع نفسه فقبل مشورته وخلع نفسه سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) .

ولم يكن المقصود من خلع السلطان بركة خان الاسراع فى القضاء على بيت الظاهر بيبرس ، بل إن شخص السلطان كان هو المقصود بالذات وأن بقاءه على عرش مصر لم يعد مرغوباً فيه . فانه لم يكن على شىء مما كان عليه أبوه من القدرة على معالجة الصعاب بالحزم والعزم وقوة الشكيمة ، بل كان شاباً لم يعد التسعة عشر ربيعاً عند اعتلائه العرش منقاداً لنفوذ والدته وآراء صغار مماليكه . « فكانت الأمور مختلة والنظام مفسود بتحكم الصبيان الجهلة »(٣) . ورحل بركة خان إلى الكرك فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ وأقام بها فلم تزد مدة سلطنته على سنتين (٤) ، وكان نفى أولاد السلاطين إلى الكرك من أهم ما يتميز به عصر السلطنة المملوكية بالديار المصرية . وكان السلطان بيبرس قد ادخر أموال وافرة أبقاها فى الكرك « فكأنه اطلع على مآل أولاده اليها من بعده »(٥) ، مما يدل على أن بيبرس إما أنه كان يشك فى مقدرة أولاده على إدارة دفة الحكم من بعده أو أنه كان يعتقد أنه لا قِبَل لهم بمقاومة الدسائس التى ستحاك حول عرشهم فأبقى لهم هذه الأموال . ولكن بركة خان « عمد إلى تلك الأموال ففرقها وإلى الحواصل فبددقها وإلى الذخائر فمزقها »(٦) . مما يظهر صفة الاسراف التى تغلبت على السلطان بركة خان فى حكمه بمصر وفى منفاه بالكرك .

* * *

ولما خلع بركة خان خلفه أخوه بدر الدين سلامش . وكان صغير السن لم يزد عمره على

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ورقة ٧٥ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٦٩ . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ١٥٥ .
(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٤ .
(٤) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٥٥ .
(٥) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر ٥٤٤ .
(٦) نفس المصدر .

سبع سنين حين جلس على العرش . وقد تم لسيف الدين قلاوون ما أراد وأصبح صاحب النفوذ المطلق بتعيينه أتابكا أو وصياً للسلطان الجديد . وقد ذكر بيبرس الدوادار أن الأمراء عرضوا سلطنة مصر بعد خلع بركة خان على قلاوون ولكنه اعتذر عن قبولها حتى لا تخرج السلطنة من بيت بيبرس ولأنه كان يعلم أن السلطة ستصبح فى يده دون السلطان الصغير . ويظهر لنا ذلك واضحاً جليا من هذه العبارة التى ننقلها عن بيبرس الدوادار : « أنا لم أخلع الملك السعيد شرها إلى المملكة ولا طمعاً فى السلطنة ولكن حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الاسلام أن يتقدم عليهم الأصاغر ويمتهنوا منهم الأعيان والأكابر ويضيعوا عليهم مصالح العساكر والأولى أن لا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر »(١) . وسرعان ما استدعى سلامش ونودى به سلطانا على مصر وحلف له الجند جميعا وأخذ قلاوون فى تحليف الأمراء فحلفوا له وتلقب بالعادل (٦٧٨ — ٦٧٩ هـ = ١٢٧٩ م) .

وبتولية سلامش نرى أن عهد استئثار الأتابكة بالسلطة ووقوع السلطان تحت نفوذهم الفعلى قد سار سيرته الأولى وأن السلطان لم يكن فى ذلك العهد سوى ألعوبة فى يد أتابكه . ولا غرو فانه لم يكن للسلطان سلامش مع أتابكة قلاوون إلا مجرد الاسم ولقب السلطنة . وظهر نفوذ قلاوون بأجلى معانيه حين ضربت السكة باسم الملك العادل سلامش على أحد الوجهين وباسم قلاوون على الوجه الآخر . وزاد نفوذه وارتفع ذكره حين خطب له وللعادل معاً (٢) . وغدا قلاوون المتصرف فى أحوال المملكة وفى خزائن أموالها بل لقد عامله الأمراء والجند بمثل ما كانوا يعاملون به السلطان الفعلى .

لذلك نرى أن قلاوون لم يكن يرمى بامتناعه عن تولى السلطنة الى الاحتفاظ ببيت بيبرس وحصر السلطنة فى أولاده يتوارثونها واحداً بعد واحد احتراماً لمبدأ الوارثة ، بل انه رأى أن الظروف ليست مواتية له اذ كان معظم الجند من الظاهرية (٣) كما ان نواب الشام كانوا من أتباع السلطان بركة خان .

ومع ذلك فقد كان قلاوون يمهد فى الباطن للوصول إلى السلطنة . واتخذ لذلك الخطوات التى كان يملى نفسه بتنفيذها منذ عزل السلطان بركة خان وهى عزل نوابه . لذلك أمر بعزل هؤلاء النواب من البلاد الشامية وولى من يثق بهم من أتباعه وقبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وسجنهم بثغر الاسكندرية ثم تخلص من منافسيه البارزين الذين كانوا يطمحون إلى السلطنة . وبعث بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق وفوض إليه نيابة السلطنة بالشام وأحضر بعض المماليك البحرية الصالحية وأحسن اليهم وأرسل البعض الآخر إلى نيابات الشام (٤) .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧٠ . والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٣ ص ٣٧ ب .

(٣) أى المنتمين إلى حزب السلطان الظاهر بيبرس .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٤ .

كل تلك الأعمال تدلنا على أن الوصول إلى السلطنة كان أمنية تجيش فى نفس قلاوون منذ خلع السلطان بركة خان . فانه بعد أن صفا الجو لقلاوون بمرضاته الأمراء وأتباعهم اتفق معهم على العمل لخلع السلطان سلامش « لأنه لافائدة فى بقاء ذلك الصبى الصغير لانتشار السمعة فى البلاد وامتهان الحرمة فى أنفس الحواضر والبواد »[١] . وفى ٢١ رجب سنة ٦٧٨ هـ اجتمع الأمراء والقضاة والأعيان بقلعة الجبل وخلعوا السلطان سلامش لصغر سنه[٢] . وبذلك لم تطل مدته فى السلطنة أكثر من ثلاثة أشهر . وبعد خلعه لزم داره حتى أرسله قلاوون مع أخيه خضر إلى قلعة الكرك[٣] . وتم ذلك كله بتحريض قلاوون .

وهذا يدلنا على أن نظام وراثة العرش لم يكن طبيعيا عند المماليك ، لأن مقياس القرب أو البعد عن العرش كان المهارة الحربية وكثرة الأتباع . وقد كان نظام وراثة العرش فى بعض الأحيان ستاراً يسمح لكبار الأمراء المماليك بالدس والحكم من وراء ستار . فنحن نعرف مثلا أن أربعة عشر سلطانا حكموا مصر من ذرية قلاوون . ولكن علينا أن نذكر أن خمسة منهم كان سنهم أقل من عشرين سنة حين تولوا العرش وأن أربعة كانوا أقل من عشرة . وطبيعى أن السلطان كان فى مثل هذه الحالات ألعوبة فى يد الأمراء[٤] .

— بيت قلاوون : (٦٧٩ — ٧٨٤ هـ = ١٢٧٩ — ١٣٨٢ م)

انتقل الملك بعد سلامش إلى أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى النجمى وتلقب بالمنصور (٦٧٩ — ٦٨٩ هـ = ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) . ويلاحظ هنا أن السلطنة ظلت فى بيت قلاوون من أبنائه وأحفاده حتى انتهاء دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) . وسار قلاوون على نهج بيبرس فى إدارة شئون البلاد وتقريب الشعب اليه . وكانت سياسته قائمة على الاكثار من المماليك ليكونوا عونا له ولأولاده من بعده فى تثبيت عروشهم . وأنشأ لذلك فرقة جديدة من المماليك أطلق عليها اسم « البرجية » نسبة إلى أبراج القلعة التى أقاموا بها . ولم ينجح قلاوون فى تحقيق الغرض الذى من أجله أنشأ فرقة المماليك البرجية ، إذ لم يكونوا دائماً عونا له ولأولاده من بعده ، بل ظهر فيها من المماليك كتبغا ولاچين وبيبرس الجاشنكير الذين اغتصبوا العرش من ابنه الناصر محمد كما سيلى . كذلك اغتصب أحد مماليكها فى النهاية العرش من أحد أحفاد الناصر وقضى بذلك على بيت قلاوون وأسس دولة المماليك البرجية .

---

(١) بيبرس الدوادار ج ٩ ورقة ٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٧ — ٢٨٩ . ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ .
Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV. (L'Egypte Arabe), p. 441

(٣) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر والصفحة .

(٤) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 54.

وسار قلاوون على سياسة بيبرس فى إخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على ما بقى فى أيديهم سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٩ م) عدا مدينة عكا التى استولى عليها ابنه الأشرف خليل سنة ٦٩١ هـ بعد وفاة أبيه . كما تابع سياسة بيبرس أزاء التتار فهزمهم وأبعد أذاهم عن مصر والشام .

وكان قلاوون ملكا عظيما لا يميل إلى سفك الدماء إلا أنه كان محباً لجمع المال[١] . ولكن لم يكن حبه للمال بقصد الانفاق على شئونه الخاصة بل كان لانفاقه على المشروعات الحيوية التى رأى شعبه فى حاجة اليها وأشرف قلاوون على تنفيذها فى حزم وعزم . يدل على ذلك تلك المنشئات العظيمة والآثار الجليلة التى خلدها فى مصر كالمدارس والمساجد والمستشفيات والملاجىء . وقد سار الناصر محمد على نفس سياسة أبيه قلاوون كما سنرى فيما بعد .

وقد وصف ابن فضل الله العمرى قلاوون فقال انه كان « رجلا مهيبا شجاعا فتح الفتوحات الجليلة مثل المرقب[٢] وطرابلس التى لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على التعرض لها لحصانتها ، وكسر جيش التتر على حمص وكانوا فى ثمانين الف فارس[٣] . وقد كشف لنا بيبرس الدوادار عن صفات قلاوون المتينة وطيب شمائله فقال إنه « كان حليما عفيفا عن سفك الدماء مقتصدا فى العقاب كارها للأذى لاجرم ان الله جازاه فى ذريته وحاشيته بالحسنى ورفع قدر عتقائه وألزامه وربط ذكر مماليكه وخدامه وصيرهم ولاة للأمور وساسة للجمهور وقادة للعساكر ونوابا للممالك وآتاهم من سداد الرأى والتئام الأهواء والمحافظة على حفظ البيت ما لم يؤته واحداً من العالمين . ولقد مررت بتواريخ الأمم وسير ملوك العرب والعجم فلم أقف على أن أحدا وفّى كوفائهم ولا سلك فى السداد مثل أنجابهم . وكان ذلك بحسن نية الشهيد[٤] ، والمرجو لبيته الحفظ والتأييد ولأنصاره وأعوانه العون والتسديد »[٥] . وعلى

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات حـ ٢ ص ١٣٤ .

(٢) المرقب : بالفتح ثم السكون والقاف وباء موحدة ، بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت . وقد ذكر ياقوت فى معجمه وأسامة بن منقذ فى تاريخ القلاع والحصون ، أنه شيد على يد المسلمين سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) . وقد فتحه قلاوون سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) . راجع مقال مرقب Markab للأستاذ E. Honigmann فى دائرة المعارف الاسلامية وما ذكر فيه من المراجع .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٦٥٠ .

(٤) الأرجح أن استعمال كلمة « شهيد » هنا لا تفيد الاشارة إلى موت السلطان فى سبيل الدفاع عن الاسلام إذ أنها استعملت للملوك والسلاطين فى الكتابات التاريخية بمثابة « المرحوم » . أنظر :

Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 88, 317.

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٥ — ٧٦ . وكان بيبرس الدوادار مؤلف هذا المخطوط من مماليك قلاوون .

الجملة فقد أقام قلاوون طوال مدة حكمه منار العدل وأحسن سياسة الملك وقام بتدبير السلطنة خير قيام .

اولاد قلاوون : علاء الدين وخليل (٦٧٩ — ٦٩٣ هـ = ١٢٧٩ — ١٢٩٣م)

وفى عهد قلاوون ظهرت ولاية العهد مرة ثانية فى تاريخ دولة المماليك ولكن بشكل أعم . فان السلطان بيبرس منح ابنه بركة خان ولاية العهد وما يتبعها من اختصاصات السلطنة دون منحه لقب « سلطان » . ولكن قلاوون لما استتب له الأمر فكر سنة ٦٧٩هـ — أى فى نفس السنة التى تولى فيها السلطنة — فى تعيين ابنه علاء الدين[1] على مصر فى حياة أبيه قلاوون . فجمع لذلك الأمراء وعرض عليهم ما استقر عليه رأيه من تفويض ابنه الأكبر « ولاية العهد وكفالة الممالك » فأقروا السلطان قلاوون على رأيه وركب علاء الدين بشعار السلطنة كما ركب بركة خان بن بيبرس من قبل[2] . وكان الدافع لقلاوون على إقامة ابنه سلطانا فى حياته أنه كان دائم السفر إلى بلاد الشام لمحاربة التتار فرأى أن يقيم ابنه مكانه فى إدارة شئون مصر أثناء غيبته مع منحه لقب السلطنة حتى تكون له الهيبة فى نفوس الأمراء والأهالى .

استقر علاء الدين على فى السلطنة فى رجب سنة ٦٧٩ هـ وكتب له تقليد[3] من إنشاء القاضى محى الدين بن عبد الظاهر ولقب بالملك الصالح وقرىء التقليد فى الايوان الكاملى بالقلعة بحضور الأمراء والمقدمين والوزراء ولما انتهت تلاوة التقليد خلعت عليهم الخلع ودعا الناس بالعز والتأييد له ولأبيه المنصور قلاوون . ولما انتهى قلاوون من إتمام تلك المراسم خرج إلى بلاد الشام لمحاربة التتار وتفرغ بذلك لما كان يشغله من أمر السلطنة وولاية العهد لابنه .

وأقام الملك الصالح فى دست السلطنة ثمانى سنوات (٦٧٩ — ٦٨٧ هـ = ١٢٨٠ — ١٢٨٨ م) ثم توفى فى حياة أبيه (شعبان سنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨م) فأظهر السلطان قلاوون لموت ابنه جزعا بالغاً وحزناً شديداً .

وبعد موت علاء الدين عهد قلاوون من بعده إلى ابنه الثانى خليل ولقبه بالأشرف . وكتب القاضى محى الدين بن عبد الظاهر كتاب ولاية العهد للأشرف خليل[4] . إلا أن بعض المؤرخين ذكروا أن قلاوون امتنع عن تولية خليل العهد . وهاك نص ماذكره كل من المقريزى وأبى المحاسن : « طلب من القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده فأخرجه إليه مكتوباً بغير

---

(١) لقبه بعض المؤرخين باسم نور الدين . ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٣٢٠ . ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ١١٧ .

(٢) المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٦٨٢ .

(٣) اقرأ نص هذا التقليد فى بيبرس الدوادار حـ ٩ ورقة ٨٢ — ٨٥ .

(٤) اقرأ نص هذا العهد فى القلقشندى : صبح الأعشى حـ ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ .

علامة (١) الملك المنصور . وكان ابن عبد الظاهر قد قدمه اليه (إلى قلاوون) ليعلم عليه فلم يرض وتقدم طلب الأشرف وتكرر وابن عبد الظاهر يقدمه إلى الملك المنصور ، والمنصور يمتنع إلى أن قال : يافتح الدين ! ما أولى خليلا على المسلمين . فلما رأى الأشرف التقليد بالاعلان قال : يافتح الدين . السلطان امتنع أن يعطيني وقد أعطانى الله ورمى التقليد من يده »(٢) .

ويرجع سبب امتناع قلاوون عن العهد لابنه خليل إلى أنه كان مبغضا عند كثير من الأمراء لاستهانته بهم وتصغيره شأنهم ولما اتصف به من القسوة وعدم التدين ثم لاتهامه بدس السم لأخيه الملك الصالح علاء الدين(٣) . ولم يكن هذا الامتناع — إن صح — مانعا من أن يؤول الملك إلى خليل (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ = ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م) فقد جدد له الأمراء الايمان .

وفى ولاية الأشرف يعود نفوذ الأمراء الى الظهور بشكل جلى ويتضح للعيان مدى أثرهم فى تدعيم عروش السلاطين أو تقويضها . وقد افتتح خليل عهده بالغدر برجالات الدولة الذين كانت لهم السطوة والنفوذ فى عهد أبيه . فبادر الى التخلص منهم ، ولم يدرك ما للأمراء من شدة البأس وقوة الشكيمة والعناد والقدرة على الدس لمن لا يردعهم ويوقرهم ويرعى حرمتهم ومقامهم من سلاطين مصر . كما لم يتعظ بما حدث للسلطان قطز ولا بما حدث للسلطان بركة خان بن بيبرس . فإن حلف الأمراء له فى سنتى ٧٦٢ هـ و٧٦٧ هـ لم يمنعهم من الخروج عليه وإذلاله والتصميم على عزله فى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩) . وكان من السهل عليه أن يذكر كل ذلك لأنه كان قريب العهد به .

وبمجرد اعتلاء السلطان خليل العرش بدأ الأمراء دسائسهم وكيدهم له بأن حرضوا نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاى بالقبض عليه لما كان بين خليل وطرنطاى من العداوة مذ كان خليل ولياً للعهد ، ولكن طرنطاى لم يستمع لنصحهم فقبض عليه السلطان وقتله بعد أيام قليلة من اعتلائه العرش . فهال الأمراء ما فعله خليل مع نائبه ، وزاد فى عدائهم له تعاظمه عليهم واستخفافه بهم بعد عودته من فتح عكاء — التى حاصرها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) والتى انتهت باستيلائه عليها دولة الصليبيين بالشام — فاتفق الأمراء عليه وبدءوا يدبرون له المكايد .

وكانت العداوة التى استحكمت بين الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة وبين السلطان

---

(١) العلامة السلطانية : هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة . وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥٦ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩٢ — ٧٩٣ .

Lane Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 284.

هى العامل الأكبر فى القضاء على سلطنة الأشرف خليل . فقد مُثلت من جديد هذه المأساة التى مثلها بيبرس مع قطز فى سنة ٦٥٦ هـ . وإن ما فعله بيبرس مع قطز قد فعله بيدرا مع السلطان خليل ، واتفق كل من بيدرا وحُسام الدين لاجين على قتله إذا أمكنتهما الفرصة . وقد حانت لهم هذه الفرصة عند ما نزل خليل فى سنة ٦٩٣ هـ بمكان يقال له الحمامات على مقربة من أبى المطامير بمديرية البحيرة للصيد . فلما وصل السلطان إلى تروجه (من أعمال مديرية البحيرة) سمح لأمرائه بالتوجه إلى القاهرة حتى يعود من رحلته . وسرعان ما أرسل بيدرا الى الأمراء الناقمين على السلطان فحضروا وخرجوا متظاهرين بالرغبة فى صيد الغزال فى الصحراء مضمرين صيد السلطان نفسه والغدر به فهجموا عليه وضربوه بالسيف حتى مات وتركوه فى المكان الذى قتل فيه (١) .

وتشاور الأمراء قبل أن يبرحوا مكان الجريمة فى أمر السلطنة فاتفقوا على تولية بيدرا على نحو ما فعله الأمراء حين تشاوروا فى الصالحية بعد قتل قطز واتفاقهم على تولية بيبرس . وفى تروجه حلف الأمراء لبيدرا وقبّلوا الأرض بين يديه (٢) — على ما جرت به عادتهم عند تولية سلطان جديد — ولقبوه « الملك الرحيم » وقيل « الملك الأمجد »(٣) وقيل الملك القاهر » (٤) . ثم قصد بيدرا والأمراء فى ركابه إلى قلعة الجبل على نحو ما فعل بيبرس . ولكن مماليك السلطان الأشرف خليل ساروا فى أثر بيدرا ومن معه فلحقوهم فى الطرانة من قرى مركز كوم حمادة بمديرية البحيرة ووقعت بينهم موقعة كبيرة هزم فيها بيدرا وأصحابه وتتبعت المماليك السلطانية بيدرا وقتلوه قبل أن يصل إلى القلعة . وقد « أراد [بيدرا] السلطنة لنفسه ولكن المقادير قهرته والدنيا الغرور غدرته »(٥) . أما الأمير لاجين فقد اختفى ولم يعثر له إذ ذاك على أثر .

وهنا لا تتم المشابهة بين الظاهر بيبرس وبين بيدرا : فبينما نجد أن بيبرس قد قتل قطز وارتكب جريمة قتل السلطان ، نجد أن بيدرا قد ارتكب جريمة مزدوجة فقتل سلطاناً حلف على ولاية العهد له وكان هذا السلطان وارثاً شرعياً لأبيه فى السلطنة . وبينما يتمكن بيبرس من الوصول الى قلعة الجبل حيث تتم مراسم اعتلائه العرش ويصبح سلطاناً على مصر وتطول مدة سلطنته حتى يتمكن من أن يعهد بالملك لأولاده من بعده ومن تثبيت دعائم ملكه وينسى التاريخ فعلته لما كان عليه من حميد الصفات وما أتاه لخير مصر من جليل الأعمال — بينما

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٦٨ . أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ص ٦٥ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣٩ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ .
(٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ٣٠ . تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٣٨ .
(٥) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ١ ص ٥٧٤ .

يتمكن بيبرس من تحقيق ذلك كله ، نجد أن بيدرا لم يستطع الوصول الى شيء من ذلك . وسرعان ما انهارت آماله وتفرق عنه أتباعه ووقع فريسة بين مماليك الأشرف خليل الذين قتلوه شر قتلة .

حكم الأشرف خليل مصر ثلاث سنين وشهرين برهن خلالها على أنه كان حاكما شديد البأس مهيباً فى أعين الناس كفؤا لتولى ملك مصر عارفا بأحوال المملكة (١). وفيه يقول ابن إياس : كان الأشرف بطلا لا يكل من الحروب ليلا ونهارا . وكان مسعودا فى حركاته ولا يعرف فى أبناء الملوك من كان يناظره فى العزم والشجاعة والاقدام . . . وكان سفاكا للدماء قتل خلقاً كثيراً من الأمراء وغيرهم . . . وكان يسمع الكلام فى حق الناس بالباطل من وزيره ابن السَّلْعوس وكان ذلك سبباً لزوال ملكه » (٢)

الناصر محمد : نشأته وتربيته (٦٨٤ — ٦٩٣ هـ = ١٢٨٤ — ١٢٩٣ م)

بوفاة السلطان خليل انتقل الملك الى محمد الابن الثانى للسلطان قلاوون . ولد الناصر قلاوون سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ م) . وقد مر بنا الكلام على أبيه محمد بن قلاوون . أما أمه فتسمى أشلون خاتون وهى مغولية الجنس ، قدم أبوها سكتاى بن قراجين إلى مصر فى سنة ٦٧٥ هـ فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وكان من أمراء المغول الذين نزل بهم سخط ملكهم . ومن هذا نرى أن أم قلاوون كانت تنتمى إلى أسرة عريقة فى النسب ؛ فقد ذكر أبو الفدا أن بيبرس تلقى آباها وأخاه قَرْمُشى بالقرب من حلب ورحب بهما وأحسن وفادتهما وأجزل لهما العطايا (٣) .

ومرت السنون والأيام وأسرة سكتاى تعيش عيشة هنيئة وتنعم بما كان ينعم به كبار المماليك من حياة الترف والبذخ ، على حين يتنقل قلاوون ، ذلك المملوك الذى اشترى بألف دينار إلى مرتبة الامارة ، ثم يرتقى إلى عرش السلطنة سنة ٦٧٩ هـ ، فيعرف لأسرة أشلون مكانتها وطيب أصلها ، فيطلب إلى عمها قرمشى — وكان قد تولاها برعايته بعد وفاة أبيها — أن يزوجها إياه ، ولما تمضى على سلطنته إلا سنة واحدة . ويظهر لنا أن أشلون كانت تجمع إلى شرف محتدها أخلاقا عالية وصفات سامية ، فقدر قلاوون فيها هذه الصفات ، حتى إنه أنفق الأموال الوفيرة فى إقامة الحفلات ومد الأسمطة ابتهاجاً بزفافها إليه (٤) .

عاشت أشلون مع زوجها السلطان قلاوون فى قلعة الجبل ، حيث ولد الناصر محمد فى يوم السبت منتصف المحرم سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ م) . وكان أبوه يحارب الصليبيين فى بلاد الشام ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٢٧ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ١٢٦ .

(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر حـ ٤ ص ٢٢٩ .

(٤) ابن إياس : حـ ١ ص ١١٥ .

وقد تم له الاستيلاء على حصن المرقب بعد أن استعصى عليه ، فى الوقت الذى طير إليه نبأ ولادة ابنه محمد ، فاستبشر بهذا النبأ العظيم ، وأيقن أن هذا الحادث السعيد سيكون فاتحة يمن وإقبال لأسرة قلاوون . وسرعان ما أذيع هذا النبأ فى كافة أرجاء البلاد المصرية ونيابات الشام وسائر الولايات التابعة لسلطنة المماليك (١) .

نشأ الناصر فى بيت الملك محاطا بالأمراء والنواب والحراس . ودرج فى مراتب العز والامارة : فهو ابن ملك ، وأمه بنت أمير من أمراء المغول . غير أنه لم يتمتع طويلا بعطف أبيه قلاوون ، إذ أنه مات وابنه لم يتاهز الخامسة من عمره . الا أن الناصر لم يحرم من عطف أخيه خليل الذى اهتم بتربيته وأحسن معاملته على الرغم من أنه كان أخاه لأبيه فقط .

كان الأشرف خليل يحيط أخاه الناصر بعنايته ومحبته ويحبوه بعطفه ورعايته ، حتى أصبح ذلك معروفاً لدى العامة والخاصة من أهل مصر . فانه لما انتهى من تشييد قصره المعروف بالأشرفية اهتم بختان أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح على . وأقام لذلك احتفالا فخما أنفق فيه الأموال عن سعة ، ودعا لذلك جميع الأمراء وأنعم على كثير منهم الانعامات السنية (٢) . ولولا حب الناصر لأخيه محمد لما اهتم بأمره هذا الاهتمام الملحوظ .

تعهد الأشرف خليل أخاه الناصر بالتربية والتثقيف . ولا غرو فقد ورث خليل عن أبيه قلاوون عنايته بأمر المماليك وتثقيفهم وتنشئتهم نشأة دينية . فاتبع فى تعليمه نفس طريقة السلاطين فى تثقيف مماليكهم : لحفظ القرآن الكريم ، وتأدب بآداب الشريعة ، وداوم على الصلاة ، كما تعلم الخط . وبلغ بذلك درجة التعليم التى كان لا بد أن يبلغها كافة المماليك الذين تربوا فى طباق قلعة الجبل .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حـ ٤ ص ٢٢ . المنهل الصافى حـ ٣ ص ٢٤٣ أ .

(٢) وصف المقريزى (الخطط حـ ٢ ص ٢١١) قصر الأشرفية الذى بناه السلطان خليل والاحتفال الذى أقيم فيه بمناسبة ختان أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح على ، فقال : « هذا القصر المعروف بالأشرفية ، أنشأه الملك الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما فرغ صنع به مهما عظيما لم يعمل مثله فى الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه موسى بن صالح على بن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الأمراء ووقف الخزندارية بأكياس الذهب . فلما قام الأمراء من الخاصكية للرقص نثر الخزندارية على كل من قام للرقص حتى فرغ الختان فأنعم على كل أمير من الأمراء بفرس كامل القماش وألبس خلعة عظيمة وأنعم على عدة منهم ، كل واحد بألف دينار وفرس وأنعم على ثلاثين من الأمراء الخاصكية لكل واحد مبلغ خمسة آلاف دينار وأنعم على البليبل المغنى بألف دينار . وكان الذى عمل فى هذا المهم من الغنم ثلاثة آلاف رأس ومن البقر ستمائة رأس ومن الخيل خمسمائة اكريش ومن السكر برسم المشروب ألف قنطار وثمانمائة قنطار وبرسم الحلو مائة وستون قنطار . وبلغت النفقة على هذا المهم فى عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء مبلغ ثلثمائة ألف دينار عينا » .

ولكن الأشرف خليل مات ، ولم يصل الناصر الى سن البلوغ بعد ، وارتقى عرش السلطنة وهو فى التاسعة من عمره . وهنا ألقيت على كاهل ذلك الطفل أعباء هذه الدولة المترامية الأطراف ، فلم يكن بد إذن من تعليمه وتدريبه على سياسة الملك ، وكان لا بد له من أن يمر بالدور الذى مر به غيره من الملوك والسلاطين الذين تولوا العرش صغارا ، فحاول بعض الأمراء اغتصاب عرشه ، ثم يشتد ساعده ويعمل على الاستئثار بالنفوذ والسلطان . وفى وسط هذه العواصف السياسية يستكمل الناصر تعلم أساليب الحرب من رمى السهم ولعب الرمح على أيدى بعض المخلصين من أمرائه الذين يحفظون لقلاوون فضله عليهم ورعايته لهم .

ولقد أجمع المؤرخون على أن قلاوون قد أحسن تربية مماليكه ، ولقنهم أساليب الحرب والسياسة ، وأكرم وفادتهم ، وعمل على راحتهم ، وتفقد أحوالهم ، وسهر على مصالحهم . وهذه الطائفة هى التى تولت تعليم الناصر محمد وتثقيفه وتلقينه أساليب الحرب وفنون السياسة . فلا غرو إذا ورث الناصر عن أبيه صفات الحزم والعزم والشهامة والفروسية والاقدام وغيرها من الصفات .

وكان للبيئة التى عاش فيها الناصر محمد أثر عظيم فيما نشأ عليه من صفات . وانعكست عليه كثير من صفات أبيه قلاوون ، فقد كان لا يميل إلى سفك الدماء ، محباً لجمع المال ، مهتما بالمشروعات الحيوية كالمنشئات العامة من المدارس والمساجد والمستشفيات والملاجىء ، كما نشأ محباً للغزو والفتح ، ميالا للسيطرة والنفوذ .

وكان لقلاوون من الأولاد الذكور أربعة هم : الأمير نور الدين على الذى ولاه أبوه السلطنة باسم الملك الصالح لكثرة أسفاره إلى بلاد الشام ومات فى حياة أبيه سنة ٦٧٨ هـ على ما بينا ، والأشرف خليل الذى ولى الملك بعد أبيه ، والناصر محمد ، والأمير أحمد . وبعد وفاة نور الدين على كان قلاوون يميل إلى تولية محمد بدلا من أخيه خليل ، ولكن صغر سنه قد حال دون تحقيق هذا الميل .

تولى الناصر محمد الملك وهو صغير ، ولقب الناصر ناصر الدين أبا الفتوح محمد ، وذلك باتفاق الأمراء : « الذين أجمعوا أمرهم على أن تكون السلطنة للسلطان الملك الناصر أخى السلطان الملك الأشرف حفظاً لنظام البيت ورعاية فى الحمى حق الميت[1] » . وكان ذلك فى ١٤ المحرم سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م)

على أن ما رواه مفضل بن أبى الفضائل من أن الناصر اعتلى العرش على أساس المبدأ الوارثى ليس صحيحا فى جملته ، لأنه لم يكن بين الأمراء شخص تطغى شخصيته على الآخرين فيرتضونه سلطانا ، ولأن الناصر كان صبيا فى التاسعة من عمره لا يستطيع أن يحد من سلطة الأمراء .

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٧٥ . يريد بذلك رعاية حق الميت فى شخص الحى .

الباب الثالث

سلطنة الناصر محمد[1]

(٦٩٣ — ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ — ١٣٤٠ م)

اعتلاء الناصر محمد سلطنة مصر :

ينقسم حكم الناصر محمد ثلاثة أقسام :

سلطنته الأولى (٦٩٣ — ٦٩٤ هـ = ١٢٩٣ — ١٢٩٤ م) ويتلوها اغتصاب ملكه بوصول كل من العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ — ١١٩٦ م) والمنصور حسام الدين لاچين (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ = ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) إلى العرش . وفى غضون تلك الفترة يقيم الناصر بالقلعة ولا يسمح له بالظهور . ثم لا يلبث أن يرحل إلى الكرك فى عهد السلطان لاچين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . ولكن الاضطرابات والفتن التى قامت فى عهد كل من كتبغا ولاچين والضعف الذى انتاب البلاد أثناء حكمها ساعدا على عودة الناصر إلى العرش .

أما سلطنته الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م) فقد اشتد الضيق عليه فيها ، كما اشتد استخفاف الناس بأمره خلالها ، حتى اضطر فى النهاية للرحيل إلى الكرك ثانية

---

(١) المراجع الثانوية التى تعرضت لسلطنة الناصر محمد أربعة هى :

1. G. Weil : Geschichte des Abbasidenchalifats in Egypten (Stuttgart 1860—1862). Vol.I, pp. 191 — 198 (سلطنة الناصر الأولى) pp. 222—279 (سلطنته الثانية) ، pp. 297—412 (سلطنته الثالثة) .

2. S. Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, pp. 316—317.

3. Ency. Isl. art. Al—Nasir.

4. G. Wiet: Histoire de La Nation Egyptienne, t. IV (L'Egypte Arabe), pp. 456—498.

ويعد الأول أوفى هذه المراجع الثلاثة بالرغم من تقادم عهده . وقد اعتمد مؤلفه على المخطوطات المحفوظة ببعض المكاتب الأوربية ، إذ أنه وقت تحرير الكتاب لم تكن المصادر العربية الأصلية قد نشرت بعد .

وقد آثرنا ألا نبالغ فى الاعتماد على تلك المراجع الثانوية فى بحثنا هذا ، وتوجهنا إلى الأصول العربية المنشورة والمخطوطة ، لجمع شتات المادة اللازمة لتاريخ الناصر وقصرنا كلامنا فى هذا الباب على ما يتعلق بالحوادث الخاصة بانتقال السلطنة من الناصر وإليه ، وتركنا تفصيل مختلف مسائل التاريخ العام ، مثال ذلك : علاقته بالشعب وعلاقاته الخارجية ونظم الحكم فى عهده إلى الأبواب القادمة التى سنفصل فيها أمر هذه المسائل .

ليتخلص مما هو فيه من مذلة وليقيم هناك حتى تستقيم أحوال البلاد . غير أن تزوحه عن قصبة ملكه ، وخلو جوها للمتآمرين عليه ، مكن المظفر زين الدين بيبرس الجاشنكير المعروف فى تاريخ دولة المماليك باسم بيبرس الثانى (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م) من اغتصاب العرش لنفسه . ولكن هذا لم يصرف أذهان الناس عن الناصر وتعلقهم به وعقيدتهم الراسخة فى أنه هو سلطانهم الشرعى ، الذى يستطيع دون سواه أن يخلصهم من الفوضى التى سادت مصر أثناء حكم بيبرس الجاشنكير . فأوفدوا إليه الرسل يرجونه العودة إلى عرش أبيه وألحوا عليه فى ذلك حتى أجاب طلبتهم وعاد إلى مصر موفور الجانب ليقبض على زمام الأمور هذه الدفعة بيد من حديد .

بذلك تبدأ سلطنة الناصر الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ = ١٣٠٩ — ١٣٤٠ م) [1] ، وهى التى انفرد فيها بحكم مصر ، وتمكن من القضاء على الذين اغتصبوا عرشه وعلى الذين أقاموا الفتن وأثاروا الدسائس حوله . وقد استمرت هذه الفترة اثنتين وثلاثين سنة ، وهى المدة التى يعدها المؤرخون عهد سلطنة الناصر الحقيقية ، إذ أنه قبل ذلك لم يكن الا ألعوبة فى أيدى الأمراء الأقوياء يجلسونه على العرش أو يصرفونه عنه حسب أهوائهم . كما حدث فى سلطنته الأولى والثانية عند ما كان ظهور الطامحين فى العرش من أقوياء الأمراء مثل كتبغا أو لاجين أو بيبرس الجاشنكير كافياً للقضاء على ملك الناصر فترة من الزمن . ولكن هؤلاء لم تتوافر فيهم الكياسة وحسن تصريف الأمور الخصلتان اللتان اتصف بهما رجل مثل قلاوون . فلم يطل عهدهم بالحكم .

وعلى ذلك يمكن القول إن عصر الناصر يمثل عهد وراثة تخللته فترات اغتصاب لا تكاد تظهر حتى تختفى ثم يعود وارث العرش فيستمتع بحقه فى ملك أبيه . وكانت حوادث عصر الناصر تدور حول اغتصاب عرشه . فاتخذ الأمراء من صغر سنه فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم غير

---

(١) تولى الناصر العرش ثلاث مرات تخللتها فترات اغتصاب لملكه من بعض أمراء المماليك . وعلى ذلك فان عصر الناصر يمكن تقسيمه على النحو الآتى :

سنة هجرية	السلطان	السنة الميلادية
٦٩٣	السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى)	١٢٩٣
٦٩٤	« « العادل زين الدين كتبغا المنصورى	١٢٩٤
٦٩٦	« « المنصور حسام الدين لاچين المنصورى	١٢٩٦
٦٩٨	« « الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	١٢٩٨
٧٠٨	« « المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١٣٠٨
٧٠٩	« « الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)	١٣٠٩
٧٤١		١٣٤٠

آبهين لمبدأ الوراثة الذى ظل مشكوكا فيه خلال الدولة المملوكية من أولها إلى آخرها .

* * *

سلطنة الناصر محمد الأولى (٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ — ١٢٩٤ م) :

تولى الناصر محمد عرش مصر وهو حدث لا يتجاوز التاسعة . وهى سن لا يستطيع صاحبها أن يواجه ما يقيمه أمراء مصر فى وجهه من فتن وقلاقل ، إلا إذا كان بجانب السلطان الطفل من كبار الرجال واحد يجمع بين الاعتقاد فى وجوب المحافظة على السلطنة لوارثها حتى يبلغ أشده والمقدرة على كبح جماح الأمراء الطامعين إلى النفوذ . غير أن مثل هذا الرجل لم يكن ليوجد بين أمراء المماليك الذين تربوا فى طباق قلعة الجبل على التعسف وحب الرياسة والطموح إلى السلطنة نفسها والذين لم تكن بيئتهم ونشأة السلطان من بينهم تساعدانهم على الاقتناع بمبدأ وراثة العرش وحق السلطان الإلهى فيه . لذلك لم يستطع أحد من أبناء السلاطين أن يبقى على عرش أبيه طويلا . والأمثلة على ذلك واضحة جلية منذ قيام الحكم المملوكى فى حوادث الناصر يوسف الأيوبى وأتابكه أيبك ، وعلى بن أيبك وأتابكه قطز ، وسلامش وأتابكه قلاوون . ولا عجب إذا حدث للناصر ما حدث لمن سبقه ولا سيما وأنه تولى الملك فى وقت كانت البلاد تعج فيه بالاضطرابات والفتن والدسائس عقب مقتل أخيه السلطان خليل ونائبه بيدرا واختفاء كبار الأمراء أمثال حسام الدين لاچين وشمس الدين قراسنقر وما اكتنف اختفاءهما من الغموض وما كان يتوقعه الناس من ظهورهما بين حين وحين وما قد يستتبعه هذا الظهور من تقلبات خطيرة فى مجرى الأحوال التى وقعت بمصر إذ ذاك .

لما تولى الناصر محمد الملك عين الأمير زين الدين كتبغا المنصورى أتابكا للعساكر ونائباً للسلطنة ، والأمير علم الدين الشجاعى وزيراً له . وكان من الطبيعى أن يفتتح الناصر عصره بتعيين كتبغا فى هذا المنصب ، فان كتبغا هذا كان زعيم المماليك الذين أخلصوا لذكرى الأشرف خليل وذبحوا قاتله الأمير بيدرا وأجلسوا الناصر على العرش ، فتعيينه أتابكا ونائباً للسلطنة أمراً كان منتظراً . وبه يتكرر المنظر المألوف فى دولة المماليك ، وهو اختيار صبى صغير ليرث العرش ، على أن يستأثر بالسلطنة أمير قوى ، ولكن قوته ليست بدرجة تفرضه على سائر المماليك وتمكنه من الاستيلاء على العرش .

كذلك عين الناصر الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيراً له . وهنا نلاحظ أنه كان نادراً جداً أن يكون الوزير فى دولة المماليك من الأمراء العسكريين . فقد كانت وظيفته إدارية لا يليها أمير مملوكى إلا فى النادر ، وإنما كانت هى الوظيفة الأولى لرجال القلم ، ولكن الأمير سنجر عمل على زيادة اختصاصها .

وبتعيين كتبغا أتابكا للعساكر ونائباً للسلطنة ، نلمح من بداية عصر الناصر شبح

الاغتصاب يحاول الظهور فقد بدأ كتبغا عهده بالقيام بالدور الذى سبقه إليه الأمير قطز مع السلطان على بن أيبك فى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) وما قام به الأمير قلاوون مع سلامش ابن بيبرس فى سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) . ولكن هناك فارقاً بين ما فعله أولئك الأتابكة مع أولاد سلاطينهم وما فعله الأمراء الذين اغتصبوا عرش الناصر . ذلك أن هؤلاء المغتصبين الأولين لم يمكنوا السلاطين المعزولين من العودة إلى عروشهم على حين نجد أن مغتصبى عرش الناصر ينهار ملكهم وتقوض عروشهم بسرعة ويعود الناصر ثانية إلى دست الحكومة .

* * *

دارت حوادث عصر الناصر محمد فى سلطنته الأولى ، منذ بدأ حكمه ، حول اغتصاب عرشه . وكان أشد القائمين بتلك الحركة ثلاثة من كبار الأمراء ، هم علم الدين سنجر الشجاعى (١) الوزير وزين الدين كتبغا أتابك العساكر وحسام الدين لاچين .

وكان الخلاف الذى قام بين هؤلاء الأمراء أهم ما حدث فى ذلك الحين ، فقد كان لكل منهم آمال ومطامع فى اعتلاء عرش السلطنة . واتخذ كل منهم من حداثة سن الناصر فرصة سانحة لتحقيق أغراضه . واشتد التنافس على السلطنة على وجه أخص بين الأمير كتبغا والأمير الشجاعى فى شهر صفر سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) ، وانضم الى كل منهما كثير من الأتباع وأصبح القتال قريب الوقوع بين الفريقين . فبادر كتبغا وحاصر منافسه الشجاعى هو وأتباعه فى القلعة . ومن العبارات التى دارت بين خوند أشلون أم السلطان الناصر وكتبغا من ناحية ، وبين السلطان ووزيره الشجاعى من ناحية أخرى نتبين مدى احترام المبدأ الوارثى فى السلطنة المملوكية خلال ذلك العهد .

ذلك أنه لما اشتد الحصار وعرفت أم السلطان أن أسباب الخلاف قد تكون راجعة إلى تنافسهما على الوصول إلى العرش قالت لكتبغا « ايش قصدك حتى نفعله ، إن كان قصدك أن تخلع ابنى من السلطنة فافعل » . فرد عليها كتبغا بقوله : « أعوذ بالله السميع العليم والله لو بقى من أولاد أستاذنا بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك (٢)

---

(١) هو علم الدين سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى « وزير الديار المصرية ومشد دواوينها ثم نائب سلطنة دمشق ... كان أولا قد ربى بدمشق ... ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم الخط وقراءة الأدب واتصل بالأمير عز الدين الشجاعى مشد الدواوين وإليه ينسب بالشجاعى . ثم اتصل بالملك المنصور قلاوون وهو فى جملة الأمراء . ولما تسلطن قلاوون تقدم سنجر المذكور عنده وجعله شاد الدواوين ثم ولاه الوزارة بالديار المصرية ثم ولاه نيابة دمشق ثم عزل عنها . وكان له ميل إلى الدين وتعظيم الاسلام وهو الذى كان مشدا على عمارة البيمارستان المنصورى بين القصرين فتممه فى مدة يسيرة ... ثم عمل الوزارة فى أيام الدولة الناصرية محمد بن قلاوون أكثر من شهر وحدثته نفسه بما فوق الوزارة فعصى ووقع له أمور فقتل وعلق رأسه على سور القلعة ... » (أنظر المنهل الصافى لأبى المحاسن) .

(٢) قارن ذلك بما قاله كتبغا بعدئذ عن عدم أهلية الملك الناصر للسلطنة لصغر سنه .

وإنما قصدنا الشجاعى[١] واخماد الفتنة »[٢]. وهذا الكلام الذى ورد على لسان كتبغا يدلنا على تظاهره باحترامه لصاحب الحق الشرعى فى الملك وإن كان فى قرارة نفسه لا يقيم وزنا لمبدأ الوارثة .

واشتد الحصار على أثر ذلك على الشجاعى بالقلعة حتى أنه لم ير بدأ من الدخول إلى السلطان لاستشارته فيما يفعل ازاء ذلك . فقال له هذا : « ياعمى ! ايش آخر هذا الحال الذى أنتم فيه » . فقال له الشجاعى : « هذا كله لأجلك يابن استاذنا فهم قصدوا أن يخلعوك من السلطنة ويمسكونى أنا »[٣] . فقال السلطان ، « يا عمى ! أنا أعطيك نيابة حلب لتستريح منهم »[٤]. فلم يوافق على ذلك . واذا تذكرنا صغر سن الناصر وجب علينا أن نفكر فى مصدر هذا الحل الذى اقترحه ، ولسنا نستبعد أن يكون هذا المصدر هو خوند أشلون والدته . ولم يكن قتل الشجاعى بواسطة كتبغا وأتباعه بل ان الشجاعى لما عرض عليه السلطان نيابة حلب « أغلظ على السلطان فى القول فقام اليه المماليك الذين كانوا عند السلطان وأمسكوه وقيدوه وأرسلوه الى البرج ، وبينما هو سائر فى الطريق إذ خرج عليه جماعة من المماليك البرجية فقتلوه »[٥].

وانتهت حوادث عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) والناصر لا يزال صاحب السلطان الشرعى فى مصر برغم أنه لم يكن له من الأمر شىء . ولكن هذه الحوادث قد ساعدت على تقريب أجل حكمه وأدت الى القضاء على الشجاعى وجعلت كتبغا صاحب النفوذ الحقيقى فى مصر .

وثانى الأمور التى أثرت فى مجرى الأحوال بمصر إذ ذاك — بالاضافة إلى ذلك الخلاف الذى قام بين كتبغا والشجاعى — هو ظهور حسام الدين لاجين[٦] فى القاهرة . وعلى أثر ظهوره اضطربت الأحوال وقام المماليك الأشرفية[٧] فى ١٠ المحرم سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م)

---

(١) يعنى القضاء على الشجاعى .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠١ .

(٣) أراد الشجاعى أن يجلى للسلطان حقيقة الموقف فأفهمه أنهم يريدون القبض عليه [على الشجاعى] ثم خلع السلطان ثانيا . فيصل كتبغا بسهولة إلى العرش بعد زوال منافسه . وقد اتضح فيما بعد أن الشجاعى كان صادقا فيما قاله عن نوايا كتبغا وأعوانه فيما يختص بعزل الناصر .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ .

(٥) ابن إياس : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) لاجين هو أحد الأمراء الطاعين الذين اشتركوا فى تدبير مقتل الأشرف وتمكن من الهرب عقب مقتله واستتر . وقيل إن كتبغا حماه ورعاه طوال مدة اختفائه لأنه كان مؤاخيا له منذ الصغر (ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٨٨) . ويقول ابن إياس (بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٣) عن مسألة اختفاء لاجين ما نصه « فاختفى لاجين مدة طويلة بحوسنة ، فكان مقيما فى خزانة أحمد بن طولون ثم أن الأمير كتبغا شفع فيه عند الملك الناصر محمد بن قلاوون فقابله فرضى عليه السلطان وأنعم عليه بتقدمة ألف » .

(٧) المماليك الأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل .

بثورة عنيفة استمرت طوال الليل بمصر والقاهرة ودخلوا أسواق السلاح واستولوا على ما فيها وأخذوا خيل السلطان ونهبوا الاصطبلات . فلما رأى لاچين إمارة الغدر بادية من هؤلاء المماليك أخذ يحسن للأمير كتبغا الوصول الى عرش السلطنة وخلع الناصر محمد : « لأن الأشرفية ما دام الملك الناصر فى الملك شوكتهم قائمة » ولأن الملك الناصر « متى كبر لا يبقيك [أى كتبغا] البتة ولا يبقى أحداً ممن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف »[١].

وصادف كلام لاچين هوى فى نفس كتبغا . فجمع الأمراء « وضربوا مشورة[٢] وقالوا : لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك فى حق الرعية . ومن الرأى أن نولى سلطاناً كبيراً يقمع المماليك[٣] عن هذه الأفعال »[٤] . فاستقر رأيهم جميعاً على خلع السلطان الناصر محمد من الملك وإعلان كتبغا سلطاناً فى ٨ المحرم سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤م) على أن يكون حسام الدين لاچين نائباً للسلطنة . فكانت مدة حكم الناصر محمد فى سلطنته الأولى سنة واحدة .

وطبيعى أن سلطنة الناصر الأولى كانت اسمية فقد كان غلاماً صغيراً وكان أتابكه كتبغا هو القائم بجميع أمور الدولة وليس لهذا السلطان معه تصرف البتة . واحتجب الناصر بعد عزله — ولم يتجاوز إذ ذاك العشر سنين — عن الأنظار ومنع من الاتصال بالناس . وفى ذلك يقول بيبرس الدوادار : « ولما جلس [كتبغا] فى المملكة على زعمه وخلع الملك الناصر من محله وحكمه[٥] أسكنه فى قاعة من الدور[٦] وحجبه فى أمنع الخدور[٧] فقضى الله له عليه وأخذ حقه منه ورده إليه »[٨] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٢) نلاحظ أن عبارة « ضربوا [أى الأمراء] مشورة » ترد كثيرا على لسان المؤرخين عقب حادثة قتل أو عزل سلطان قائم وتولية سلطان جديد ، مما يؤيد أن الأمراء كان لهم الشأن الأعظم فى توجيه الحوادث الجارية فى عصر المماليك .

(٣) يقصد بعبارة « يقمع المماليك » ضمان عدم قيام هذه الطائفة بثورة كالتى قاموا بها عقب ظهور لاچين بعد اختفائه مدة .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٢ .

(٥) يريد المؤلف أن يذكر أن الناصر محمد انتزع منه العرش بطريق الاغتصاب مع أنه حقه الطبيعى .

(٦) يقصد « بالدور » الدور السلطانية التى أنشأها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب بعد أن أتم بناء القلعة سنة ٦٠٤ هـ .

(٧) زاد ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٥٨٥) هذه العبارة وضوحا فقال إنه اشترط على الناصر بعد عزله « أن يقيم فى قاعة جوانية بالقلعة لا يتصرف منها » .

(٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٥ .

الاغتصاب الأول فى سلطنة الناصر محمد : السلطان كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) .

وبذا صار زين الدين كتبغا سلطاناً على مصر وتلقب بالعادل (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) . وهو مغربى الأصل ، ومن سبايا التتار ، أخذه السلطان قلاوون فى واقعة حمص الأولى سنة ٦٥٩ هـ وجعله من مماليكه وتعهده بالتربية والتهذيب . فلما آلت السلطنة إلى قلاوون رقاه فى وظائف الدولة حتى صار من كبار الأمراء . ولما قتل خليل وتولى أخوه الناصر محمد الملك سنة ٦٩٣ هـ جعله نائباً للسلطنة(١) .

ولما جلس كتبغا على العرش فى سنة ٦٩٤ هـ أقام الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة وأعطى الأمير شمس الدين قراسنقر إقطاعاً ورقى عدداً من مماليكه إلى مرتبة الإمارة . وهذان الأميران هما اللذان اختفيا عقب مقتل السلطان خليل وعرف كتبغا موضعهما وبرهما على ما بينا . ويقول ستانلى لينپول أنه كان من الطبيعى أن يكرم كتبغا هذين الأميرين ، إذ أنه كان منذ مقتل خليل يطمح إلى عرش السلطنة ووجد كل من لاجين وقراسنقر من عظم النفوذ وكثرة الأتباع والأنصار فى البلاد المصرية ما يسهل عليه الوصول إلى غرضه فى الملك إذا انضما إليه(٢) .

كان كتبغا سيء الطالع : فقد أصيبت البلاد عقب ولايته بالغلاء والوباء حتى تشاءم الناس من سلطانه وتمنوا زواله . وبلغ من شدة ما أصاب البلاد من الجدب أن نفدت من خزائن السلطان الغلال وعلف الدواب . وكان أهم العوامل التى أثرت فى حالة البلاد فى ذلك العصر انخفاض ماء النيل فى سنة ٦٩٤ هـ فعم الجدب معظم الأراضى وقلت المحاصيل الزراعية ولم تف بحاجة البلاد وشكا الناس شدة الجوع وفتكت بهم الأمراض وفشا فيهم الموت حتى كانوا يتساقطون صرعى فى الطرقات . ولم يقتصر هذا الأمر على البلاد المصرية بل انتقل منها إلى بلاد الشام والحجاز أيضاً ، غير أنه لم يكن بالغاً هذا الحد الذى بلغه بمصر . ثم كشف الله عن الناس تلك الكروب وهدأت الأحوال وزال الغلاء بعد أن ترك فى الدولة آثاراً سيئة(٣) .

ومن أهم العوامل التى أساءت إلى سمعة كتبغا ترحيبه بالأمراء والجند المغول الذين فروا إلى مصر من وجه غازان بعد اعتناقه الإسلام . فإن ترحيب كتبغا بهم — وهم نحو عشرة آلاف — رغم عقائدهم الوثنية ورغم القحط السائد فى البلاد وعزمه على اتخاذهم عوناً له ضد

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣٩ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٥٥ . المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٧ ب . راجع

Mayer : Saracenic Heraldry, p. 143; Van Berchem : Corpus I. P . 153

(٢) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 289

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٤ و ٨٤٩ — ٨٥٠ . الشوكانى : البدر الطالع جـ ٢ ص ٥٨ .

سائر المماليك ، كل هذا أثار حقد الجيش وسائر السكان(١) . كذلك منح كتبغا السلطة والنفوذ لأميرين من خاصة مماليكه هما بتخاص وبكتوت الأزرق(٢) . فلم يحسنا استعمالها وتحكما فى أمور الدولة وأفسدا نظام المملكة وغيرا عليه القلوب لسوء سيرتهما واستئثارهما بالأمراء وأوغرا صدره على لاچين ، أشد أمراء المماليك نفوذاً فى ذلك الوقت(٣) .

على أن المظالم الذى أتى بها هذان الأميران لم تكن من الخطورة بقدر الدسائس التى حاك شراكها لاچين . فقد طمع هذا الأمير فى السلطنة منذ اعتلاها كتبغا وبدأ يكيد له فى الباطن حتى وافته الفرصة فى سنة ٦٩٦ هـ حين غضب بعض أمراء الشام على كتبغا لعزله عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام وتولية مملوكه أغرلو العادلى مكانه ثم لعدم منحهم الانعامات وتوزيع الهدايا حين زيارته لدمشق فى ١٧ شوال سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) (٤) ، على نحو ما جرت به عادة السلاطين عند زيارتهم بلاد الشام لأول مرة بعد توليتهم . وبذلك « ذهل كتبغا عن الصواب . وللقضاء إذا أراد إنفاذه أسباب وأى أسباب »(٥) وأشعل لاچين نار الفتنة وزاد عوامل البغضاء والكراهية فى نفوس أعوانه ، بل اتفق معهم على قتل كتبغا وهو فى طريقه إلى مصر ليحقق بذلك غرضه الأول وهو الوصول إلى السلطنة على نحو ما فعله بيبرس مع قطز .

خرج كتبغا من دمشق بجنوده متجهاً نحو الديار المصرية . ولما وصل إلى اللّجون بالقرب من طَبَرية فى ٢٨ المحرم سنة ٦٩٦ كان لاچين قد اتفق مع الأمراء على الغدر بالسلطان ، لكنه لم يتمكن من تنفيذ خطته فقتل الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق ، أعز مماليك كتبغا وأقربهم إليه وأكثرهم حظوة وأوفرهم سطوة . فلما علم بذلك كتبغا فر إلى دمشق حيث جدد له نائب السلطنة بالشام الحلف ، ويقول أبو المحاسن فى هذا الصدد : « قصد لاچين [بعد قتل

---

(١) Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV (L' Egypte Arabe), pp.464—465

(٢) سمى الأزرق لأنه كان أخيف العينين . والأخيف هو الذى تكون إحدى عينيه سوداء والأخرى زرقاء .

(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٨٢ . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ . وسنرى أنه كان لمملوكيه الحق فى تحذير كتبغا من عاقبة استسلامه للاچين وقراسنقر .

(٤) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٤٠ . ويقول ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٥٩٢ — ٥٩٤) أنه « لما وصل [كتبغا] إلى دمشق قدم له النواب والأمراء [ومن بينهم الأمير عز الدين أيبك الحموى] تقادم كثيرة بحكم أنه أول قدومه عليهم فى سلطنته ... فلم ير له ولا لما قدمه بل عزله من النيابة وأخذ منه ومن ألزامه جملة كبيرة وولى مملوكه اغرلوا مكانه . . . ولم يخلع عليهم ولا وصلهم عن ذلك بشىء من الصلات كما جرت به من الملوك العادات فان عادة الملوك إذا دخلوا إلى مدينة مثل دمشق أن يغدقوا الهدايا والصلات على الأمراء لا عن مكافأة لهم ولا بسبب تقادم صدرت منهم . لا سيما ملك فى أول دولته وبداية سلطنته » .

(٥) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر ص ٥٩٤ .

الأميرين] مخيم السلطان فمنعه بعض مماليك السلطان قليلا وعوّقوه عن الوصول إلى الملك العادل . وكان العادل لما بلغه هذا الأمر ، علم أنه لا قبل له على قتال لاجين لعلمه بمن وافقه من الأمراء وغيرهم وخاف على نفسه وركب من خيل النوبة(١) فرساً وساق لقلة سعده ولزوال ملكه راجعاً إلى الشام ولو أقام بمخيمه لم يقدر لاجين على قتاله وأخذه فما شاء الله كان ! وساق حتى وصل إلى دمشق . . . فتهيأ نائب الشام الأمير أغرلوا العادلى واستعد وأحضر أمراء الشام عند السلطان ورسم بالاحتياط على نواب الأمير حسام الدين لاجين ... ثم ان الملك العادل طلب قاضى قضاة دمشق وقاضى القضاة حسام الدين الحنفى وحضرا تحليف الأمراء والمقدمين وتجديد المواثيق منهم ووعدهم وطيب قلوبهم » (٢) .

وعقب فرار كتبغا استولى لاجين على دهليز السلطان وخزائنه وانضم إليه حرسه وسائر رجال جيشه دون أن يبدوا أية مقاومة . ولما تم له ذلك جمع لاجين الأمراء ورجال الجيش — وهو لا يزال فى المكان الذى حاول فيه قتل السلطان — وخاطبهم قائلا : « أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم ولست موليا عليكم من مماليكى أحداً ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل(٣) وأنتم خوشداشيتى(٤) ومحل اخوتى(٥) ». ولا غرو فان بعض سلاطين المماليك كانوا يسارعون بالظهور بمظهر الملوك منذ ينجحون فى الاستيلاء على العرش . فأراد لاجين هذه المرة أن يقول للأمراء أنه ليس الا واحداً منهم ، وذلك سياسة منه وتواضعا حتى لا يشعر الأمراء أنه بعد أن يصل الى السلطنة يتناساهم أو يتسامى عليهم وهو منهم ونشأ نشأتهم.

وقد عد الأمراء هذه النعمة وتلك الشروط أقصى ما يمكن أن يطلبوه ممن يتولى أمورهم . لهذا أعجبوا بقوله ولكنهم أرادوا أن يتأكدوا من أنه ينوى العمل بما قال ولا ينقضه . فاشترطوا عليه عدة شروط أهمها ضمان عدم انفراده برأى أو تسليط مماليكه عليهم كما فعل كتبغا(٦). فأجابهم إلى كل ما طلبوه وحلف لهم عليه . وعند ذلك بايعوه بالسلطنة فى المحرم سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وتلقب بعد وصوله الى القلعة بالقاهرة بالسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ = ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) . وهذا يدلنا على أن الاغتصاب كان أمراً مألوفاً لدى الأمراء بدليل أنهم لو كانوا يتمسكون بالمبدأ الوارثى فى الوصول الى العرش لما سمحوا لهذين الغاصبين باغتصاب عرش الناصر على هذه الصورة وهو لا يزال حياً مهما بلغت سنه .

---

(١) كانت العادة أن يحفظ بقرب حضرة السلطان بالقلعة أو فى الأسفار فرس مجهز بالسرج والغاشية لاستخدامه فى الطوارىء وقد سمى باسم فرس النوبة . المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٣ — ٦٤ .

(٣) يقصد ما حل بالأمراء من عسف الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق .

(٤) سبق شرح مدلول هذا اللفظ .

(٥) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٩٦ . بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٦٥

(٦) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ .

ثم كل ذلك وكتبغا مقيم بقلعة دمشق لا يخرج منها ولا يدرى بما حدث فى مصر بعد وصوله الى الشام . ولكن لم تلبث الأخبار أن جاءت من القاهرة بأن لاجين أصبح متربعا على عرش السلطنة بالديار المصرية ، ولما اتصل ذلك بمسامع أهل الشام انصرفوا عن كتبغا . وفى ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وصلت المراسيم إلى قضاة دمشق وأمرائها من السلطان لاجين باحضار كتبغا وإبلاغه خبر عزله عن سلطنة مصر وأصبح كتبغا أمام الأمر الواقع . وفى ذلك يقول ابن اياس : « فقام قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى هو والأمير حسام لاجين[1] ودخلوا على العادل كتبغا وهو بقلعة دمشق وتكلموا معه . فلما رأى كتبغا عين الغلبة أذعن وأشهر على نفسه بالخلع »[2] . ويقول أبو المحاسن : « ان العادل كتبغا تكلم معهم كلاماً كثيراً بحيث انه طال المجلس كالعاتب عليهم ثم انه حلف يميناً طويلا ، يقول فى أولها : أقول وانا كتبغا المنصور — ويكرر اسم الله تعالى فى الحلف مرة بعد مرة — انه يرضى بالمكان الذى عينه السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ولا يكاتب ولا يسارر فانه تحت الطاعة وانه خلع نفسه من الملك »[3] .

وفى ١٢ ربيع الأول سنة ٦٩٦ هـ وصل الى دمشق الأمير سيف الدين قبجق[4] نائب الشام من قبل السلطان لاجين . وعقب وصوله أرسل إلى كتبغا وأبلغه أن السلطان لاجين يأمره بالتوجه إلى مدينة صرخد للاقامة فيها ، فذهب إليها معززا مكرما ومعه أولاده ومماليكه وغلمانه وأقام بها[5] . وهذه ظاهرة خطيرة أن يصبح السلطان السابق واليا على بلدة من أعمال دمشق (صرخد) وهو أول مثل ينزل فيه سلطان فى دولة المماليك إلى أمير . وتتابعت حوادث نزول السلاطين عن عروشهم ، إلا أنهم كانوا إما يعزلون أو يقتلون أو يعتزلون فى مكان ما أو يقبض عليهم كأولاد الناصر

---

(١) هو الذى أرسله السلطان لاجين رسولا إلى أمراء دمشق وقضاتها ومعه المراسيم الخاصة بخلع كتبغا . ومما يجب ملاحظته أنه ورد فى المنهل الصافى لأبى المحاسن سبعة أمراء باسم حسام الدين لاجين ، وردت تراجمهم فى هذا الكتاب المخطوط .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٥ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧ .

(٤) بدل اغرلوا مملوك كتبغا الذى كان السلطان [كتبغا] قد سافر إلى دمشق ليوليه نيابة السلطنة بدلا من الأمير عز الدين أيبك الحموى .

(٥) قيل إن كتبغا هو الذى طلب من لاجين مكانا يقيم فيه بقية حياته . فأجابه إلى ذلك . يقول أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤) : « فخلع نفسه من السلطنة وقعد بقلعة دمشق وأرسل إلى حسام الدين لاجين يطلب منه الأمان وموضعا يأوى إليه فأعطاه صرخد فسار العادل إليها واستقر بها » . وظل كتبغا مقيما فى صرخد حتى جاء الناصر محمد فى سلطنته الثانية وأنعم عليه بمملكة حماة وأعمالها فاستقر بها إلى أن توفى فى ١٠ ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) .

السلطان لاجين (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ = ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) :

كان لاجين من أبناء بعض البلاد الواقعة على البحر البلطى فى الشمال الغربى من أوربا . ثم صار من بين مماليك الملك المنصور على بن ايبك . فلما خلع على اشتراه الأمير قلاوون بسبعمائة درهم على أساس أنه ليس له مالك شرعى . فلما تبين أنه من مماليك المنصور على اشتراه قلاوون من جديد ثم أعتقه بعد أن رباه وبلغ أشده وقلده عدة وظائف مبدئا من « غلام » حتى وصل إلى «سلاح دار» ، ولما اعتلى قلاوون العرش جعله من بين أمرائه[١]. ثم عينه نائباً على دمشق[٢]. وظل فى تلك الوظيفة حتى عزله السلطان خليل بن قلاوون وقبض عليه . ولكنه عاد فأفرج عنه بعد أن شفع فيه بعض الأمراء ولما خرج من الحبس أوجس خيفة من السلطان فاتفق مع بيدرا وبعض الأمراء على قتله وتم لهم ما أرادوا[٣] . وعقب مقتل خليل اختفى لاجين عدة أشهر فى جامع ابن طولون[٤] إلى أن أخرجه الأمير كتبغا بعد أن شفع فيه عند السلطان الناصر . ولما صار كتبغا سلطانا جعله نائبه . واستمر يباشر نيابة السلطنة حتى اتيحت له فرصة الاتفاق مع جماعة من كبار الأمراء على خلع كتبغا وتم لهم ما أرادوا وتولى لاجين سلطنة مصر على نحو ما فصلناه[٥] .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٢٠ — ٨٢١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٥ :
Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 290.
راجع Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 48. Mayer : Saracenic Heraldry, p. 148.

(٢) ظل لاچين على نيابة دمشق حتى خرج الأمير سيف الدين سنقر الأشقر عن طاعة الملك المنصور قلاوون وأعلن نفسه سلطانا على دمشق وتلقب بالملك الكامل وملك قلعة دمشق فقبض على لاچين وحبسه وظل فى الحبس حتى هزم سنقر الأشقر وخلفه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى فأخرجه من حبسه . ثم عينه المنصور قلاوون على نيابة دمشق فظل بها إحدى عشرة سنة . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٥ — ٨٦ . المنهل الصافى جـ ٣ ص ٦٤ ب .

(٣) يتمثل أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ٨٦) بهذه المناسبة ببيتين للشاعر أبى الطيب المتنبى حيث يقول :

لا تخدعنك من عدوك دمعة ... وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

(٤) نذر لاچين أثناء إقامته بجامع ابن طولون أنه إن سلم من هذه المحنة وتولى عرش مصر فانه يقوم باصلاح هذا الجامع . فلما نال ما تمناه اهتم فى أول سنة من ولايته بعمارته وأمر وزيره علم الدين سنجر بشراء الأملاك وإيقافها على المسجد . وبعد تمام العمارة رتب فى الجامع درسا للفقه والتفسير والحديث والطب كما خصص له إماما للصلاة ومؤذنين . وبلغت جملة النفقة على هذه العمارة عشرين ألف دينار . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٦٨ . وكتاب تاريخ ووصف الجامع الطولونى لمحمود عكوش ص ٩٢ — ٩٥ .
Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 303, 304, 305.

(٥) أنظر المنهل الصافى لأبى المحاسن جـ ٣ ص ٦٥ أ .

وبعد وصول لاچين الى عرش السلطنة كانت أمامه عقبتان لا بد له من اجتيازهما والتغلب عليهما ليثبت عرشه ، أولاهما : كتبغا وما كان ينتظر أن يأتيه من الدسائس وما يثيرة من الفتن لاستعادة عرشه . وثانيهما الناصر محمد الذى كان لا يزال مقيما بمصر على النحو الذى تركه عليه كتبغا . وكان الناصر فى نظر الناس صاحب الحق الشرعى فى الملك . إلا أن كتبغا سلم بالأمر الواقع بعد محاولات غير مجدية وكفى نفسه شر القتال وشهد أمام قاضى قضاة دمشق بنزوله عن العرش ورضى بالمكان الذى عينه له لاچين .

أما الناصر محمد فقد فكر لاچين فى إرساله إلى الكرك وإفهامه أنه سيبقى بها حتى يبلغ سن الرشد . وعندئذ يسلمه ملكه بحجة أنه ينوب عنه فى سلطنة مصر . ويقول النويرى فى هذا الصدد : « أخبرنى قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى عن خبر إرساله [يعنى الناصر محمد] إلى الكرك ، قال : طلبنى الملك المنصور حسام الدين ، وقال لى أعلم أن السلطان الملك الناصر ابن أستاذى وأنا والله فى السلطنة مقام النائب عنه . ولو علمت أنه الآن يستقل بأعباء السلطنة(١) ولا تنخرم هذه القاعدة ويضطرب الأمر أقمته وقمت بين يديه(٢) . وقد خشيت عليه فى هذا الوقت(٣) . وترجح عندى إرساله إلى قلعة الكرك فيكون بها إلى أن يشتد عضده ويكون من الله الخير . ووالله ما أقصد بإرساله إليها إبعاده ولكن حفظه ، والسلطنة فهى له ، وأمثال هذا من الكلام . قال زين الدين فشكرته على ذلك ودعوت له . ولعل السلطان الملك المنصور إنما قال هذا الكلام تطييبا لقلب قاضى القضاة لاحقيقة(٤) ، وكان فى طى الغيب كذلك »(٥) . ثم وجه لاچين كلامه بعد ذلك إلى الناصر محمد ليبين له حقيقة الدافع الذى حمله على التفكير فى الاسراع بارساله إلى الكرك . قال لاچين : « لو علمت أنهم يخلوك سلطانا والله تركت الملك لك . وأنا مملوكك ومملوك والدك أحفظ لك الملك وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل (كذا) وتتخرج وتجرب الأمور وتعود إلى ملكك بشرط أن تعطينى دمشق وأكون بها مثل صاحب حماة فيها » . فقال له الناصر : « فاحلف لى أن تبقى على نفسى وأنا أروح . فحلف كل منهما على ما أراده الآخر(٦) » .

أراد لاچين من هذه المناقشات أن يطمئن الناصر على أنه سيعيده إلى عرشه متى بلغ سن الرشد وأصبح قادراً على أن يحكم بنفسه . وتبدو هذه الأسباب التى تعلل بها لاچين لارسال

(١) يقصد لو علمت أنه يحسن القيام بأمرها .

(٢) يقصد أصبحت نائبا عنه .

(٣) يقصد أنه لو أعاد الناصر إلى سلطنته وهو فى هذا السن المبكرة لعاد كتبغا من دمشق واغتصب العرش ثانية أو حاول أمير آخر اغتصاب العرش نهائياً لا نيابة عن الناصر .

(٤) يريد النويرى بهذا الاستدراك أن يوضح أن لاچين لم يكن جادا فى كلامه عن إعادة الناصر إلى ملكه بعد بلوغه سن الرشد وتخلى لاچين عن السلطنة بمحض إرادته .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٥ ب .

(٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٣٢ .

منبر جامع ابن طولون من عصر السلطان لاچين

الناصر إلى الكرك معقولة .

وعلى أثر ذلك الاتفاق رحل الناصر إلى الكرك فى سنة ٦٩٦ هـ ومعه الأمير سيف الدين سلار وأقام فيها . وعامله نائبها الأمير جمال الدين أقوش الأشرفى بما يجب له من الاجلال « وتلقى أوامره ونواهيه بالامتثال ونزله المنزلة اللائقة بمثله ، وفعل فى خدمته ما يحمد على فعله »(١) .

وبعد أن اطمأن لاچين على ملكه من كتبغا والناصر ، التفت إلى تدبير شئون ملكه فعين الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى(٢) نائباً للسلطنة . ولكن لم يلبث أن قبض عليه وعين بدلا منه الأمير سيف الدين تَمْكُوتَمُر(٣) . وتعتبر تولية منكوتمر فى نيابة السلطنة إيذانا بزوال حكم لاچين الذى أخذ عليه الأمراء العهود والمواثيق ألا يعين هذا الأمير فى أى عمل من أعمال الدولة حتى لا يسير سير كتبغا حين عين بكتوت وبتخاص الذين ساما الناس الخسف والعذاب .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه هذه العبارة التى ننقلها عن بيبرس الدوادار : « لما حلف لهم على ما طلبوه(٤) ، قال الأمير سيف الدين قفچق : نخشى أنك إذا جلست فى المنصب تنسى هذا التقرير وتقدم الصغير من مماليكك على الكبير وتخول مملوكك منكوتمر فى التحكم والتدبير فتضل »(٥) .

وقد صدق حدس الأمراء ، فان منكوتمر لم يكد يعتلى كرسى نيابة السلطنة وتوضع فى يده مهمة الاشراف على شئون الدولة حتى « استحوذ على عقل مخدومه واستولى عليه وحجبه عن الخاصة والعامة وكان إذا رسم مخدومه بمرسوم لا يؤثره يوقفه هو ويؤخره وان كتب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٣ .

(٢) قراسنقر هو شريك لاچين فى قتل السلطان خليل ، وزميله فى الاختفاء وقد أحضر قراسنقر إلى مصر بأمر قلاوون قبل وصوله إلى السلطنة وعينه « غلاما » ثم « جوكان دار » (polo master) وتقلد بعد أن وصل قلاوون إلى العرش وظيفة حاكم حمص وذلك سنة ٦٨١ هـ وفى عهد السلطان خليل ابن قلاوون عين « أمير جاندار » وظل فى ذلك المنصب حتى تقلد فى عهد لاچين وظيفة نائب السلطنة . راجع ترجمته فى المنهل الصافى لأبى المحاسن ، وانظر Mayer :Saracenic Heraldry, pp. 183—184.
Wiet : les Biographies du Manhal Safi, p. 273 No. 1845

(٣) يمكن مقارنة غضب لاچين على نائبه قراسنقر وعزله بحالة العداوة التى ظهرت وتأصلت بين السلطان خليل ونائبه بدر الدين بيدرا . فان لاچين غدر بصديقه الحميم قراسنقر على أثر دسائس منكوتمر كما غدر خليل بيبدرا بدسائس وزيره الشجاعى . ويقول مفضل بن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٥٩٩) : « فان منكوتمر كان يسعى عنده بالأمير قراسنقر ويم عليه طلبا لمنصبه وحسدا له على إلمامه بالسلطان وتقربه منه . فأثرت نميمته فى نفسه واستوحش باطنه بعد أنسه » .

(٤) أن يكون كأحدهم ، ولا ينفرد برأى ، ولا يبسط يد أحد من مماليكه فيهم .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٢ .

توقيعاً لايختاره يمزقه وعلامته عليه ولا يبالى به ولا يلتفت اليه . ورسم بأن الأموال تحمل إلى داره دون بيت المال . وصار الوزير بين يديه يمثل مراسمه ويستعطف مراحمه ولا يمضى أمراً إلا بأمره»(١) . واشتد حنق الأمراء على السلطان حين علموا أنه يفكر فى جعل منكوتمر ولى عهده(٢). وهنا يتضح أن مبدأ الوراثة فى العرش لم يكن طبيعياً ولا مفهوما عند المماليك فان لاچين لا يغتصب العرش لنفسه فقط ، بل يريد أن يتركه من بعده لأمير آخر ليست له صلة شرعية بالعرش .

وبذلك أثار لاچين حفيظة الأمراء بتعيينه منكوتمر نائباً للسلطنة حانثاً فى يمينه لهم قبل اعتلائه العرش بعدم إسناد أى منصب من مناصب الدولة إليه . وزاد فى سخط الأمراء والجند حين أمر سنة ٦٩٧ هـ بعمل الروك المعروف فى التاريخ باسم « الروك الحسامى »(٣) وبه صار ما يخص هاتين الطبقتين معاً من القراريط الأربعة والعشرين التى كانت تنقسم إليها أرض مصر عشرة قراريط بعد أن كان هذا القدر يخص كل طبقة منها على حدة . وأغضب لاچين الشعب باهماله شئون الدولة وسوء معاملة منكوتمر له . وإذا أضفنا إلى ذلك كله كره المماليك الأشرفية له باعتباره أحد قتلة الأشرف . أمكننا أن نتصور حالة السخط العام على حكمه . ويقول ابن إياس تعليقاً على هذه الحوادث « فنفرت قلوبهم عن السلطان لاچين وتمنى كل أحد زواله وكثر الدعاء عليه من الناس »(٤) .

لذلك اتفق عدد من المماليك على الغدر بالسلطان لاچين وبنائبه منكوتمر ، وانتهزوا سنوح الفرصة لتنفيذ ما اعتزموه . واتصل ذلك بعلم لاچين فصار لا يبرح القلعة إلا نادراً ولضرورة قاهرة . وفى الربيع الآخر سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) تمكن من لاچين مملوكان من المماليك السلطانية هما الأمير سيف الدين طُغْجى والأمير سيف الدين كَرْجى(٥) بينما كان جالسا فى

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٠٠ . أنظر أيضا أبا المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ص ٦٧ أ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٩ ب .

قارن ما سبق أن ذكرناه من قول لاچين للناصر حين اعتزم إرساله إلى الكرك : « أنت تروح الآن إلى الكرك إلى أن تترعرع ... وتعود إلى ملكك » ، بما عول عليه الآن من جعل منكوتمر وليا للعهد .

(٣) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٠ أ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٠ . ويلاحظ أن « الروك الحسامى » سيأتى ذكره مفصلا فيما بعد .

(٤) بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ .

(٥) كان كرجى مقدم المماليك البرجية من أقرب الناس إلى السلطان لاچين وكان يدخل إليه حين يريد دون حجاب . لذلك يروى لنا ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٦١٢) أنه « لما وقف [كرجى] بين يدى السلطان سأله عما عملت ؟ قال : بيّتُ البرجيه وغلقت عليهم . فشكره السلطان وأثنى عليه » . وهذا ما حدا بالمؤرخ أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٩) إلى القول بأن السلطان لاچين قتل على يد من « اصطفاهم لنفسه » .

قصره وقتلاه وهو يلعب الشطرنج[١] . ثم قتلا منكوتمر بعدئذ[٢] .

التمهيد لعودة الناصر محمد الى عرشه :

قتل لاجين فى ١٠ ربيع الآخر سنة ٦٩٨ هـ بعد أن حكم مصر نحوا من سنتين وثلاثة أشهر وبقتله تجدد التفكير فى إعادة الناصر محمد إلى السلطنة . ولكن ما لبث طغجى أن طمع فى العرش ، على أن يكون كرجى — شريكه فى قتل لاجين — نائباً له . وفى ذلك يقول المقريزى : « فى يوم السبت ١٢ ربيع الآخر جلس طغجى مكان النيابة وبقية الأمراء يمنة ويسرة . ومد السماط السلطانى على العادة ، ودار الكلام فى الارسال إلى الملك الناصر ، فقام كرجى وقال : يا أمراء ! أنا الذى قتلت السلطان وأخذت ثأر أستاذى[٣] . والملك الناصر صغير ما يصلح ولا يكون السلطان إلا هذا — وأشار لطغجى — وأنا نائبه ومن خالف فدونه[٤] ». وهذه ظاهرة عجيبة وقاعدة تكاد تكون مطردة فى عصر المماليك وهى أن قاتل السلطان يعتقد أنه لابد يصبح سلطانا . يدل على ذلك ما سبق أن ذكرنا ، عن وصول بيبرس إلى السلطنة بعد قتل قطز ، وما ذكرناه عن وصول بيدرا إلى العرش بعد قتل خليل بن قلاوون . والآن تتكرر هذه الظاهرة ويتفاخر كرجى أنه قاتل السلطان لاجين ويقترح طغجى سلطاناً ويعلن نفسه نائباً له . ولكن الأمراء لم يرضوا بسلطنة طغجى ونيابة كرجى واتفقوا على قتلهما وتم لهم ما أرادوا .

وحانت للامراء فرصة قتل طغجى حين دعوه لاستقبال الأمير بدر الدين بكتاش بعد عودته على رأس الحملة التى كانت قد جردت إلى سيس ببلاد الشام . وكان الأمراء قد كتبوا إلى الأمير بكتاش وإلى من معه يعلمونهم ما حدث من قتل لاجين وعزم طغجى على إقامة نفسه سلطاناً وكرجى نائباً له . وقد أورد لنا ابن أبى الفضائل[٥] والمقريزى[٦] نص المناقشات التى دارت بين الأميرين بكتاش وطغجى بصدد مقتل لاجين . ومنها نتبين أن بكتاش لم يظهر فى بادىء الأمر معرفته بما حدث فى مصر أثناء غيبته وأنه استدرج طغجى حتى اعترف

(١) قتل لاجين بينما كان يتأهب لصلاة العشاء . وقد أسهب مفضل بن أبى الفضائل (نفس المصدر والصفحة) وأبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠١ — ١٠٢) وابن إياس (جـ ١ ص ١٣٧ — ١٣٨) فى وصف مقتل السلطان لاجين ومنه يتضح أنه قتل بواسطة النجاة (أو النمشة أو النجا أو النمشاه) وهى عبارة عن خنجر مقوس شبه السيف الصغير . انظر السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٨٥٧ .

(٢) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر ص ٦١٤ . أبو المحاسن : المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٣ ص ٦٥ ب ٦٨ أ . Lane Poole : Egypt in the Middle Ages, P. 294.

(٣) يقصد السلطان خليل .

(٤) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٦٦ . أنظر أيضا .
Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV. (L'Egypte Arabe) . 486.

(٥) النهج السديد ص ٦١٥ .

(٦) السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ .

أمامه بأنه هو قاتل السلطان . وقد عبر بكتاش عن سخطه بهذه العبارة التى نستدل منها على مبلغ الفوضى التى وصلت إليها مصر إذ ذاك وعدم اعتبار المبدأ الوراثى أساساً للوصول إلى عرش السلطنة : «إيش هذه الأفعال القبيحة ، تريدوا كل يوم تقيموا لكم سلطان جديد ، ابعد عنى ، لا صح الله لكم بدن ، ابعد عنى ، ولا تلتصق بى» (١) . وكانت هذه الكلمات كالسهام صوبت إلى صدر طغجى فتأكد من مصيره فى الحال . أما كرجى فانه لما علم أثناء مقامه بالقلعة بمقتل طغجى ، حاول الهرب ولكنه قتل (٢) .

بعد قتل كل من طغجى وكرجى اتفق عدد من الأمراء هم : حسام الدين لاجين ، وعز الدين أيبك الخازندار ، وسيف الدين سلار ، وسيف الدين كرت ، وجمال الدين عبد الله ، وركن الدين الجاشنكير ، وجمال الدين الأقوش الأفرم (٣) ، وسيف الدين بكتمر (٤) أن يقوموا بتدبير أمور الدولة وصاروا يجلسون معاً ويكتب كل منهم علامته على الكتب والمراسيم ولا يصدر كتاب إلا وعليه امضاءاتهم جميعاً . وكان الأمير عز الدين أيبك الأفرم (٥) يجلس فى مرتبة نائب السلطنة وبقية الأفراد عن يمينه ويساره . واستقر الحال على ذلك مدة خمسة وعشرين يوماً كانت البلاد تحكم فيها بغير سلطان حتى وصل الناصر محمد من الكرك إلى مصر وتسلم ملكه فى ٤ جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) ، وكان عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة ، وبدأت بذلك سلطنته الثانية (٦) .

سلطنة الناصر محمد الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨ هـ = ١٢٩٨ — ١٣٠٨ م) :

استقبل الناصر أثناء عودته استقبالا حماسياً من جميع أهالى مصر وزينت له القاهرة أجمل زينة وأظهر الناس على اختلاف طبقاتهم سروراً يجلّ عن الوصف لعودة سلطانهم الحقيقى

---

(١) النهج السديد ص ٦١٥ .

(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥١ ب — ٥٢ أ .

(٣) ذكر المقريزى (السلوك جـ ١ ص٨٦٩) إن عدد الأمراء الذين اتفقوا على تدبير شئون الدولة هو سبعة ، ولم يذكر من بينهم الأمير سيف الدين بكتمر .

(٤) أضاف كل من ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٦١٧) وأبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠٥) إلى هؤلاء الأمراء السبعة أميرا ثامنا هو سيف الدين بكتمر وذكرا « أن جميعهم منصورية قلاوونية ، وغالبهم قد خرج من السجن بعد قتل لاجين » .

(٥) كان الرأى قد استقر بين الأمراء على تعيين الأمير عز الدين أيبك الأفرم نائبا للسلطنة بعد وصول الناصر محمد إلى العرش . إلا أنهم ما لبثوا أن اعرضوا عنه وأقاموا الأمير سيف الدين سلار بدلا منه .

(٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٧٢ — ١٧٣ . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٩ .

إلى ملكه . وارتفعت أصواتهم بالدعاء لذاته بالحفظ والسلامة ولملكه بالعز والتأييد . وطالبوا بالانتقام من زين الدين كتبغا ومن أعوان حسام الدين لاجين . ومن ذلك الحين اشتد سخط الأمراء الطامحين على العامة لما أظهروه نحو الناصر محمد من الولاء والاخلاص وبدءوا يتدبرون الأمر فيما بينهم .

ولسنا نزعم أن الشعب المصرى كان يعنى كثيراً بنظام العرش أو حق الناصر فى عرش أبيه . ولكننا نفسر فرح الشعب فى مناسبة عودة الناصر بسخطه على الأمراء المماليك وما يحدثه التنافس بينهم من قلاقل واضطرابات لا ينجو الشعب من أضرارها وبأمله فى أن يتغير الحال على يد الناصر .

لما استقر الناصر على العرش عين الأمير سيف الدين سلار[١] نائباً للسلطنة والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا . غير أن هذين الأميرين عملا على التضييق على الناصر فلم يمكناه من الاتصال بشعبه أو التصرف فى أمواله ، بل عمدا الى الحجر عليه وتقرير راتب شهرى ضئيل لم يكن يكفيه للانفاق منه على ضرورات المعيشة . وكان اذا طلب زيادة راتبه لا يستمعان إليه ولا يأبهان لقوله ولا يوافقانه عليه[٢] .

وفى سنة ٧٠٧ هـ شدد سلار وبيبرس الحجر على الناصر . فشكا لخاصته ضيق يده وعزم على التخلص منهما . ومن هنا تبدأ الفتنة بين الناصر من جهة وبين هذين الأميرين من جهة أخرى وينتهى الأمر بعزله وزوال سلطنته الثانية . ويهمنا فى هذا الصدد أن نتتبع باختصار تطورات هذه الفتنة ونتائجها لنرى أن حب الشعب للناصر وحكمه ، ذلك الحب الذى ظهر باجلى معانيه أثناء هذا النضال لم يحل دون القضاء على ملكه وإن كان قد أطال قليلا فى فترة سلطنته الثانية .

وبلغ اليأس بالناصر مبلغا عظيما . فاستدعى الأمير بكتمر الجوكندار وأعلمه بما صح عليه عزمه من القبض على الأميرين سلار وبيبرس وكان لكل منهما أرصاد وعيون[٣] عند السلطان يبلغونهما كل ما يقال عنهما[٤] . لذلك أخذ كل من هذين الأميرين حذرهما . واجتمع الأمراء للتشاور فى موقفهم بعد ذلك بازاء السلطان وجهزوا عدداً من المماليك وأوقفوهم على باب الاسطبل السلطانى بقيادة الأمير سيف الدين شمك أخى سلار حتى لا يتمكن الناصر

---

(١) كان سلار من التتار العوايرتية . اشتراه الملك الصالح على بن قلاوون ثم أصبح بعد مونه فى خدمة المنصور قلاوون . وكان شديد البأس صعب الخلق ، واليه ينسب السلارى من الملابس والآلات الحربية . السلوك جـ ٢ ص ٥٩ . راجع Mayer : Saracenic Heraldry, p. 196

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٥٤ .

(٣) هنا تلزم الاشارة إلى أثر العيون التى كان يبثها الأمراء لنقل ما يقوله السلطان عنهم إذ كان هؤلاء يعمدون إلى إيغار صدور الأمراء على السلطان . وقد رأينا ما كان لهم من التأثير على بيدرا حتى دبّر أمر مقتل السلطان خليل .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٠ — ١٧١ .

من الهرب من القلعة . على أثر ذلك تأهب المماليك السلطانية للعمل على نجاة الناصر باخراجه فى الحال من الاصطبل وتوقعوا الحرب بينهم وبين أتباع الأميرين سلار وبيبرس فلم يوافق السلطان . واستمر حصارهم للقلعة ساعات طويلة . لذلك خاطب السلطان الأمراء وقال لهم : « ما سبب هذا الركوب على باب الاصطبل ؟ إن كان غرضكم فى الملك فها أنا متطلع إليه فخذوه وابعثونى أى موضع أردتم ! » (١) فكان ردهم على ذلك : « أن السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يحرضونه على الأمراء »(٢) . فنفى السلطان أن أحداً من المماليك يحاول تحريضه على الأمراء .

ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ أن نظام المماليك البقاء فيه للأصلح ، والسلطنة فيه لأعظم الأمراء نفوذا وأكثرهم أتباعا . ولا ريب فى أن تسليم خوندا شلون فى سلطنة الناصر الأولى بضعف ابنها وبأنه فى يد الأمراء يستطيعون خلعه إذا أرادوا ثم تسليم الناصر نفسه بمثل ذلك وعرضه أن يعطيهم الملك وأن يبعثوه إلى حيث يشاءون . كل ذلك يشهد بأن وراثة العرش لم يكن مقدراً له النجاح فى هذه الدولة وبأن أنصار محمد بن قلاوون بين المماليك لم يكونوا قوة يحسب لها حساب .

وتداخلت العامة فى هذا النزاع حين علموا أن الأمراء يريدون الغدر بالسلطان ، فتجمعوا حول قلعة الجبل ، وتحمسوا فى الذود عن ملك الناصر . ولم ينجح سلار وبيبرس فى تشتيت جموعهم بالقوة(٣) ، فخضعا لمشيئة الشعب وتبعهما بقية الأمراء . إلا أنهم رجوا من السلطان أن يخرج من مصر مماليكه الذين كانوا سبب الفتنة (٤) . وعقب ذلك دخل الأمراء على السلطان وقبلوا الأرض ثم قبلوا يده(٥) . وبذلك خمدت الفتنة وخرج الناصر منها منتصرا

(١) قارن هذا القول بما قالته أم الناصر محمد فى صفر سنة ٦٩٣ هـ فى عهد سلطنته الأولى حين اشتد حصار كتبغا للقلعة : « إيش قصدك حتى نفعله ، إن كان قصدك أن تخلع ابنى من السلطنة فافعل » .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٢ .

(٣) أمر سلار وبيبرس باستعمال الدبابيس فى تفرقة الجموع (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣) . والدبوس عبارة عن هراوة مدملكة الرأس .

(٤) اختلف أبو المحاسن مع ابن إياس فيمن أخرج من مصر : هل هم مماليك الناصر أم مماليك سلار وبيبرس ؟ يقول أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ١٧٣) « وبعث الأمراء ثانيا إلى السلطان بأنهم مماليكه وفى طاعته ولا بد من إخراج الشباب الذين يرمون الفتنة بين السلطان والأمراء . فامتنع السلطان من ذلك واشتد . فما زال به بيبرس الدوادار وبرلغى حتى أخرج منهم جماعة . . . وقصد سلار أن يقيدهم فلم توافق الأمراء على ذلك رعاية لخاطر السلطان فأخرجوا إلى القدس من وقتهم على البريد » . أما ابن إياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٧) فيقول : « فى سنة ٧٠٧ هـ وقع نزاع بين السلطان والأمير سلار نائب السلطنة وثارت بينهما الفتنة وكثر القيل والقال . . . ثم أنه فى يوم الاثنين عمل السلطان الموكب وقبض على جماعة من الخاصكية الذين هم من عصبة الأمير سلار . . . فرسم لهم السلطان بأن يتوجهوا إلى القدس . فعز ذلك على الأمير سلار » . ويظهر لنا أن رواية أبى المحاسن أقرب إلى الصحة .

(٥) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وكان الفضل فى خضوع الأمراء للناصر هذه المرة للشعب ، وهو عامل ظهر أثره بوضوح فى ذلك العهد ، مما سنبينه عند كلامنا على علاقة الناصر بشعبه .

إلا أن اخماد الفتنة التى تأججت نيرانها بين السلطان والأمراء لم يكن إلا كالهدوء الذى يسبق العاصفة ، فإن قلوب كل من الطرفين كانت قد تغيرت وأصبح إحلال الصفاء والوئام بينهما مستحيلا . ولكن الفتنة وإن كانت قد خمدت ظاهريا ، فانها لم تؤد إلى زوال ما يشكو منه الناصر من « استيلاء سلار وبيبرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالأمور وتجاوز الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى »(١) . و « عدم تصرفه فى الدولة من كل ما يريد حتى إنه لا يصل إلى ما تشتهى نفسه من المأكل لقلة المرتب »(٢) و « حتى أنه طلب خروفا رميساً بدرياً(٣) فمنع من ذلك »(٤) .

لم يجد الناصر بازاء تحكم سلار وبيبرس الجاشنكير فى أمور الدولة وأمام هذا الاضطراب القائم فى مصر بدا من الرحيل عنها مختاراً قبل أن يضطره أعداؤه إلى مغادرتها بل ربما تمنى ذلك فلم يتمكن منه وقضى عليه . فتظاهر بالسفر للحج وغادر مصر(٥) .

سار الناصر إلى الكرك فوصل إليها فى ١٠ شوال سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) بمن معه من الأمراء والمماليك . وعندما استقر بها أبلغ الأمراء أنه قد عدل عن الحج واختار الاقامة بالكرك كما كان أولا حين أخرجه إليها السلطان لاجين (٦٩٦ هـ) وترك السلطنة . واستدعى القاضى علاء الدين علىّ بن أحمد بن سعيد بن الأثير ، وكان قد توجه معه وأمر أن يكتتب للامراء يعرفهم ما استقر عليه رأيه من ترك السلطنة واقامته بالكرك (٦) . ثم أعطى الناصر الكتاب للامراء وأمرهم بالعودة إلى الديار المصرية . وهاك نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

حرس الله تعالى نعمة الجنا بين العالمين الكبيرين الغازيين المجاهدين وفقهما الله تعالى توفيق

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ص ٥٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٥ .

(٣) الرميس : هو ولد الضأن الصغير . والبدرى : أكبر من الرميس بقليل وسنه حوالى السنة .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٩ .

(٥) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٦٧ — ٦٦٩ .

Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٥٣ — ٥٤ .

(٦) يظهر أن الناصر محمد كان يفضل الإقامة بالكرك فى كل مرة يرحل فيها عن مصر : لأنها من أملاكه ، ولأنها مكان حصين يجد فيه الراحة والهدوء كما يفهم من كتابه إلى مماليكه بمصر ، ثم انه يستطيع أن يعتزل فيه ويعتصم من شر نائب السلطنة .

العارفين . أما بعد فقد طلعت إلى الكرك[١] وهى من بعض قلاعى ومماليكى ، وقد عولت على الاقامة فيها . فان كنتم مماليكى ومماليك أبى فأطيعوا نائبى[٢] ولا تخالفوه فى أمر من الأمور ولا تعملوا شيئا حتى تشاورونى . فأنا ما أريد لكم إلا الخير وما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لى وأقل كلفة وان كنتم تسمعون منى فأنا متوكل على الله والسلام » [٣] .

تشاور الأمراء بعد وصول كتاب الناصر إليهم . فاستقر رأيهم على أن يبعثوا اليه بكتاب يدعونه فيه إلى الحضور إلى مصر هو ومماليكه وإلا خلعوه من العرش وحرموه الاقامة فى الكرك . وها هو نص هذا الكتاب :

« ما علمنا ما عولت عليه وطلوعك إلى قلعة الكرك وإخراج أهلها[٤] . وتشييعك نائبها[٥] . وهذا أمل بعيد نخل عنك شغل الصبى وقم واحضر الينا وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك وتندم ولا ينفعك الندم فياليت لو علمنا ما كان وقع فى خاطرك وما عولت عليه[٦] . غير أن لكل ملك انصرام ولانقضاء الدولة أحكام ولحلول الأقدار سهام . ولأجل

---

(١) لما وصل سلار وبيبرس إلى مسألة « طلوع السلطان إلى قلعة الكرك » كما ورد فى كتابه إليهما سألا الأمير جمال الدين الأقوش الأفرم نائب الكرك ورسول الناصر إليهما : من أمرك بتمكين السلطان من الطلوع إلى القلعة ؟ فقال : كتابكم وصل إلى يأمرنى أن أنزل إليه وأطلعه إلى القلعة . فقالا : وأين الكتاب ؟ فأخرجه . فقالا هذا غير الكتاب الذى كتبناه فاطلبوا الطنبغا فطلبوه فوجدوه قد هرب عند السلطان فمكثوا (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٩) . ويظهر لنا من هذه الرواية أن الناصر لم يكن ليتمكن من الوصول إلى الكرك لولا أنه أظهر أنه يريد الحج ثم دبر أمر دخوله الكرك بالكتاب الذى لم يعلم أمره إلا حين وصل نائب الكرك نفسه إلى مصر .

(٢) يقصد سلار نائب السلطنة فى مصر .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٧٩ .

(٤) روى أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ١٧٨) حادثة إخراج الناصر لأهل الكرك على النحو الآتى وهى حادثة لا تخلو من طرافة . قال : « بعد ثلاثة أيام [من وصول الناصر إلى الكرك] نادى السلطان [الناصر] بالقلعة والكرك : لا يبقى هنا أحد لا كبير ولا صغير حتى يخرج فيجيب ثلاثة أحجار من خارج البلد ، فخرج كل من بالقلعة والبلد . ثم أن السلطان أغلق باب الكرك ورجعت الناس ومعهم الأحجار فرأوا الباب مغلقا فقيل لهم : كل من له أولاد أو حريم يخرج إليه فخرج الناس بمتاعهم وأولادهم وأموالهم وما أمسى المساء وبقى فى الكرك أحد من أهلها غيره ومماليكه » . ثم علل أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ١٧٩) الدافع الذى جعل الناصر يفكر فى إخراج الأهالى من الكرك فقال : « أما إخراج السلطان أهل قلعة الكرك منها لأنه قال : أنا أعلم كيف باعوا الملك السعيد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس بالمال لطرنطاى فلا يجاورونى » .

(٥) يقصد الأمراء بقولهم : « تشييعك نائبها » ما قام به الناصر من صرف الأمير جمال الدين أقوش عن نيابة الكرك عقب وصوله إليها .

(٦) المقصود من هذه العبارة غامض : فاما أنهم يقصدون أنهم كانوا — إذا علموا ما اعتزمه — يمنعونه من الرحيل من مصر والتضييق عليه أو يحولون بينه وبين الوصول إلى الكرك أو يعملون على الغدر به .

هذا أمرك غيك بالتطويل وحسّن لك زخرف الأقاويل ، فالله الله حال وقوفك على هذا الكتاب يكون حضورك بنفسك ومعك مماليكك والا تعلم انا ما نخليك فى الكرك ولو كثر شاكروك[١] ويخرج الملك من يدك والسلام » [٢] .

فلما قرأ الناصر هذا الكتاب قال : « لا إله إلا الله كيف أظهروا ما فى صدورهم » . ثم أعطى علم الدين سنجر البرواني رسول الأمراء اليه كل ما كان قد أخذه من مصر من الأموال والهجن والأدوات وقال له : « قل لسلار : ما أخذت منكم شيئا من بيت المال ، وهذا الذى أخذته قد سيرته إليكم ، وانظروا فى حالكم ، فأنا ما بقيت أعمل سلطانا وأنتم على هذه الصورة . فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره » [٣]. وهذا الكتاب الذى بعث به الناصر إلى أمراء مصر يدلنا دلالة واضحة على حالة الضعف التى سادت مصر إذ ذاك ومبلغ الظلم الذى أصابها وسوء نظام الحكم فيها .

لما تسلم سلار وبيبرس كتاب الناصر محمد اليهما قالا : ولو كان هذا الصبى يجىء ما بقى يفلح ولا يصلح للسلطنة وأى وقت عاد لا نأمن غدره »[٤]. وعقب ذلك تشاور سلار وبيبرس مع الامراء . فرأى الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار [٥] الكتابة إلى الناصر ورجائه فى العودة إلى ملكه . فلم يقبلا منه هذا الرأى لأنه « متى حصل التردد والمراجعة والتقليد والمفاوضة نخشى من اضطراب الأمور وعبث الجهور ونفاق العربان وثورة أهل العصيان[٦]». فاستقر رأى الأمراء على أن يعهدوا بالملك إلى الأمير سلار نائب السلطنة . على أن هذا خشى سوء العاقبة وخاف أن يحلّ به ما حل بكل من كتبغا ولاچين . فاعتذر عن قبول السلطنة[٧].

وقد أوضح أبو المحاسن الظروف التى دعت سلار إلى الامتناع عن السلطنة فقال: « وأعيد الكلام فيمن يصلح للسلطنة من الأمراء [بعد خروج الناصر إلى الكرك] فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سلار ، فقال سلار : نعم ! على شرط كل ما أشير به لا تخالفوه . وأحضر المصحف وحلفهم على موافقته وألا يخالفوه فى شىء . فقلق البرجية من ذلك ولم يبق إلا إقامتهم الفتنة فكفهم الله عن ذلك وانقضى الحلف . فعند ذلك قال الأمير سلار : والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا — وأشار إلى بيبرس الجاشنكير — ونهض قائماً إليه فتسارع البرجية بأجمعهم : صدق الأمير سلار وأخذوا بيد الأمير بيبرس

---

(١) يقصدون حب الشعب له .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٠ .
(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ١٨١ .
(٤) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٨١ .
(٥) صاحب مخطوط « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » .
(٦) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٧ .
(٧) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٤ .

وأقاموه كرها وصاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه »[١] .

بذلك وقع اختيار الأمراء على الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وبويع له بعد أن عرض كتاب السلطان الناصر محمد — الذى يقول فيه إنه خلع نفسه من الملك — على قضاة مصر . فاستقر على العرش فى ٢٣ شوال سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ولقب بالمظفر (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م) وعين الأمير سلار نائبا له[٢] . وباقامة بيبرس الجاشنكير[٣] — المعروف فى تاريخ دولة المماليك باسم بيبرس الثانى — سلطاناً على مصر تنتهى سلطنة الناصر الثانية التى استمرت نحو عشر سنين ونصف سنة ، ويظهر الاغتصاب الثانى أثناء عصر الناصر .

الاغتصاب الثانى فى عصر الناصر محمد : السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م).

على أثر جلوس بيبرس الجاشنكير على عرش مصر كتب إلى الناصر تقليدا بمنحة الكرك ظناً منه بأنه قد يكتفى بهذه المنحة ولا يفكر فى العودة إلى ملكه ، ويكون مصيره كمصير كتبغا بعد أن منحه لاجين ولاية صرخد .

ولكن الظروف التى أحاطت بكتبغا تختلف كل الاختلاف عن ظروف الناصر بعد رحيله الى الكرك : فان أمراء الشام لم يلتفوا حول كتبغا لتعضيده فى رجوعه إلى عرشه ، بل سرعان ما انفضوا من حوله حين اتصل بهم خبر اعتلاء لاجين العرش . كذلك أمراء مصر وأهلها لم يهتموا باعادة كتبغا لأنه كان قد أساء معاملتهم من جهة ولأن كلا من كتبغا ولاجين كانا فى نظرهم مغتصبين للعرش ولا فارق بين هذا وذاك لتكون له أفضلية للسلطنة . أما الناصر فان

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٣٤ . واستطرد أبو المحاسن فى الكلام (نفس الجزء ص ٢٣٥) فبين لنا ما كان ينويه البرجية — الذين كان ينتمى إليهم بيبرس الجاشنكير — إذا استمر سلار فى السلطنة فقال : « وبات البرجية فى قلق خوفا من ولاية سلار ، وسعى بعضهم إلى بعض وكانوا أكثر جمعا من أصحاب سلار وأعدوا السلاح وتأهبوا للحرب . فبلغ ذلك سلار فخشى سوء العاقبة واستدعى الأمراء وإخوته وحفدته ومن ينتمى إليه وقرر معهم سرا موافقته على ما يشير به . . . ووقع ما حكيناه من عدم قبوله السلطنة وقبول بيبرس الجاشنكير هذا » .

(٢) كما رفض سلار العرش ، رفض كذلك فى بادىء الأمر نيابة السلطنة عند ما عرضها عليه السلطان بيبرس الجاشنكير . يقول أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ٢٣٥) : « وخلع على الأمير سلار خلعة النيابة على عادته بعد ما استعفى وطلب أن يكون من جملة الأمراء وألح فى ذلك حتى قال له الملك المظفر بيبرس : إن لم تكن أنت نائبا ، فلا أعمل أنا السلطنة أبدا . فقامت الأمراء على سلار إلى أن قبل » .

(٣) ينتمى بيبرس هذا إلى طائفة المماليك البرجية الذين جاء بهم قلاوون من القوقاز وأسكنهم أبراج قلعة الجبل . وظل يترقى فى حياة أستاذه قلاوون حتى صار من كبار الأمراء فى عهد ابنه خليل . أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٢ .

كبار أمراء الشام ومصر والشعب المصرى ، كل أولئك وقفوا فى صفه ضد بيبرس الجاشنكير تأييداً لبيت قلاوون وفرارا من الفوضى ودسائس الأمراء والمنافسات بينهم .

وتفصيل ذلك كله أنه لما وصلت الأخبار بسلطنة الجاشنكير امتنع الأمير بيبرس العلائى والأمير بهادُر آص والأمير آقجبا الظاهرى والأمير بكتمر الحاجب أولا عن الحلف لبيبرس الجاشنكير . ولكن الأفرم نائب دمشق استدعاهم وقال لهم : «اعلموا أن هذا أمر انقضى ولم يبق لنا ولا لغيرنا فيه مجال . وأنتم تعلمون أن كل من يجلس على كرسى مصر كان هو السلطان ولو كان عبداً حبشياً(١) . فأأنتم بأعظم من أمراء مصر ، وربما يبلغ هذا اليه فينفرقلبه عليكم»(٢). ولم يزل يتلاطف بهم حتى حلفوا له . ولم يكن كلام الأفرم لهؤلاء سوى وسيلة لتبرير اغتصاب عرش الناصر الوراثى . ولو أن ما قاله كان قاعدة مطردة لنظام الحكم فى عصر المماليك لما سهل أمر تغيير السلطان ولما ظهر الاغتصاب بين حين وآخر . وهذه العباره التى جاءت على لسان الأفرم لهؤلاء الأمراء تدلنا على أنهم قد حلفوا بعد أن جاهد الأفرم فى سبيل ذلك ، وأنه استعمل للوصول إلى غرضه كثيرا من طرق الوعد والوعيد والتمنى والتهديد .

أما قراسنقر نائب حلب ، وقبجق نائب حماه ، وأسندمر نائب طرابلس — وهم كبار أمراء الشام — فلم ينجح معهم الأفرم كما نجح مع الأمراء الأربعة السابقين . ومن أقوالهم للرسولين الذين أوفدهما اليهم نتبين أنهم كانوا ثابتين على ولائهم لبيت قلاوون ، لا يرضون عن ابنه الناصر بديلا مما أقض مضجع بيبرس ونغص عليه حياته وجعله يعتقد أن عرشه قريب الزوال .

ذلك أنه لما وصل الرسولان إلى قبجق بحماه قال لهما — بعد أن قرأ كتاب الأفرم إليه — « أين كتاب الملك الناصر ؟ »(٣) فسلماه إليه . فلما قرأه قال : من قال إن هذا خط الملك الناصر ؟(٤) . والله واحد يكون وكيلا فى قرية ما يعزل نفسه منها بطيبة خاطره »(٥). وقال اسندمر نائب حلب للرسولين عند ما دخلا عليه : « يا إخواتى ! أنا على ايمان ابن أستاذنا(٦)

---

(١) يذكر ذلك بما حدث عقب انتهاء عهد الخلفاء الراشدين وقيام خلفاء لم يحكموا بالشرع أو رضاء الأمة ووجدوا مع ذلك من يبرر استمرار هذه الحالة بذكر أحاديث نسبوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، تحض الناس على طاعة الخليفة والخضوع لحكمه مهما كان . ومن بين هذه الأحاديث : « أطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى » .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٣٦ .

(٣) يقصد الكتاب الذى أرسله إلى سلار وبيبرس بنزوله عن الملك .

(٤) لم يكن الكتاب الذى بعثه الناصر إلى أمراء مصر بخطه بل كان بخط القاضى علاء الدين على ابن أحمد بن سعيد بن الأثير بأمر الناصر . لذلك عرف الأمير قبجق من أول وهلة أن خط الكتاب ليس خط الناصر .

(٥) يقصد أن الناصر لا بد أن يكون قد أكره على نزوله عن العرش على نحو ما كان متبعاً إذ ذاك وإن ذلك لم يتم برضاه .

(٦) يقصد الناصر محمد ابن أستاذه قلاوون .

لا نخونه ولا نحلف لغيره ونواطىء عليه ولا نفسد ملكه فكيف نحلف لغيره ! والله لا يكون هذا أبدا ودعوا يجرى ما يجرى » . وقال لهما استدمر نائب طرابلس مثل هذا الكلام(١). فلما وصل الرسولان إلى مصر ، وأبلغا السلطان بيبرس الجاشنكير ما كان من أمر هؤلاء النواب استشاط غضبا وازداد حنقا .

ولم يقف تأييد هؤلاء الأمراء الثلاثة للناصر عند حد عدم تأييدهم سلطنة بيبرس بل أنهم تقدموا خطوة أخرى واجتمعوا مع بعضهم فى حلب . واستقر الرأى بينهم على مكاتبة الناصر يستأذنونه فى القدوم عليه بالكرك « وحينئذ نركب معه فاما أن نأخذ له الملك وإما أن نموت على خيولنا » . وسار محمد بن قراسنقر بكتبهم التى تتضمن لوم الناصر على نزوله عن الملك دون مشاورتهم وسؤاله عن كيفية وقوع الحادث ووعده بإعادة ملكه إليه عما قريب ، وأنهم لم يؤيدوا تولية بيبرس عرش مصر . فلما وصل ابن قراسنقر إلى الكرك سلم الناصر الكتب فقرأها(٢) ورد عليها بخطاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! حرس الله تعالى المقر العالى الأبوى الشمسى ، ومتعنا بطول حياته . فقد علمنا ما أشار به وما عول عليه ، وقد علمنا قديماً وحديثاً أنه لم يزل على هذه الصورة . وأريد منك أنك تطوّل روحك علىّ ، فهذا الأمر ما ينال بالعجلة لأنك قد علمت انتظام أمراء مصر والشام فى سلك واحد ، ولا سيما الأفرم ومن معه من اللثام ، فهذه عقدة لا تنحل إلا بالصبر ، وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر وطلب منك اليمين له ، فقدم النية انك مجبور ومغصوب واحلف . ولا تقطع كتبك عنى فى كل وقت ، وعرفنى بجميع ما يجرى من الأمور قليلها وكثيرها »(٣).

وقد دل هذا الكتاب على بعد نظر الناصر : فهو من جهة يرغب فى انتهاز الفرصة لاعادة عرشه ، ولكنه من جهة أخرى يرى أن الوقت الذى وصل فيه كتابهم غير ملائم للقيام بحركة معادية لبيبرس ، إذ لم تكن قد مضت على توليه حكم مصر غير فترة يسيرة . ولذلك أوصاهم «بالصبر» حتى تتحرج أمامه الأمور وتتعقد المسائل وتكثر المشاكل ويظهر بوضوح استياء الطبقات الساخطة وحينئذ يسهل القضاء عليه .

وكان المظفر حين اتصل بمسامعه نبأ اتفاق قراسنقر مع كل من قبجق واسندمر عليه ارسل تقليداً بنيابة حلب لقراسنقر رغبة منه فى ضمه إلى جانبه والعمل على تأييده وذلك

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٣٨ .
(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٤١ .
(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٤١ — ٢٤٢

عملا بمشورة سلار[١] فقال :

« من المظفر إلى قراسنقر !

انت خشداشي ولو علمت ان هذا الأمر يصعب عليك ما عملت شيئاً حتى ارسلت إليك واعلمتك به لأن ما فى المنصورية أحداً كبر منك . غير أنه لما نزل ابن استاذنا عن الملك اجتمع الأمراء والقضاة وكافة الناس وقالوا : ما لنا سلطان وأنت تعلم أن البلاد لا تكون بلا سلطان ، فلو لم أتقدم أنا كان غيرى يتقدم وقد وقع ذلك ! فاجعلنى واحداً منكم[٢] ودبرنى برأيك . وهذه حلب وبلادها دَربست[٣] لك ، وكذا لخشداشيتك : الأمير قبجق والأمير اسندمر » [٤] .

ومن هذا نتبين مدى ما ذهب إليه السلطان بيبرس لاسترضاء الأمراء واستجلاب ولائهم، حفظاً لكيان عرشه مما يدل على أن سلاطين المماليك كانوا يسعون لجلب رضاء الأمراء وأن من لم يفز منهم بذلك الرضا كان مصيره العزل أو القتل إن لم يكن منبع الجانب وافر الأتباع . وبعد وصول هذا التقليد حلف[٥] كل من قراسنقر وقبجق واسندمر للملك المظفر ، وسر السلطان غاية السرور وقال : « الآن تم لى الملك »[٦].

لم يكف حلف أمراء الشام لبيبرس . والظاهر أن حلفهم له كان على الطريقة التى دلهم عليها الناصر فى كتابه إليهم ، بدليل ما قاموا به من المساعدات الجليلة للناصر فى سبيل إعادته إلى

---

(١) لما وصلت الرسل إلى مصر وأبلغت بيبرس الجاشنكير رفض قراسنقر وقبجق واسندمر تأييده « ضاق صدر المظفر وأرسل خلف الأمير سلار النائب وقص عليه القصة . فقال له سلار : هذا أمر هين ونقدر أن نصلح هؤلاء . فقال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال : تكتب إلى قراسنقر كتابا وترفق له فى الكلام وأرسل إليه تقليدا بنيابة حلب وبلادها وأنه لا يحمل منه الدرهم الفرد . وكذا لقبجق بحماه ولا سندمر بطراباس والسواحل . فقال بيبرس : إذا فرقت البلاد عليهم ما يساوى ملكى شيئا ! فقال له سلار : وكم من يد تقبل وهى تستحق القطع ! فاسمع منى وارضهم فى هذا الوقت . فاذا قدرت عليهم بعد ذلك افعل بهم ما شئت . فمال المظفر إلى كلامه ». أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) هذه العبارة يقولها السلاطين للأمراء عادة فى بدء توليتهم حتى يحصلوا على تأييدهم ويضمنوا عدم معارضتهم . قارن قول بيبرس الجاشنكير هنا : « فاجعلنى واحدا منكم ودبرنى برأيك » بما قاله لاچين للأمراء عقب فراره كتبغا : « أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم » .

(٣) التخوم والحدود .

(٤) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٤٢ .

(٥) ينبغى أن نذكر فيما يختص بحلف هؤلاء الأمراء لسلطنة بيبرس ما قاله الناصر لهم فى خطابه إليهم : « وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر وطلب منك اليمين له فقدم النية أنك مجبور ومغصوب واحلف » .

(٦) نستدل من هذه العبارة التى أوردها أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ٢٤٢) على عظم الأهمية التى كان يعلقها بيبرس على ضمان ولاء هؤلاء الأمراء له .

عرشه . كما ان بعض أمراء مصر وكثيراً من أهلها كانوا يكاتبون الملك الناصر طوال مدة إقامته بالكرك ثم رحل جماعة من المماليك الناصرية من مصر إلى الكرك تاركين أولادهم وبيوتهم (١) . فلما اتصل بعلم بيبرس أن الناصر يتصل بأمراء الشام ومصر أرسل إليه كتاباً يهدده فيه ويتوعده إذا لم يكف عن الاتصال بالأمراء « وإلا جرى عليك ما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم إلى القسطنطينية (٢) » .

فلما تسلم الناصر هذه الرساله اشتد غضبه وصمم على أن يبدأ دور العمل الجدى الذى أرجأ تنفيذ القيام به كما ورد فى مكاتباته إلى نواب حلب وطرابلس وحماة . وأول ما بدأ به أن أرسل إلى هؤلاء النواب كتاباً جاء فيه :

« لما اشتد علىّ الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر وتركت لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من النكد . فما تراجعوا عنى وأرسل المظفر يهددنى بالنفى إلى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال . فإما أن تكفوا عنى أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون علىّ وإما انى أتوجه إلى بعض بلاد التتار وألتجىء إليهم قبل ما يرسلنى الملك المظفر إلى الكفار » (٣).

وقد دل ما جاء بهذا الكتاب على منتهى الحكمة والتعقل وعلى أن الناصر كان يعرف كيف يختار الوقت المناسب للعمل . فهو فى رسالته الأولى إليهم — رداً على كتبهم التى ارسلوها إليه — لم ير الفرصة ملائمة للتحرك ضد بيبرس . أما الآن فانه رأى نفسه أمام تهديد صريح من بيبرس ، ليس فقط بالقضاء على ملكه بصفة نهائية بل بطرده خارج الكرك . وكأن المظفر بيبرس أراد أن يوضح للناصر أن تقرير نفيه وتنفيذ ذلك ليس من الصعوبة فى شىء ، فان قلاوون أبا الناصر قد سبقه إلى ذلك حين اتخذ مثل هذه الخطوة إزاء ابنى الظاهر بيبرس : بركة خان وسلامش .

وقد أثرت رسالة الناصر فى نواب الشام الموالين له أيما تأثير وكأنهم كانوا رهن اشارة منه كى يقوموا لمعاضدته وتأييده وأعادته إلى ملكه . فقد ردوا عليه — على أثر وصول رسالته إليهم — أنهم « طوع يده ومماليك أبيه متى أراد أن يتحرك للتوجه إلى الديار المصرية » (٤) وبدأ الناصر منذ ذلك الحين يعد العدة للرحيل إلى مصر . واتصل بمسامع أهلها خبر تأهب

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥١ .

(٣) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥١ .

Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٤) Zetterstéen : نفس المصدر ص ١٤١ .

الناصر للرحيل إليها فعبروا عن سرورهم واغتباطهم باقامة المظاهرات فى وجه بيبرس الجاشنكير وحاصروه فى القلعة . واشتد الحال على بيبرس حين علم أن اسم الناصر محمد قد ذكر فى خطبة الجمعة على منابر دمشق .

وكان من المعقول بعد ذلك أن ينزل بيبرس الجاشنكير عن العرش . غير أنه لم يرض بهذه الخاتمة بل حاول أن ينقذ موقفه بخطوة جريئة فى سبيل تأييد ملكه . وقد ظن أنها خطوة موفقة ولكنها لم تؤد إلا إلى عكس ما كان يرجوه . وذلك أنه عمد فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) إلى تجديد البيعة وأخذ العهود والمواثيق على الأمراء والحكام بمعونة الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان . وفيها حث الناس على طاعة بيبرس وتأييد ملكه . ويقول صاحب تاريخ سلاطين المماليك : « فاجتمع الأمراء والناس بالقصر ، وأحضروا القضاة وجددوا الايمان للملك المظفر بيبرس الجاشنكير وأنهم باقون على طاعته ونادوا فى البلد : سلطانكم الملك المظفر وطيبوا قلوبكم ومن تكلم فيما لا يعنيه قتل » (١) . وهاك نص هذا العهد الذى منحه الخليفة للملك المظفر بيبرس الجاشنكير ننقله عن أبى المحاسن :

« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم وانى رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الله بيبرس نائبا عنى لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وأقمته مقام نفسى لدينه وكفايته وأهليته ورضيته للمؤمنين وعزلت من كان قبله بعد علمى بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعينا على وحكمت بذلك الحكام الأربعة . واعلموا رحمكم الله أن الملك مقيم وليس بالوارثة لأحد خالف عن سالف ولا كابر عن كابر . وقد استخرت الله تعالى ووليت عليكم الملك المظفر فمن أطاعه فقد أطاعنى ومن عصاه فقد عصانى ، ومن عصانى فقد عصى ابا القاسم ابن عمى صلى الله عليه وسلم . وبلغنى أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصا على المسلمين وفرق كلمتهم وأطمع عدوهم فيهم ، وعرّض البلاد الشامية والمصرية إلى سبى الحريم والأولاد وسفك الدماء فتلك دماء قد صانها الله تعالى من ذلك وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمر على ذلك . . . . » (٢)

وأمر الخطباء بقراءة هذا العهد بالمساجد يوم الجمعة فرفض العامة الاستماع اليه . وبطلت قراءة الخطبة (٣) . لذلك فانه فى ١٦ رمضان سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) لم يجد الأمير سلار نائب السلطنة بدا من اطلاع السلطان بيبرس على حقيقة الحال لكى يتبصر فى أمره ويتخذ سبيل الحيطة . فقال له : « يامولانا السلطان ! إن غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٣ .

(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٢ القسم الأول ص ١٥٢

القاهرة وتوجهوا إلى الملك الناصر بالكرك وقد وقع الاختيار على عوده . ومن الرأى أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله فى مكان تتوجه إليه أنت وعيالك(١)، فلعله أن يجيبك الى ذلك ، وان لم تبادر إلى هذا وإلا دهمتك العساكر وهجموا علينا وأنت هنا »(٢) . فاستمع بيبرس لنصح سلار وكتب إلى الناصر يستعطفه أن يمنحه الإقامة فى الكرك او صهيون أو حماة . وعلى أثر ذلك اعلن انه خلع نفسه من السلطنة بحضور قضاة مصر الأربعة بعد ان استولى على ما فى خزائن مصر من الأموال وفر هارباً ومعه مماليكه ، واتصل خبر هربه بالعامة(٣)« فأدركوه وهو خارج من القلعة وتبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة »(٤) . وعقب ذلك خطب باسم الملك الناصر على منابر مصر . كل ذلك قبل أن يتحرك الناصر من منفاه بالكرك الى مصر (٥) .

سلطنة الناصر الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ = ١٣٠٩ — ١٣٤٠ م) :

سار السلطان الناصر بمن معه من الأمراء والمماليك من الكرك فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ووصل الى قلعة الجبل وصعد إليها واستقر على سرير ملكه فى ٢ شوال سنة ٧٠٩ هـ وبدأت بذلك سلطنته الثالثه . ويعتبر المؤرخ أبو الفداء شاهد عيان لرحلة الناصر محمد من الكرك حتى وصل إلى القاهرة إذ أنه رافق الناصر فى رحلته حتى دخل القاهرة ولم يعد إلى

---

(١) يظهر أن سؤال السلطان الجديد مكاناً يقيم فيه السلطان المعزول قد صار عادة لدى سلاطين المماليك ، وذلك على الأخص منذ أيام العادل كتبغا .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) من أظهر الأدلة على شدة كره العامة للسلطان بيبرس الجاشنكير ما رواه ابن إياس (نفس المصدر والجزء ص ١٤٩)من أن النيل لما توقف فى عهده عن الزيادة سنة ٧٠٩ هـ كان العامة يتغنون بما يأتى :

سلطاننا ركين ونائبو دقين يجينا الماء من أين

هاتوا لنا الأعرج يجيء الماء يدحرج

والمقصود من ركين : ركن الدين بيبرس الجاشنكير . ومن دقين : الأمير سلار ، لأن لحيته كان عليها بعض الشعر . ومن الأعرج : الناصر محمد فقد كان به بعض العرج .

(٤) العينى : عقد الجمان ج ٢٢ القسم الأول ص١٦٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ ص٢٧١ .

(٥) من الأبيات التى نظمها شهاب الدين أحمد بن عبد الدايم الشارمساحى يتضح لنا بأجلى بيان مبلغ كره العامة لسلطنة بيبرس الجاشنكير :

ولى المظفر لما فاته الظفر وناصر الحق وافى وهو منتصر

وقد طوى الله من بين الورى فتنا كادت على عصبة الاسلام تنتشر

فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه أثواب عارية فى طولها قصر

لما تولى تولى الخير عن أمم لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا

وكيف تمشى به الأموال فى زمن لا النيل أوفى ولا وفاهم مطر

(السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٦) .

الشام الا بعد أن جلس على العرش[١] . يقول هذا المؤرخ يصف رحلة الناصر إلى مصر :

«سار السلطان بمن معه من الكرك فى جمادى الآخرة من هذه السنة [٧٠٩هـ] ... ولما تحقق صدق طاعة العسكر الشامية له وبقاؤهم على طاعته ومحبته [٢] عاود المسير إلى دمشق ، وخرجت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه ... ووصل إلى دمشق[٣] ... ووصل قبجق واسندمر ومن معهما من العساكر إلى خدمة السلطان بدمشق ... ثم وصل قراسنقر إلى دمشق بعسكر حلب وكان قد وصل قبل ذلك سيف الدين بكتمر من صفد ولما تكاملت للسلطان عساكر الشام أمرهم بالتجهيز للمسير إلى ديار مصر ... وسارت العساكر فى خدمة السلطان ووصلنا إلى غزة ... ثم تتابعت الأطلاب وكان يلتقى بالسلطان فى كل يوم وهو سائر طلب بعد طلب من الأمراء والمماليك والأجناد ويقبّلون الأرض ويسيرون صحبة الركاب الشريف ... وأتم السلطان السير وهرب الجاشنكير من قلعة الجبل إلى جهة الصعيد وخرج سلار إلى طاعة السلطان ... ووصل إلى قلعة الجبل وصعد اليها[٤]» . وكان وصوله اليها إيذاناً ببدء سلطنته الثالثة .

---

(١) يقول أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦) : « وسرت أنا بمن معى من عسكر حماه ، ودخلنا حماه يوم ١٣ رجب سنة ٧٠٩ هـ» . ثم يقول (ص ٥٧) « وقدمت تقدمتى [فى دمشق] ومن جملتها مملوكى طقزتمر ، فحصل من السلطان القبول والصدقة والمواعيد الصادقة بالتصدق علىّ بحماه ، على عادة أهلى وأقاربى » . ويقول (ص ٥٨) « وتصدق على [وهو فى مصر] وطيب خاطرى بأنه لا بد من إنجاز ما وعدنى به من ملك حماه وإنما أخر ذلك لما بين يديه من المهمات والأشغال المعوقة عن ذلك . فسرنا مع قبجق من مصر متوجهين إلى الشام ووصلنا حماه فى ١٥ زى القعدة من هذه السنة » .

(٢) كان الأفرم [نائب دمشق] قد سير رسولا إلى الناصر وهو فى طريقه إلى دمشق ، بقصد تشكيكه فى إخلاص جند الشام له . وبذلك يبطل مشروع توجه الناصر إلى مصر بمعونة هؤلاء الجند . وبالفعل صدقه الناصر وتوقف عن المسير وعاد إلى الكرك . ولكنه ما لبث أن تكشف له وجه الحق وتبين أنها دسيسة دبرها الأفرم وتأكد من إخلاص جند الشام فعاود المسير إلى دمشق .

(٣) عند وصول الناصر إلى دمشق هرب الأفرم نائب السلطنة بها لأنه كان ضالعا مع السلطان بيبرس الجاشنكير .

(٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨ .

عقب وصول الناصر إلى قلعة الجبل أنشد الشعراء مدائحهم بين يديه ومنها يتبين مبلغ حب الشعب له وتفانيهم فى الاخلاص لملكه . قال البدر محمد البزاز المنجى قصيدة يجمل فيها ما مر به الناصر من الشدائد أثناء سلطنته ويحيى عودته :

نشأت فى حجر هذا الملك مرتفعا ... تدبه غير مفطوم من الصغر
وحين آل إليك الملك وامتثلت ... منه المراسيم فى ورد وفى صدر
أعرضت عنه لأسباب علمت بها ... وخبر شهرتها يغنى عن الخبر
وعدت ثانية يقظان محترسا ... وبت من كيد من يخشى على حذر
وهذه العودة الغراء ثالثة ... يقضى لك الحق فى أيامك الأخر

كان أول ما فعله الناصر عقب تسلمه زمام الملك أن أمر بالقبض على بيبرس الجاشنكير ، فقبض عليه بالقرب من غزة حيث كان يحاول الهرب ومعه عدد من مماليكه . ولما مثل بيبرس بين يدى السلطان الناصر عنفه على ما فعل وعدد ذنوبه(١) . ثم أمر به فقتل فى ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٩ هـ . ثم قضى على سلار على الرغم من أنه كان قد منحه الشويك ولم ينس تأييده لبيبرس الجاشنكير فى الحجر عليه فى أثناء سلطنته الثانية .

***

وتعتبر سلطنة الناصر الثالثة الفترة التى حكم فيها بنفسه وتخلص من أعدائه وازداد تعلق الشعب به لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال .

حكم السلطان الناصر محمد مصر ثمان وأربعين سنة (٦٩٣ — ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ — ١٣٤٠م) . وتعتبر هذه الفترة بحق من أزهى عصور مصر . فقد كانت القاهرة فى عهده حاضرة لامبراطورية شاسعة متحدة امتد سلطانها من بلاد برقة غرباً إلى ساحل البحر الأحمر شرقاً ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوباً . ولا شك أن الناصر نجح إلى حد أبعد من أسلافه من سلاطين مصر الاسلامية فى تكوين تلك الامبراطورية . حقاً إن الفاطميين مدوا نفوذهم إلى بغداد إلا أن غرضهم الأول كان نشر المذهب الشيعى ، كما أن نفوذهم على تلك المساحة المترامية الأطراف لم يدم إلا فترة قصيرة جداً ، أما الأيوبيون فقد قسموا امبراطوريتهم إلى ممالك صغيرة متنافسة ومتفرقة الكلمة .

وبسطت امبراطورية الناصر نفوذها على بلاد اليمن والحجاز ، وخطب ودها ملوك أوربا وآسيا عن طريق إبرام المعاهدات والمصاهرة وإرسال الهدايا ، وفى ذلك يقول ابن إياس « وخطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك ، وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر فى قبضته » (٢) .

فارقت ملكك مختارا لفرقته ... بنية العود تسليما إلى القدر
وبعد ما سرت عن مصر وساكنها ... وغبت عنها وعنهم غيبة القمر
لاموك فى كل ما دبرت من حيل ... بليغة نسبوها منك بالضجر
إن غبت عن وطن كادت تغيره ... للبعد عنك وحشاه يد الغير
فالشمس أحسن ما تجلى إذا برزغت ... من بعد غيبتها ليلا على النظر

(العينى : عقد الجمان ج ٢٢ القسم الأول ص ١٧٠) .

(١) ذكر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧٤ — ٢٧٥) إن الناصر قال لبيبرس الجاشنكير : تذكر وقد صحت على يوم كذا بسبب فلان ! ورددت شفاعتى فى حق فلان ! واستدعيت بنفقة فى يوم كذا من الخزانة فمنعتها ! وطلبت فى يوم كذا حلوى بلوز وسكر فمنعتنى ، ويلك ... » وهذه الأمور ونظائرها توضح لنا ماذا كان ينغص على الناصر أثناء سلطنته الثانية .

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٣ .

وراجع ماسيأتى ذكره عند كلامنا على السياسة الخارجية .

وفى عهد الناصر محمد وقفت مصر فى وجه المغول وقضت على قوات غازان محمود ايلخان بلاد فارس ، وكان قد استولى على دمشق وعاث جنده فى بلاد الشام وفلسطين . فهزمته الجيوش المصرية هزيمة منكرة فى موقعة مرج الصفر القريبة من دمشق سنة ٧٠٢ (١٣٠٣ م) . وإن وقوف مصر فى وجه المغول الذين اجتاحوا الخلافة العباسية فى بغداد وثلوا عروش الممالك التى نازلوها فى الشرق والغرب حتى أصبحت أثراً بعد عين ، قد أكسب مصر مركزاً ممتازاً عند الأمم الشرقية والغربية التى تنافس ملوكها وأمراؤها فى التودد إلى السلطان الناصر محمد وغدت أنظار الملوك والأمراء تتجه للدفاع عنهم وصد أعدائهم . وحسب الناصر فضلا أنه نجح فى طرد بقية الصليبيين وفى مقاومة ثلاث غزوات مغولية (١) .

ويمتاز ذلك العصر بما حدث فيه من تطورات جوهرية فى نظم الحكم . وذلك بدون أن تستقر هذه النظم المملوكية استقراراً تاماً . فالواقع أن عصر الناصر رأى التمهيد لكثير من النظم التى استقرت فى دولة المماليك البرجية وإنما يرجع الفضل فى وضع أساسها إلى حكومة الناصر وتجارب الحكم فى عهده . والمعروف أن المماليك نقلوا عن العباسيين بعض الوظائف التى أخذوها من الفرس عن أبى جعفر المنصور وأخذوا بعضاً آخر من الفاطميين والأيوبيين . ولكن على الرغم من ذلك فان المماليك طبعوا بلاطهم بطابع خاص لم يكن موجوداً من قبل ، فزادوا فى عدد الوظائف واختصاص شاغليها وأحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والأبهة والجلال وأرضوا بذلك كثيراً من الرغبات المتطلعة إلى الوظائف والمراكز المختلفة فى الدولة وأضعفوا من حدة الأحقاد والمنافسات التى كانت تفلى مراجلها فى صدور الأمراء .

وبلغ النظام الادارى فى عصر الناصر مبلغاً عظيما من الدقة ، والتنسيق ، على الرغم من تعقده وتشعب أطرافه . وكان طبيعياً أن ترتفع قيمة بعض الوظائف وتنحط قيمة البعض الآخر ، كل بحسب قيمة الأمير الذى يتولى المنصب . كذلك نظمت دواوين الحكومة فى ذلك العصر وأحدث الناصر تطوراً جوهرياً فى النظام الادارى حين ألغى منصبى نائب السلطنة والوزير واستحدث وظيفة ناظر الخاص سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) .

أما موارد الدولة المالية فقد عنى الناصر بتوسيع نطاقها وجبايها من نواح عدة حتى يستطيع تنفيذ المشروعات الهامة النافعة لجميع مرافق البلاد وما تتطلبه من ضروب الاصلاح (٢) .

وصفوة القول إن الناصر حكم مدة طويلة وأتيح له أن يتولى العرش فى فترة لم تكن فيها نظم الحكم المملوكية قد استقرت بعد . فكان عصر الناصر بداية الاستقرار الذى تم على يد هذا العاهل الكبير وعلى يد من خلفوه من سلاطين المماليك البرجية .

---

(١) اقرأ ذلك مفصلا فى باب السياسة الخارجية .

(٢) اقرأ كل مايتعلق بنظم الحكم فى الأبواب التى أفردناها لذلك فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

منشآت الناصر :

غير أن نشاط الناصر لم يكن مقصوراً على الحروب والغزوات والعناية بأمر الحكومة ، بل اتجه إلى مختلف نواحى الحضارة المادية ومظاهرها داخل حدود مملكته . ونظراً لأنه كان متدينا يخاف الله على غير عادة أمراء المماليك ، نجد أن ذلك النشاط صبغ صبغة دينية كما يظهر ذلك من العمائر التى شيدها والتى ما زال بعضها قائماً يشهد له بالبر والتقوى كما يشهد لعصره بالبراعة فى الفنون والعمارة

وكان من أشهر المبانى التى شيدها « المدرسة الناصرية »[1] . والمسجد الذى بناه بالقلعة سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) ثم هدمة فى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥م) وأعاد بناءه من جديد لتوسيع جوانبه . ولما أتم السلطان الناصر بناءه فى تلك السنة : «جلس فيه — على ما يقول المقريزى — واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر وجميع القراء والخطباء وعرضوا بين يديه وسمع تأذينهم وخطابتهم وقراءتهم فاختار منهم عشرين مؤذناً رتبهم فيه ورتب فيه درس فقه وقارئاً يقرأ فى المصحف ، وجعل عليه أوقافاً تكفيه وتفيض . وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع إلى هذا الجامع ويحضر خاصة الأمراء معه من القصر ويجىء باقيهم من باب الجامع فيصلى معه الأمراء خاصتهم وعامتهم خارج المقصورة عن يمينها ويسرتها على مراتبهم . فاذا انقضت الصلاة دخل إلى قصوره ودور حرمه وتفرق كل أحد إلى مكانه »[2].

وفى سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) شرع السلطان الناصر محمد فى تجديد بناء « المارستان الكبير المنصورى[3] » الذى أسسه السلطان قلاوون فى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٧٤ م) . وكان سبب اقامته فى

---

(١) تقع هذه المدرسة بشارع المعز لدين الله (النحاسين) ، أنشئت على جزء من أرض القصر الصغير الفاطمى . بدأ فى انشائها السلطان كتبغا ، فقد وضع أساسها وأدخل فى عمارتها بابا رخاميا ، كان السلطان الأشرف خليل قد أحضره من احدى كنائس عكا عند فتحة لها سنة ٦٩٢ هـ (١٣٩٢ م) وارتفع بناؤها إلى الطراز المكتوب بواجهتها فى سنة ٦٩٥ هـ (١٣٩٥ م) ثم خُلع كتبغا من الملك قبل أن يتمها ولما عاد السلطان الناصر إلى عرشه للمرة الثانية اشترى هذه المدرسة وبنى قبة فكملت فى سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) وعين بها المدرسين للمذاهب الاربعة وألحق بها مكتبة حافله . ثم نقل الى القبة رفات والدته كما دفن بها ابنه انوك المتوفى فى ١٧ ربيع الاول سنة ٧٤١ هـ (١٣٤١ م) . راجع مجلة العمارة ، العدد ٧ — ٨ لسنة ١٩٤١ ص ٢٩١ — ٣٠٠ . وانظر Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 260—265 لمعرفة نشأة نظام المدارس عند السلاجقة والايوبيين ثم ازدهاره فى عصر المماليك لتأييد المذهب السنى .

(٢) الخطط جـ ٢ ص ٢١٢ .

راجع مجلة العمارة ، العدد ٧ — ٨ لسنة ١٩٤١ ص ٢٩٤ ، R. L. Devonshire : Rambles in Cairo, pp. 43—44.

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٠٦ . احمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص ٩٣ . راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I, p. 132 حيث تشهد الكتابات التاريخية الموجودة فيه بأن السلطان الناصر محمد جدد سنة (١٣٠٣ م) فى بناء مدرسة وقبة ومارستان قلاوون .

أول الأمر أن قلاوون لما ذهب لغزو الروم سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، أصابه وهو بدمشق مرض شديد ، فعالجه الأطباء بادوية أخذت من مارستان نور الدين محمود . ولما شفى قلاوون ذهب بنفسه لمشاهدة المارستان ونذر إن هو اعتلى عرش مصر أن يبنى مارستاناً مثله (١)

ومن مخلفات الناصر أيضا خانقاه (٢) سرياقوس ، من ضواحى القاهرة وكان سبب انشائها أن الناصر ركب كعادته للصيد ، وبينما هو فى الطريق انتابه ألم شديد كاد يقضى عليه ، فنزل عن فرسه ولكن الألم تزايد عليه فنذر ان عافاه الله ان يبنى فى هذا الموضع مكانا يتعبد الناس فيه لله تعالى . ولما عاد إلى قلعة الجبـــل وشفى من مرضه سار بنفسه الى الموضع الذى انتابه فيه المرض وصحب جماعة من المهندسين واختط هذه الخانقاه وكان ذلك فى سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣م) وجعل فيها — على ما يقول المقريزى — « مائة خلوة لمائة صوفى وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة وبنى بها حماماً ومطبخا . . فلما كانت سنة خمس وعشرين وسبعمائة كمل ما أراد من بنائها وخرج إليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانك ومدت هناك أسمطة عظيمة بداخل الخانقاه » (٣)

وليس أدل على عناية السلطان الناصر بالعمارة من أنه لما أراد سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٨ م) بناء رصيف فى بولاق جمع مهندسى القاهرة والأقاليم ومهندسين آخرين من دمشق وحلب وبلاد الجزيرة لدراسة المشروع (٤). وشيد الناصر محمد سبيلا ملحقاً بمدرسة وجامع السلطان قلاوون

---

(١) جاء وصف المارستان المنصورى فى خطط المقريزى (جـ ٢ ص ٤٠٦) فقال :

« هذا المارستان بين القصرين من القاهرة . وكان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ، ثم عرف بدار الأمير قمر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية وبدار موساك ، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين احمد بن الملك العادل أبى بكر وصار يقال لها الدار القطبية . ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى عن مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل المعروفة بالقبطية وعوضت عن ذلك قصر الزمرد برحبة باب العيد فى ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنين وثمانين وستمائة بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى مدبر الممالك ورسم بعمارتها مارستانا وقبة ومدرسة فتولى الشجاعى أمر العمارة وأظهر من الاهتمام والاحتفال مالم يسمع بمثله حتى تم الغرض فى أسرع مدة وهى أحد عشر شهراً وأيام » .

(٢) الخانقاه (أو خونقاه أو خونكاه) كلمة فارسية معناها بيت . وقد اتخذت فى مصر لايواء فقراء الصوفية القادمين من البلاد الشرقية . (المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤١٥) . وقد بلغ الصوفية أوج عزهم فى أيام صلاح الدين الأيوبى وخلفائه كما يشهد بذلك العدد الوافر من البيوت التى شيدت لهم والتى تعرف باسم الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة » (راجع « مصر والحضارة الاسلامية » للدكتور زكى محمد حسن ص ٢٧) .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٢٢

(٤) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Cairo p. 127.

واجهة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين

فى بداية القرن الثامن الهجرى ، وظهرت فى هذه المناسبة كلمة « سبيل » لأول مرة فى الكتابات التاريخية الأثرية (١) وكان تشييد العمائر دائما من الأموال الخاصة التى آلت الى السلاطين بطريق شرعى وأنهم كانوا لا يميلون الى إنفاق الأموال العامة فى هذا السبيل (٢) .

ويشرف « شد العمائر » على العمائر السلطانية وينظر فيما تحتاج إليه من إنشاء وتعمير القصور والمنازل والمساجد فى القاهرة وضواحيها . ويعاونه موظف يسمى « ناظر العمائر » يتولى شئون المهندسين والحجارين والصناع . ويختار شد العمائر من أمراء العشرات (٣)، ويشبه الآن كبير مهندسى السرايات الملكية .

وعلى الجملة فان من العمارة قد ازدهر فى عصر السلطان الناصر . كذلك تقدمت صناعة الفسيفساء وهى الموضوعات الزخرفية المؤلفة على الجدران أو السقوف أو الأرض وذلك بواسطة جمع أجزاء صغيرة متعددة الألوان من الحجر أو الزجاج يغلب أن تكون مكعبات دقيقة يثبت بعضها إلى جانب بعض فوق الأسمنت أو الجص . وقد انتشر استعمال الفسيفساء فى زخرفة العمائر .

ولا شك أن سلطنة الناصر حفلت بالمنشئات الجديدة ومنها الخوانك والمساجد والقناطر والجسور وجدد كثيراً منها . وقد اتفق المؤرخون على أن الناصر محمدا كان من أعظم الملوك شغفاً بالتشييد والبناء وأنه كان خبيراً فى فن العمارة حتى لقد قيل إنه بنى جامعه الموجود فى القلعة مرتين لأن البناء الأول لم يحز إعجابه (٤). والحق أن الالمام بكل العمائر التى شيدها الناصر أو جددها أمر ليس هينا ، فضلا عن أنه يحتاج إلى علم الاخصائيين فى الآثار الاسلامية وحسبنا أن نشير إلى ان نشاط الناصر المعمارى أيدته الكتابات التاريخية على العمائر فى أنحاء مصر والشام . وقد قيل إن الناصر كان ينفق يومياً فى حكمه الثالث — الذى دام نحو اثنتين وثلاثين سنة — زهاء ثلاثمائة وخمسين دينارا على المبانى العامة (٥).

وقد اقتدى أتباعه من الأمراء وأغنياء الدولة به فى العناية بتأسيس المبانى والتأنق فيها . ويقال إن مهندساً من تبريز دعى سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) لتشييد جامع قوصون ، فبنى فيه

---

(١) Ibid, p. 106

(٢) انظر خطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٠٧ — ٤١٦ و

Van Berchem : Corpus I. , pp. 344—355

راجع ماسنذكره عن ذلك بالتفصيل عند كلامنا على « حالة مصر المالية والاقتصادية »

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢ .. Van Berchem ; Corpus, Egypte I. , p, 742

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٦

(٥) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 113.

راجع المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٦

مئارتين شبيهتين بمئارة جامع علىّ شاه فى تبريز ، ولكن هاتين المئارتين لم تصلا إلينا لسوء الحظ (١) .

وكان بعض المسجونين يستخدمون فى تشييد العمائر . فقد اشتركوا مثلا فى إقامة قصر للأمير بكتمر الساقى ، الذى تفضل عليه الناصر بأحجار البناء وبأجر نقلها فاستطاع بذلك أن يقتصد نحو ٥٠ ٪ من نفقات البناء (٢) . وكانت السخرة شائعة فى بعض أعمال البناء ومن ذلك أن الناصر أراد فى سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٨ م) تشييد رصيف ببولاق ، فأمر بجمع العاطلين والمتسكعين فى طرقات القاهرة ومساجدها كل يوم . وكان السلطان الناصر يزور بنفسه مكان العمل وينهر آقبغا القائم بالاشراف عليه . فبالغ هذا بدوره فى انتهار العمال حتى كان يموت منهم عدد كبير من الاجهاد فى حرارة الصيف (٣) .

وقد بيّن المقريزى مبلغ حب الناصر للعمارة وعدّد كثيراً من منشئاته ، فقال : « كان محباً للعمارة عمّر عدة أماكن ، منها جامع قلعة الجبل وهدمه مرتين ، وعمّر القصر الأبلق بالقلعة ومعظم الأماكن التى بالقلعة وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من بحر النيل إلى القلعة على السور وعمر الميدان تحت القلعة ومناظر الميدان على النيل وعمر قناطر السباع على الخليج ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس وحفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطىء النيل بظاهر مصر وجدد جامع الفيلة الذى بالرصد والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة وغير ذلك . . . وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة منها ثلثمائة وخمسون ديناراً سوى من يسخرة من المقيدين وغيرهم فى عمل ما يعمره وحفر عدة من الخلجانات والترع وأقام الجسور بالبلاد حتى إنه كان ينصرف من الأخباز على ذلك ربع متحصل الاقطاعات وحفر خليج الأسكندرية وبحر الملة مرتين وبحر الليثى بالجيزة وعمل جسر شبين وعمل جسر أحباس بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجع فأنشأ بنياناً بالطوب والجير وأنفق فيه أموالا عظيمة » (٤) .

وقد استرعت هذه الظاهرة نظر المؤرخين ، حتى أن ابن إياس عبر عن ذلك فى عبارة واضحة بقوله : « ولا يُعلم لأحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه . وقد تزايدت فى أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية فى العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر وغير ذلك من العمائر والانشاء » (٥) .

---

(١) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 127.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٤ . Ibid, p. 119.

(٣) Iibd, p. 117.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٦

(٥) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٣ .

صفات الناصر :

وإذا أردنا أن نتبين أسباب نجاح الدولة المملوكية فى هذا العهد وجب علينا الرجوع قبل كل شىء إلى صفات الناصر وتقدير شخصيته لأنه بلا شك كان العامل الأول فى وضع أسس السياسة العامة للدولة كما كان هو المنفذ الأكبر لقواعدها .

ويعد الناصر المثل الأعلى للسياسى فى دولة المماليك ، كما كان بيبرس من قبله المثل الأعلى للقائد الحربى (١) . ولا غرو فقد كان الناصر شديد البأس ، سديد الرأى ، يتولى أمور الدولة بنفسه ، مطلعاً على أحوال مملكته ، محبوباً من رعيته ، مهيباً من الأمراء حتى أنهم كانوا لا يجسرون على أن يفوه أحد منهم بكلمة واحدة إذا كانوا بحضرته (٢) . ولذلك صفا له الجو فى سلطنته الثالثة وحكم البلاد بنفسه حكما مطلقاً . وكان — على حد قول أبى المحاسن — « أعظم ملوك الترك بلا مدافعة » (٣) .

وقد أطرى صاحب كتاب « تاريخ سلاطين المماليك » سجايا الناصر ومزاياه ووصف ما يتحلى به من حزم وشجاعة ودهاء وكياسة ، فقال : « وهو موفق فى سائر حركاته ، سديد فى آرائه ، سعيد فى مشورته ، حازم فى أموره ، مقدام فى مقاصده ، شجاع فى حروبه ، لا تزعجه الأراجيف ، ثابت الجأش ، كثير المعرفة ، صحيح العبارة ، سالم الذهن ، حسن التدبير ، مليح الفكرة ، قوى العزم ، شديد الحزم » (٤) .

وقد ظلت سلطنة الناصر محمد الثالثة اثنتين وثلاثين سنة وتعد مدة حكمه أطول مدة حكم فيها واحد من سلاطين المماليك . يقول أبو المحاسن إنه : « أطول الملوك فى الحكم زمانا (٥) وأعظمهم مهابة وأحسنهم سياسة ، وأكثرهم دهاء ، وأجودهم تدبيرا ، وأقواهم بطشا وشجاعة . مرت به التجارب ، وقاسى الخطوب ، وباشر الحروب ، وتقلب مع الدهر ألوانا . ونشأ فى

= راجع المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ١٤٥ — ١٥١ و ١٦٥ — ١٧١ و ٤٠٦ — ٤٠٨)

R. L. Devonshire : Rambles in Cairo, pp. 37—53.

حيث تجد وصفا دقيقاً لمنشئات السلطان الناصر .

(١) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 45

راجع أيضا A. s. Atiya : Egypt and Aragon, pp 11—12.

(٢) المقريزى : الخطط : جـ ٢ ص ٣٠٥ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١٧ .

(٤) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٥) إن كان أبو المحاسن يقصد أن هذه أطول مدة وليها حاكم على مصر ، فغير صحيح . لأن عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى كان أطول من عهود سائر الخلفاء والسلاطين ، إذ امتد ستين سنة (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ، على حين لم يزد حكم السلطان الناصر محمد على ثمان وأربعين سنة (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) بما فيها هذه الفترات القصيرة التى اغتصب العرش فيها كل من كتبغا ولاچين وبيبرس الجاشنكير .

الملك والرياسة ، وله فى ذلك الفخر والسعادة . خليقاً بالملك والسلطنة ، فهو سلطان ، وابن سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه ، والملك فى ذريته وأحفاده وعقبه ومماليكه ومماليك مماليكه إلى أن تنقرض الدولة التركية ، فهو أجل ملوك الترك وأعظمهم بلا مدافع »(١).

وامتدحه أبو المحاسن أيضا فى كتابه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » بعبارات مملوءة بالاعجاب والتقدير لمواهبه وأخلاقه ، ولكنه أخذ عليه قبضه على كثير من أمراء مصر فى ذلك العصر ، فقال : « كان الناصر ملكا عظيما ، محظوظا ، مطاعا ، مهيبا ، ذا بطش ، ودهاء ، وحزم شديد ، وكيد مديد ، قل ما حاول أمرا فانخرم عليه فيه شىء يحاوله . الا أنه كان يأخذ نفسه فيه بالحزم البعيد والاحتياط . أمسك إلى أن مات مائة وخمسين أميرا ، وكان يصبر الدهر الطويل على الانسان وهو يكرهه : تحدث مع الأمير أرغون الدوادار فى إمساك كريم الدين الكبير قبل القبض عليه بأربع سنين ، وهم بامساك تنكز من الحجاز سنة ثلاث وثلاثين [وسبعمائة] بعد بكتمر ثم انه أمهله ثمان سنين بعد ذلك »(٢).

وقد تناول المقريزى علاقة الناصر بأمراء مصر بشىء من التفصيل . فأوضح لنا أنه كان يقبض على من يشتبه فى اخلاصه لعرشه ، وتبين أنه غلا فى مصادرة أملاك هؤلاء الأمراء إما رغبة فى جمع المال أو قصد التنكيل بهم وقد التمسنا — فيما مضى — العذر للناصر فى معاملته للأمراء على هذا النحو ، إذ أن تلك المعاملة قد ترجع إلى خوفه من تكرار ما حل به فى سلطنتيه الاولى والثانية على يد أمراء مصر البارزين . وكشف لنا المقريزى عن بعض الخصال والصفات التى تجمعت فى شخص السلطان الناصر ، فقال : « كان السلطان أبيض اللون قد خطه الشيب وفى عينيه حول وبرجله اليمنى نزع شوكة تنغص عليه أحيانا وتؤلمه وكان لا يكاد يمس بها الأرض ولا يمشى إلا متكئا على أحد أو متوكئاً على شىء ولا يصل إلى الأرض الا أطراف أصابعه وكان شديد البأس جيد الرأى يتولى الأمور بنفسه ويجود لخواصه وكان مهابا عند أهل مملكته . . . أفنى خلقاً كثيرا من الأمراء بلغ عددهم نحو المائتى أمير ، وكان اذا كبر احد من امرائه قبض عليه وسلبه نعمته واقام بدله صغيراً من مماليكه إلى أن يكبر فيمسكه ويقيم غيره ليأمن بذلك شرهم ، وكان كثير التخيل حازماً حتى انه اذا تخيل من ابنه قتله . وفى آخر أيامه شره فى جمع المال فصادر كثيراً من الدواوين والولاة وغيرهم ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال وكان مخادعا كثير الحيل لا يقف عند قول ولا يوف بعهد ولا يبر فى يمين ... وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف مماليك أبيه ومماليك الأمراء بأسمائهم ووقائعهم وله معرفة تامة بالخيل وقيمها مع الحشمة والسيادة . لم يعرف عنه قط أنه شتم أحدا من خلق الله ولا سفه عليه ولا كلمه بكلمة سيئة ، وكان يدعو الأمراء أرباب الأشغال

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٢٥٠ .

بألقابهم وكانت همته عالية وسياسته جيدة وحرمته عظيمة إلى الغاية . . . وهو مع ما ذكرنا مؤيد فى كل أموره مظفر فى جميع أحواله مسود فى سائر حركاته ما عانده أحد أو أضمر له سوءاً إلا وندم على ذلك أو هلك . . . فمتعه الله من الدنيا بالسعادة العظيمة فى المدة الطويلة مع كثرة الطمأنينة والأمن وسعة الأموال »(١).

وقد أعجب ابن بطوطة فى أثناء زيارته لمصر سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) بصفات السلطان الناصر وتدينه فقال : « وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى . . . وللملك الناصر السيرة الكريمة والفضائل العظيمة . وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج ، من الجمال التى تحمل الزاد والماء ، المنقطعين والضعفاء »(٢). على أن ابن بطوطة — رغم ذلك — أخذ عليه أنه كانت له طائفة من الأشرار يبعثهم لاغتيال من يُريد من أعدائه(٣).

فلا غرو إذا ختمنا كلامنا على صفات الناصر بهذه الأبيات التى قالها عنه الشيخ صفى الدين الحلى :

الناصر السلطان قد خضعت له ... كل الملوك مشارقاً ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة ... ويعد راحات الفراغ متاعبا
تُرجى مكارمه ويخشى بطشه ... مثل الزمان مسالماً ومحاربا
فاذا سطا ملأ القلوب مهابة ... وإذا سخا ملأ العيون مواهبا(٤)

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .
(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ١ ص ٢٣ .
(٣) نفس المصدر والجزء ص ٤٥ .
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٣ .

الباب الرابع

سلطنة أولاد الناصر وأحفاده

(٧٤١ — ٧٨٤ هـ = ١٣٤٠ — ١٣٨٢ م)

وفاة الناصر

أراد الناصر فى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) أن ينظم وراثة العرش من بعده ، فعهد بالملك إلى ابنه الأمير ناصر الدين آنوك فوافقته الأمراء على ذلك . وركب آنوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع على الأمراء وكبار الموظفين . ولكن الناصر عاد فعدل عن رأيه وأمر أن يلبس آنوك شعار الأمراء ولا يمنح ولايه العهد . ومهما يكن من شىء فقد توفى آنوك قبل أبيه ببضعة أشهر فى يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وعمره ثمانى عشرة سنة(١). ولعل السبب فى عدول الناصر عن توليته العهد أنه لم يكن حينئذ قد تجاوز التاسعة من عمره .

وظل الحال على ذلك دون أن يمنح الناصر ولاية العهد لولد من أولاده حتى مرض سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وأحس بدنو أجله ، فرأى انه ليس من الحكمة أن يترك هذه المملكة الواسعة من غير أن يعهد إلى أحد من بعده ، فجمع أمراء الدولة ، وأبلغهم أن رأيه قد استقر على أن يعهد بالملك من بعده إلى ابنه سيف الدين ابى بكر ، وأوصاهم بتنفيذ ذلك بعد وفاته ، فامتثلوا أوامره وعاهدوه على ذلك(٢). ولما سمع أهل مصر بسوء حالة الناصر الصحية اظهروا ألمهم الشديد ، وعبروا عن حزنهم بمظاهرات نادوا له فيها بطول العمر ودعوا له بكامل الشفاء لما كانوا يعتقدونه من أن وجوده على عرش مصر يمنع عن أهلها البؤس والشقاء . وقد كان ذلك مألوفاً عند موت خيار السلاطين والأمراء ، كما كانت تشترك فيه الطوائف المختلفة فى معظم الأحيان (٣) .

وحسبنا دليلا على ثقة الناس فى حكومته الوطيدة الأركان ومخاوفهم مما قد يحل بهم من بعده ، أنهم أغلقوا حوانيتهم حين انتشر خبر مرضه وخزنوا المواد الغذائية إلى وقت الحاجة ،

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٢ .

Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 154.

(٢) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٣٣٠ .

Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٣) اقرأ عن الصلوات التى أقيمت فى مناسبة مرض ابن طولون

Zaky M. Hassan : Les Tulunides, p. 95.

فكأنهم كانوا يعتبرون وفاته كارثة تحل بالبلاد وإيذانا باضطراب أحوالها .

ولما اتصل بمسامع الناصر قلق شعبه عليه ، تأثر تأثراً بالغا . وأمر عند ما شعر بشيء من النشاط والقوة باقامة معالم الزينات فى العاصمة ، لكى يفرج عن شعبه المحزون عليه ولكن دعاء الشعب لم يحـــل بين الناصر وبين القضاء المحتوم ، وتوفى فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) (١) ، بعد أن أصبحت مصر فى عهده امبراطورية شاسعة الأرجاء ، وغدت القاهرة مركز التجارة والصناعة وكعبة العلم والفن ، وقبلة أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد وصف المقريزى جنازة السلطان الناصر وصفاً مؤثرا فقال إنها وقعت بالليـل ، ولم يسر وراءها سوى عدد قليل من أمراء مصر وبذلك لم يشترك الشعب فى توديع سلطانه الذى حباه بعطفه ومحبته ، كما لم تراع فى تكفينه ومواراته التراب مراسم الاحترام والاجلال اللائقين بسلطان عظيم كالناصر ، تمتعت البلاد فى عهده بكل أنواع الراحة والطمأنينة ويظهر أن ذلك العمل كان بتدبير بعض أمراء مصر الذين نقموا على الناصر شدته عليهم وقضاءه على دسائسهم وقمعه لفتنهم التى طالما هددت عروش سلاطين المماليك ومنهم الناصر نفسه . يقول المقريزى :

« فأقام فى الملك من غير منازع له فيه إلى أن مات بقلعة الجبل فى ليلة الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى واربعين وسبعمائة . . . ولما مات ترك ليلته ومن الغد حتى تم الأمر لابنه أبى بكر المنصور فى يوم الخميس المذكور . ثم أخذ فى جهازه فوضع فى محفة بعد العشاء الآخرة بساعة وحمل على بغلين وأنزل من القلعة إلى الاصطبل السلطانى وسار به الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى أمير جاندار والأمير نجم الدين أيوب والى القاهرة والأمير قطلوبغا الذهبى وعلم دار خوطاجار الدوادار وعبروا به الى القاهرة من باب النصر . وقد غلقت الحوانيت كلها ومنع الناس من الوقوف والنظر إليه وقدام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار . فلما دخلوا به من باب النصر كان قدامه مسرجة فى يد شاب وشمعة واحدة وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون . وكان الأمير علم الدين سنجر الجاولى ناظر المارستان قد جلس ومعه القضاة الأربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس والشيخ ركن الدين عمر ابن الشيخ ابراهيم الجعبرى فحطت المحفة وأخرج منها فوضع بجوار الفسقية التى بالقبة وأمر ابن أبى الظاهر بتغسيله . . . ووضع فى تابوت من خشب وصلى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز محمد بن جماعة الشافعى بمن حضروا . وأنزل إلى قبر أبيه فى سحلية من خشب قد ربطت بحبل ونزل معه الى القبر الغاسل والأمير سنجر الجاولى ودفع الى الغاسل ثلاثمائة درهم فباع ما نابه من الثياب بثلاثة عشر

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ القسم الأول ص ٤٤ .

Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 417.

درهما سوى القميص فانه فقد ، وذكر الغاسل انه كان محنكا بخرقة معقدة بثلاث عقد . فسبحان من لا يحول ولا يزول هذا ، ملك أعظم المعمور من الأرض مات غريباً وغسل طريحاً ودفن وحيدا ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب » (١)

غير أن تلك المعاملة السيئة لجثمان سلطان من أعظم سلاطين المماليك لم تعقد لسان الشعراء من صفوف الشعب عن تأبينه والأشادة بذكره ، بدليل ماورد فى كتاب الألمام الذى ألفه النويرى الأسكندرانى ما بين سنة ١٣٦٥ و ١٣٦٧ م ونص عبارته كما يلى :

« نعود إلى ذكر محاسن السلطان الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون ، كان رحمه الله عادلا فى رعيته ، محسناً فى قصبته ، أبطل المظالم ، وكف أيدى كل ظالم ، وكان هيكلا حسناً على ظهر فرسه ، كبير الوجه أحمر اللون ذو لحية كبيرة قد وخطه الشيب ، فقيل فى المعنى :

فقد الوجود بل الوجود لفقده ... متحسراً أضحى شبيه الحائر
يبكى عليك بأدمع كيواقت ... حمر ولؤلؤ بعضها كجواهر
زار الثرى فأضا الثرى من نوره ... وأجابه أهلا بنعم الزائر
فغدا به القبر الذى قد حله ... روضاً يفوح كنشر مسك عاطر
وكأنه قد حل فيه روضـــة ... عطورة قد عمقت بأزاهر
سقياً لترب حل فيها جسمه ... قد عطرت منه بجسم طاهر
كم حجة قد حجها مبرورة ... كم وقعة شهدت له ببصائر
فى شقحب حز الرؤس بسيفه ... قهراً ونصراً من عزيز ناصر
قد مده بالعز منه أولا ... فضلا ويُتِمّ فضله فى الآخر (٢)»

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) راجع مخطوطة برلين « كتاب الألمام للنويرى » (ورقة ٢٣٣ ب — ٢٣٤ ا) وقد أمدنا بهذه الفقرة المستشرق السويسرى المسيو لينين كومب مدير مكتبة جامعة فاروق الأول والأستاذ الزائر بكلية الآداب بالاسكندرية ، وقد أعد الترجمة الفرنسية للمخطوط المذكور للطبع .

أولاد الناصر [١]

بعد وفاة الناصر سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، دخلت دولة المماليك البحرية فى طور جديد من نظم الحكم ، وذلك بسبب كثرة عدد السلاطين الذين اعتلوا العرش ، وصغر سنهم ، وبسبب ظهور نفوذ الأتابكه بشكل جلى ، واشتداد التنافس بين الأمراء على النفوذ ، وجعلهم السلطان ألعوبة فى أيديهم ، يعزلونه أو يبقونه على العرش حسب مشيئتهم . وكان مصير أولئك السلاطين الخلع ثم النفى أو القتل . وكان نفيهم فى العادة إلى قوص أعظم مدن الوجه القبلى إذ ذاك أو إلى الكرك بالشام ، وأحياناً يظل بعضهم بقلعة الجبل على أن يمنع من الاتصال بالناس . وبذلك ضعفت الدولة الملوكية واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلاقل فى جميع أرجائها .

وقد بلغ عدد أولئك السلاطين الذين تولوا العرش من بعد وفاة الناصر محمد إلى نهاية دولة المماليك البحرية اثنى عشر سلطاناً ، وهم ثمانية من أولاد الناصر محمد وأربعة من أحفاده ، وكان مجموع مدتهم ثلاثاً وأربعين سنة ، وبذلك يكون متوسط حكم السلطان الواحد فى هذه الفترة ثلاث سنوات ونصف سنة .

بعد وفاة الناصر ، رفض الأمير بشتاك [٢] إقرار ما عاهد الأمراء السلطان الناصر عليه

---

(١) انظر البيان الخاص بأسماء هؤلاء السلاطين ، ومدة كل حكم منهم ، وسنه عند اعتلائه العرش

(٢) ذكر المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٣٤ — ٣٥) تاريخ حياة الأمير بشتاك فقال : « هو الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى ، قرّبه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعلى محله وكان يسميه بعد موت الأمير بكتمر الساقى بالأمير فى غيبته . وكان زائد التيه لا يكلم استاداره وكاتبه إلا بترجمان ويعرف بالعربى ولا يتكلم به . وكان إقطاعه ست عشرة طبلخانة أكبر من إقطاع قوصون . ولما مات بكتمر الساقى ورثه فى جميع أحواله واصطبله الذى على بركة الفيل ... وزاد أمره وعظم محله فثقل على السلطان وأراد الفتك به فلما تمكن وتوجه إلى الحجاز وأنفق فى الأمراء وأهل الركب والفقراء والمجاورين بمكة والمدينة شيئا كثيرا إلى الغاية وأعطى من الألف دينار إلى المائة دينار إلى الدينار بحسب مراتب الناس وطبقاتهم . فلما عاد من الحجاز لم يشعر به السلطان إلا وقد حضر فى نفر قليل من مماليكه وقال إن أردت إمساكى فها أنا قد جئت إليك برقبتى فغالطه السلطان وطيب خاطره ... وجرده لامساك تنكز نائب الشام فحضر إلى دمشق وبعد إمساكه هو وعشرة من الأمراء فنزلوا القصر الأبلق وحلف الأمراء كلهم للسلطان ولذريته واستخرج ودائع تنكز وعرض حواصله ومماليكه وجواريه وخيله وسائر ما يتعلق به... وأقام بدمشق خمسة عشر يوما وعاد إلى القلعة » .

وفى دار الآثار العربية لوح من الخشب (رقم السجل ٢٧٣٩) أصله من مسجد السلطان الناصر محمد وعليه كتابة باسم الأمير بشتاك الناصرى تثبت أمره بتجديد هذا المسجد وتاريخ الفراغ من ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) .

انظر J. David-Weill : Catalogue Général du Musée Arabe du Caire, Bois à Epigraphes, tome II, p. 75 et planches VI.

راجع أيضا عن تاريخ حياة بشتاك Mayer : Saracenic Heraldry, pp. 104—105, 263.

من ولاية العهد لابنه أبى بكر ؛ وصمم على منح السلطنة لابن ثان للسلطان الناصر اسمه احمد وكان مقيما اذ ذاك بالكرك . ولكن الأمير قوصون أظهر أن تلك المعارضة إن كان المقصود منها إقامة بشتاك أو قوصون نفسه على عرش السلطنة ، فان ذلك الأمر قد لا يؤيده بقية الأمراء لما جرى عليه العرف إذ ذاك من أن الجالس على العرش ينبغى أن يكون من أصل مملوكى ، أى رقيق اشترى بالمال وتدرج فى المناصب ، أو ابن سلطان تدرج فى مراتب العز . يقول المقريزى إنه « لما مات السلطان الناصر وسجى قام قوصون إلى الشباك ، وقال للأمير بشتاك ياأمير ! تعال أنا ما يجى منى سلطان ، لأنى كنت أبيع الطسما والكشاتوين فى البلاد ، وأنت اشتريت منى وأهل البلاد يعرفون ذلك منى . وأنت مايجى منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا وأنا اشتريت ذلك منك ، وأهل البلاد يعرفون ذلك كله . فما يكون سلطان من عرف ببيع الطسما والبرغالى ولا من عرف ببيع البوزا . وهذا أستاذنا هو الذى أوصى لمن هو أخبر به من أولاده[1] » .

وعلى أثر ذلك تولى سيف الدين أبو بكر عرش مصر ولقب بالمنصور (٧٤١ — ٧٤٢ هـ = ١٣٤٠ — ١٣٤١ م) وله من العمر نحو عشرين سنة . وهو أول من تولى السلطنة من أولاد الناصر . وسرعان ما ساءت العلاقات بينه وبين أتابكه قوصون لامتناعه عن تلبية بعض مطالبه ، وعرض الأمراء عليه فقد ذكر العينى أنه خاطب الأمراء قائلا : «هذا السلطان يريد أن يقتلكم ، ولا يخلى أحداً منكم» فأجابه الأمراء قائلين . «الرأى رأى مولانا»[2]. وعلى أثر ذلك صعد قوصون إلى القلعة ، وقبض على السلطان وبعث به إلى قوص ولم يلبث أن أوعز بقتله ، فقتل بها ، ولم تزد مدته التى جلس فيها على عرش مصر عن ثلاثة أشهر[3]. ومنذ ذلك الوقت لم تظهر ولاية العهد طوال المدة الباقية من تاريخ السلطنة المملوكية الأولى ، واتبع المبدأ الوارثى فأقيم سلاطين من بيت الناصر محمد : من أولاده ثم أحفاده ، دون تقيد باستمرار السلطان على العرش حتى وفاته . بل يصح خلعه إذا لم يرض عنه الأمراء . وإقامة غيره من بيت الناصر مكانه .

بقتل أبى بكر اعتلى العرش أخوه علاء الدين كجك[4] ولقب بالأشرف (٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) ، وعمره إذ ذاك يتراوح بين الخامسة والسابعة ، فعين الأمير قوصون الناصرى أتابكا له كما كان أيام أخيه ، « فتصرف فى أمور المملكة ، ولم يكن للأشرف من السلطنة الا

---

(١) الخطط جـ ٢ ٣٤ — ٣٥ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٣٤٨ .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ القسم الأول ص ٤٩ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٧ .

(٤) كجك : لفظ أعجمى ، معناه باللغة العربية « الصغير » ، فقد توقع أبوه وقت تسميته أنه سيلى الملك بعده وهو صغير . ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٧ .

بمجرد الاسم فقط ، وليس له من الأمر شيء . . . وكانت إذا حضرت العلامة ، أعطى قوصون الأشرف كجك فى يده قلماً وجاء الفقيه الذى يقرئه القرآن ، فيكتب العلامة والقلم فى يد الأشرف (١) . « وبذلك لم يكن للأشرف من الأمر شيء ، وقبض أتابكه قوصون على زمام الأمور وكان السلطان معه مثل العصفور بين النسور » . (٢) ثم ازداد الحال سوءا ، فاشتد الخلاف بين الأمراء ، وانتشرت الفتن والقلاقل فى البلاد ، وامتد الفساد إلى بلاد الشام ، وخرج النواب على طاعة سلطان مصر .

وما لبث كجك أن خلع بعد أن حكم مصر خمسة أشهر . وخلفه أخوه احمد ولقب بالناصر (٧٤٢ — ٧٤٣ هـ = ١٣٤٢ م) ؛ وكان وقت اعتلائه العرش مقيما بقلعة الكرك ، وكان راغباً عن السلطنة فأرسل إليه الخليفة الحاكم بأمر الله يستدعيه الى القاهرة . ليعهد اليه السلطنة ، فحضر اليها (٣) . ولكنه لم يستمر طويلا فى مصر بعد وصوله الى العرش ، بل عاد الى الكرك ، وعزم على جعلها محل إقامته مع بقاء السلطنة ودواوينها وإداراتها بالقاهرة ، ولكن أمراء مصر لم يعجبهم هذا الاجراء وخلعوه « لأن أموال المملكة ضائعة ، والسلطان لا يلتفت لشيء من ذلك » (٣) . ووقع اختيارهم على أخيه اسماعيل ولقب بالصالح (٧٤٣ — ٧٤٦ هـ و ١٣٤٢ — ١٣٤٥ م) . فبدأ عهده بمحاصرة أخيه بالكرك ، ودام الحصار ثلاث سنوات وانتهى بتسليم احمد ثم قتله . وفى سنة ٧٤٦ هـ مرض السلطان اسماعيل ومات . وتولى السلطنة من بعده أخوه شعبان ولقب بالكامل (٧٤٦ — ٧٤٧ هـ و ١٣٤٥ — ١٣٤٦ م) . ولم يكن عهده خير من عهد سلفه ، وليس أدل على ذلك مما قاله له الأمير يلبغا اليحياوى نائب الشام حين اشتد الخلاف بينهما : « أنت أفسدت المملكة ، وأفقرت الأمراء والأجناد ، وقتلت أخاك ، وقبضت على أكابر أمراء السلطان ، واشتغلت عن الملك ، والتهيت بالنساء وشرب الخمر وصرت تبيع أخباز الأجناد بالفضة » (٤) . واشتد الاستياء من الكامل شعبان حين أمر سنة ٧٤٧ هـ بالقبض على أخويه الأمير حاجى والأمير حسين وسجنهما تمهيداً لقتلهما ، كما تحارب معه ملكتمر الحجازى أحد كبار الأمراء عند ما علم أن السلطان يريد القبض عليه ، وانتهى الأمر بهرب الكامل شعبان إلى القلعة .

تدهورت السلطنة المملوكية فى عصر أولاد الناصر ، وتجرأ الأمراء على السلاطين الأطفال جرأة منقطعة النظير . فانه بعد هرب الكامل شعبان إلى القلعة ، سار الأمراء اليها وأفرجوا عن الأمير حاجى والأمير حسين وأعلنوا الأول سلطانا . ولما جدوا فى البحث عن الكامل

---

(١) : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٣٦٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٢٦ — ٤٣٠ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٨ . محمد كرد على : كتاب خطط الشام جـ ٢ ص ١٥١ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ١٤ .

الفسقية بصحن مسجد السلطان الناصر حسن

وجدوه « واقفاً بين الازيار ، وقد ابتلت أثوابه بالماء »(١) . فقبضوا عليه وسجنوه فى المكان الذى حبس فيه أخواه من قبل . ولم يلبث أخوه السلطان حاجى أن أمر بقتله ، فقتل بعد ثلاثة أيام من حبسه .

وازداد انحلال السلطنة المملوكية بتولية حاجى (٧٤٧—٧٤٨ هـ = ١٣٤٦ — ١٣٤٨ م) فان هذا السلطان — الذى لم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره — كان يجتمع باوشاب الناس وطبقاتهم المنحطة ويلعبون معاً بالحمام ، « وكان السلطان يقف معهم ويراهن على الطير الفلانى والطيرة الفلانية . . . وكان السلطان إذا لعب مع الأوباش يشعرى ويلبس ثياب جلد ويصارع معهم »(٢) . بذلك اكتفى السلطان حاجى بتربية الحمام والولع به عن تدبير شئون الدولة ، « واشتغل بلعب الطيور عن تدبير الأمور ، والنهى عن الأحكام بالنظر إلى الحمام »(٣) . فلا عجب بعد هذا كله إذا قبض عليه بعض الأمراء ، وانتهى أمره بالقتل ، ولما يستكمل سنة على عرش السلطنة .

وإن ما حدث لأخيه الناصر حسن(٤) (٧٤٨ — ٧٥٢ هـ و ١٣٤٧ — ١٣٥١ م) الذى كانت سنه وقت اعتلائه العرش لم تتجاوز الحادية عشرة ، ليدلنا إلى أى حد تدهورت حالة مصر فى عهد أولاد السلاطين . فان الخلاف لما اشتد بين الناصر حسن وأمراء مصر ، نزل السلطان عن العرش فلم يكتف الأمراء بذلك ، بل بعثوا اليه « الأمير صرغتمش ومعه جماعة ليأخذوه ويحبسوه وطلعوا إلى القلعة راكبين . ودخلوا إلى الناصر حسن ، وأخذوه من بين خدمه ، وصرخ الناس صراخاً عظيما . وصاحت بنت صرغتمش صياحاً منكرا ، وقالت هذا جزاؤه منك . فأخذه صرغتمش وقد غطا وجهه . فلما رآه الخدام والمماليك تباكوا عليه بكاء كثيرا ، وطلع إلى رواق فوق الأبواب ، ووكل به من يحفظه وعاد الى الأمراء »(٥) . وبعد ما فعله هؤلاء الأمراء مع السلطان الناصر حسن أقصى ما يمكن أن يلحق ملكا من المذلة والعار ، ولكننا مع ذلك لا نستغرب ما وقع قياساً على كان يحدث إذ ذاك .

ولم يكن للصالح أخى الناصر حسن (٧٥٢ — ٧٥٥ هـ و ١٣٥١ — ١٣٥٤ م) مع أتابكه الأمير طاز من الأمر شىء « وصار الملك الصالح معه مثل اللولب يديره كيف شاء ، وليس له

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ الفصل الأول ص ٤١ — ٤٢ .

(٣) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ج ١ ص ١٨٨ .

(٤) كان « حسن » يسمى أولا « قارى » : لجماله . فلما أراد الأمراء أن يسلطنوه ، قال لهم : أنا لا أسمى إلا حسن . فوافقه الأمراء على ذلك . ابن إياس ج ١ ص ١٩٠ .

(٥) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) ج ١ القسم السادس ص ٦١٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ الفصل الأول ص ٩١ .

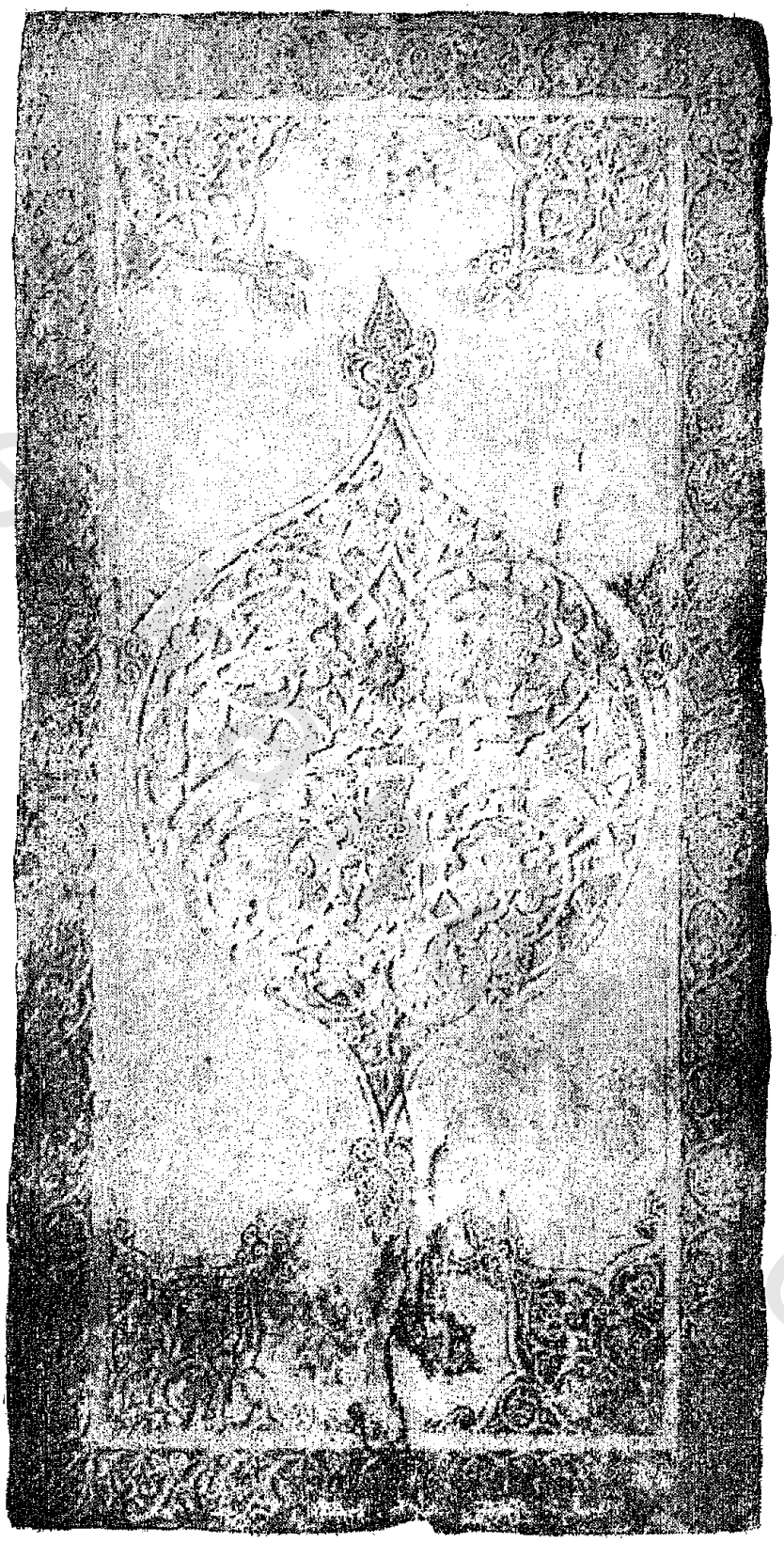

لوح من الرخام كان فى مدرسة الأمير صرغتمش المشيدة سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) . وفى وسطه زخارف نباتية تشتمل على صورة مشكاة من مشكاوات المساجد وصور بعض الأوانى والطيور والأيادى . وهو محفوظ الآن بدار الآثار العربية فى القاهرة

فى السلطنة غير مجرد الاسم » . (١) وكان اشتداد نفوذ أحد الأمراء وتقربه من السلطان ، لا يقتصر أثره على تركيز السلطة فى يده فحسب ، بل كان من نتائجه المباشرة ظهور عوامل الحسد والغيرة والتنافس بينه وبين بقية الأمراء . لذلك وقع الخلاف بين الأمراء ، وأضمروا السوء للملك الصالح وللأمير طاز . وانتهى الأمر بالقضاء على الأمير طاز أولا ، ثم بالقبض على السلطان وحبسه بالقلعة . وأعيد الناصر حسن إلى عرش السلطنة للمرة الثانية (٧٥٥ — ٧٦٢ هـ و ١٧٥٤ — ١٧٦٠ م) .

وقد بلغ الاستخفاف بالسلاطين فى هـــذه الفترة حداً لا يمكن أن يتصوره العقل ، فان السماط الذى يمد للسلطان القائم ، كان يظل على حاله ليجلس عليه السلطان الجديد ، ويتناول السلطان المخلوع طعامه فى المكان الذى حبسه فيه الأمراء . وقد حدث ذلك للسلطان شعبان الذى تناول بعد خلعه طعام أخيه حاجى الذى كان مسجونا إذ ذاك ثم حمله الأمراء إلى العرش مكان أخيه ، فجلس الى السماط الذى كان معداً للكامل . وتتكرر هذه المأساة مع كل من صالح المخلوع وأخيه حسن الجديد . إذ سجن صالح حيث كان أخوه الناصر حسن ، ومن غريب ما وقع مما فيه أعظم معتبر — كما يقول المقريزى — أنه عمل الطعام للسلطان الملك الصالح ليمد بين يديه على العادة ، وعمل الطعام للملك الناصر حسن ليأكله فى محبسه . فاتفق خلع الملك الصالح فى أقل من ساعة ، وسجنه ، وولاية أخيه حسن فى السلطنة بدلا منه فمد السماط بالطعام الذى عمـــل ليأكله الصالح ، فأكله حسن فى دست المملكة ، وأدخل الطعام الذى عمل لحسن على الصالح ليأكله فى محبسه ، فأكله فى السجن الذى كان أخوه حسن فيه » (٢) . وتلك الأيام نداولها بين الناس .

ظل الناصر حسن على عرش الملك فى سلطنته الثانية ست سنوات و نصف ، حكم فيها بنفسه إذ كان قد بلغ سن الرشد . ولكن حدث فى نهاية عهده أن اختلف مع الأمير يلبغا الذى قبض عليه . ولم يعرف للناصر أثر بعد ذلك : قيل إنه خنق ورمى فى البحر وقيل إن يلبغا اشتط فى عقوبته حتى مات ودفنه فى مصطبة بقرب داره ، وقيل دفنه بكيمان مصر وأخفى قبره . (٣) وهـذه ولا شك نهاية محزنة لسلطان عظيم كالناصر حسن أجمع المؤرخون على : شجاعته ، وبطولته و نفاذ كلمته ، وعالى همته ، ومحبته لرعيته ، وتشجيعه الفنون (٤) والآداب . ولم يكن يعيبه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ١٠٩ . ابن إياس بدائع الزهور جـ ١ ص ١٩٤ .

(٢) كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٣ ص ٢٠ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٣ ص ٣٥ — ٣٦ . ابن إياس : نفس المصدر والجزء

(٤) انظر ص ١٠٩ .

سوى ميله إلى مصادرة الأموال . وبوفاته ينتهى عهد تولية السلاطين من أولاد الناصر ، ويأتى عهد السلاطين من أحفاده .

ومما ذكرناه عن كيفية تولية سلاطين المماليك من أولاد الناصر ونهايتهم ، نرى أن الطريقة كانت كلها واحدة : فالسلطان الطفل يأتى به الأمراء ويجلسونه على العرش ، ثم يختلفون فيما بينهم على السلطة والنفوذ ، فيصبح السلطان ألعوبة فى أيديهم ، حتى يأتى الوقت الذى يرون فيه ضرورة استبدال غيره به ، فاما أن يخلعوه أو يقتلوه . وسنرى أن حالة مصر فى عهد سلاطين أحفاد الناصر لم تختلف عما كانت عليه فى عهد أولاده من الضعف والاضطراب ، وانتشار الفوضى ، وقيام الدسائس والفتن بين السلطان والأمراء من جهة ، وبين الأمراء بعضهم مع بعض من جهة أخرى . وقد اشتد ضعف مصر فى أيام سلطنة أحفاد الناصر حتى انتهى الأمر بسقوط دولة المماليك البحرية .

ولم يكن عامل التناقس بين الأمراء على السلطة والنفوذ ، هو وحده الذى أدى إلى القضاء على عرش سلاطين المماليك ، بل ظهر بعد وفاة الناصر عامل آخر لا يقل عن سابقه أثراً ، وهو الانحلال الخلقى الذى كان عليه معظم سلاطين المماليك الذين تولوا عرش مصر من بيت الناصر مما سهل إلى حد كبير على أمراء ذلك العصر ، القضاء على عروش هؤلاء السلاطين ، فى الوقت الذى كانوا يختارونه لتنفيذ ما اعتزموه من خلعهم .

أحفاد الناصر [1] :

كان السلطان المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢ — ٧٦٤ هـ = ١٣٦١ — ١٣٦٣ م) بن المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون أول أحفاد الناصر فى السلطنة ، ميالا إلى الطرب ، مدمنا شرب الخمر ، حتى كاد لا يفيق ساعة واحدة . لذلك قبض عليه أتابكه يلبغا فى ٤ شعبان سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) ، وخلعه من السلطنة وحبسه فى القلعة ، « فاستمر فى دور الحرم مقيما فى غبوق وصبوح ، لا يفيق من السكر ساعة ، وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجوارى يدقون بالطارات عند الصباح والمساء » . [2] وتتبين مدى الانحطاط الخلقى الذى

---

(١) أنظر البيان الخاص بأسماء هؤلاء السلاطين ومدة حكم كل منهم وسنه وقت اعتلائه العرش فى نهاية هذا الباب .

(٢) استمر المنصور على تلك الحالة حتى مات فى المحرم سنة ٨٠١ هـ فى عهد سلطنة الظاهر برقوق ، أى بعد انتهاء دولة المماليك البحرية . وقد ذكر ابن إياس (بدائع الزهور ج ١ ص ٢١٢) أن شاعرا معاصرا وصف هذا السلطان فى هذين البيتين :

كل الملوك تسلطنوا بالملك والسلاح
وأنا قنعت منه بالراح والملاح

كان عليه هذا السلطان مما ذكره أبو المحاسن عن العوامل التي أدت الى خلعه ، اذ كتب أن المنصور كان « يدخل بين نساء الأمراء ويمزح معهن ، وكان يعمل مكارياً للجوارى ويركب هو وراء الحمار بالحوش السلطاني ، وكان يأخذ زنبيلا فيه كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المماجنة ! » (١) .

وفيما يرويه المؤرخون عن كيفية القبض على السلطان شعبان ابن السلطان حسن (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ = ١٣٦٣ — ١٣٧٦ م) ، امتهان شديد لعرش السلطنة ، مما جعل الناس إذ ذاك لا يكترثون لما وقع من هذا القبيل ، ويتمنون إما إصـــلاح الحال أو زوال حكم « السلاطين الأطفال » . فان شعبان لما هرب بعد أن هزمه أعداؤه من الأمراء ، عاد الى القاهرة خفية ، ونام ليلته فى الصحراء ، ثم اختفى فى منزل سيدة تدعى آمنة ، فخافت تلك السيدة على نفسها من اختفائه عندها ، لأن الأمير ايدمر الشمسى نائب السلطنة قد أمر فنودى فى القاهرة بأن من يضبط السلطان عنده ولا يبلغ عنه ، يكون جزاؤه القتل شنقاً على باب منزله . فلما سمعت تلك السيدة بذلك ، أبلغت أخبرت وجود السلطان فى منزلها للأمير أينبك البدرى ، فأرسل معها عدداً من الجنود . ولما دخلوا لم يجدوا فيه أحدا ، فصعدوا الى سطح المنزل حيث وجدوا السلطان مختفياً فقبضوا عليه وأركبوه فرساً بعد أن غطوا وجهه ، وصعدوا به الى القلعة ، ثم قتلوه عقب ذلك (٢) (٣ ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ = ١٧ مارس سنة ١٣٧٧ م) .

وقد وقعت فى عهد السلطان على بن شعبان (٧٧٨ — ٧٨٣ هـ = ١٣٧٦ — ١٣٨١ م) حادثة نذكرها لطرافتها ، ولأنها كانت الأولى من نوعها فى عصر المماليك . فقد اعتاد الأمراء اذا ما اشتد غضبهم على السلطان أن يخلعوه ثم يحبسوه أو يقتلوه ، ولكن الأمراء هذه المرة ، أعلنوا — قبل خلع السلطان القائم — تولية سلطان آخر ، هو أنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون . فأصبح على عرش مصر سلطانان ، والتف حول كل سلطان فريق من الأمراء يسنده ويعضده ويعمل على تثبيت عرشه .

ذلك أن السلطان المنصور علاء الدين كان قد وعد مماليك الأمير يلبغا — عند شكواهم اليه من معاملة سيدهم — بمناصرتهم عليه . ففكر يلبغا فى إقامة سلطان آخر غيره . ومن العبارات التى ننقلها عن المقريزى فى هذا الصدد نتبين الدرك الذى انحدرت إليه السلطنة المملوكية إذ ذاك : إذ « أمر يلبغا ، فجيء اليه بالخليفة ، وأنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون ، أن يقدم اليه السلطنة . فامتنع من ذلك ، واحتج بأن الشوكة للأشرف شعبان » فأمر [يلبغا]

---

(١) النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ١٧٧ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

بالكوسات (١) فدقت وأقام شعار السلطنة كله . وقال : أنا أعينه وأؤيده ، ومن [له] الشوكة غيرى . فلم يجد الخليفة بداً من سلطنة أنوك فأقاموه ، ولقّبوه بالملك المنصور ، وأركبوه بالشعار السلطانى . وجلس المنصور أنوك بكرة يوم الجمعة ، وبين يديه أرباب الدولة والأمراء وأرباب الأقلام على العادة » (١).

وقد مر بنا فى عصر دولة المماليك فيما قبل وفاة الناصر محمد ، شذوذ فى أنظمة الحكم يماثل ذلك الشذوذ ، وهو وجود سلطانين فى وقت واحد على عرش مصر ، الأول : حين أقيم الناصر يوسف مع السلطان الملك المعز أيبك سنة ٦٤٨ هـ ، كل منهما بلقب سلطان . والثانى : حين أقام السلطان قلاوون ابنه الصالح على سنة ٦٨٧هـ سلطانا على مصر . والثالث : هو إقامة أنوك مع وجود على . إلا أننا نلاحظ أن السلطان الأشرف الأيوبى أقيم برضاء أيبك ، ولو أنه كان رضاء صورياً حتى لا يعزل عن الحكم ، وأقيم الصالح على بأمر أبيه قلاوون وبمحض إرادته ، على الا يحكم مصر الا حين غياب أبيه عنها ، ولكن أنوك أقيم نكاية فى الأمير يلبغا ومن شايعه من الأمراء فى السلطان القائم وتمهيداً لعزله بوضعه أمام الأمر الواقع . وإن هتاف أنصار السلطان القائم ضد أنوك بقولهم : « سلطان الجزيرة ما يساوى شعيرة » ، ثم القبض على أنوك وحبسه ، وقتل الأمير يلبغا الذى أقامه . « وأسواق القاهرة طول هذه الأيام مغلقة ، والأسباب متعطلة ، وليس للناس شغل سوى التفرج فى شاطىء النيل على المقاتلين من اليلبغاويه والسلطانية » ، ليدلنا على أن الدولة قد وصلت إذ ذاك إلى حالة يرثى لها من الضعف والانحلال والفوضى ، ويحق لنا أن ندرك أن دولة المماليك البحرية أصبحت على وشك الزوال .

وقد ظل علاء الدين على سلطاناً حتى وفاته فى ١٣ صفر سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) ، وله من العمر اثنتا عشرة سنة وكان خلفه حاجى بن شعبان (٧٨٣ — ٧٨٤ هـ = ١٣٨١ — ١٣٨٢ م) هو آخر سلاطين المماليك من بيت الناصر بل آخر سلاطين دولة المماليك البحرية . وكانت سنه حين اعتلائه العرش تتراوح بين التاسعة والحادية عشرة ، فعين برقوق أتابكاله ، فعمل هذا — على ما جرت به العادة فى ذلك العصر — على الوصول إلى السلطنة ، مع أن الأتابكة لم يفكروا فى طول فترة حكم أولاد الناصر وأحفاده فى اعتلاء العرش . بل إن دولة المماليك البحرية كانت تنتهى بوفاة المنصور علاء الدين فى سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) ، إذ أن برقوق كان يعتزم اعتلاء عرش السلطنة بعد المنصور ، ولكن كبار الأمراء رفضوا أن يحكمهم « مملوك يلبغا » الذى كان قد بلغ كره الناس له أقصاه (٣) . إلا أن برقوق لما اطمأن إلى زوال

---

(١) السلوك (مخطوط) ج ٣ ص ٥٤ — ٥٦ .

(١) الكوسات : هى صنوجات من نحاس ، تشبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ و ١٣ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ الفصل الثانى ص ٣٤٨ .

ما كان يخشاه وضمن تأييد الأمراء والنواب ، استدعى الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء ، فلما اجتمعوا خطبهم القاضى بدر الدين بن فضل الله ، قائلا : « ياأمير المؤمنين وياسادتى القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت ، وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية ، وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب . فاستقر الرأى على خلع الملك الصالح حاجى من السلطنة ، وجلس برقوق على العرش . وعلى أثر ذلك أدخلوا الملك الصالح الى دور الحرم بالقلعة ، وهو المصير الذى انتهى اليه اخواته السلاطين من قبل .

وفى الواقع أنه لم تكن هناك غير نهاية واحدة لهذه المجموعة من الدمى التى تبوأت عرش مصر منذ وفاة الناصر ، وقبضت على السلطة بصفة إسمية . وكان من الطبيعى أن يغتصب العرش أمير قوى ، كما فعل بيبرس وقلاوون من قبل . وكان هذا الأمير تلك المرة برقوق ، الذى تغلب أولا على منافسيه من أمراء العصر واحدا بعد واحد ، ثم خلع آخر سلاطين بنى قلاوون سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) وأسس دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

ويجب أن نعرف أن حكم بيبرس الأول (١٨ سنة) وقلاوون (١١ سنة) والناصر محمد (٤٢ سنة) والناصر حسن (١١ سنة) قد استغرق ثلثى مدة حكم سلاطين الدولة الأولى ، ومجموع السنوات التى ظل فيها سلاطين تلك الدولة كلهم متربعين على عرش مصر هو ١٣٤ سنة ، فيكون الباقى وقدره ٥٢ سنة هو الذى تولى الحكم خلاله بقية سلاطين الدولة الأولى وعددهم عشرون سلطانا ، ويكون متوسط حكم السلطان الواحد منهم سنتين ونصف تقريبا .

مظاهر الضعف فى سلطة أولاد الناصر وأحفاده :

كان السلاطين الذين اعتلوا العرش من أولاد الناصر وأحفاده أطفالا لم يبلغوا سن الرشد ، يولون ويعزلون أو يقتلون حسب إرادة أمراء ذلك العهد . ولا غرو فقد بلغ سن السلطان أحيانا خمس سنوات ! وكان أضعفهم إرادة ، أكثرهم قبولا لدى الأمراء . فاذا ما بدأ يعارض رغباتهم ، بادر الأمراء إلى عزله وتدبير أمر قتله أحيانا . ومن ذلك نرى أن الأمراء ، فى تلك الفترة ، قد فهموا من معنى الوراثة أن الجالس على عرش مصر ينبغى أن يكون من أبناء الناصر ، ولكن ليس من الضرورى أن يظل فى الملك حتى يموت بل يباح عزله أو قتله إذا أساء التصرف ، ما دام من يخلفه هو من أبناء الناصر ومن أخوات السلطان المخلوع .

وقد نتج عن صغر سن السلطان وقصر مدة حكمه ، ظهور نفوذ الأتابكة بشكل جلى ، وتركز السلطة فى أيديهم ، حتى لم يعد للسلطان وجود البتة إلا بالاسم ، وتضاءلت شخصيته ، حتى لم يكن يسمع عنه إلا وقت التولية وحين العزل .

وقد أدى ازدياد نفوذ الأمراء فى عهد هؤلاء السلاطين إلى استمرار التنافس والتحاسد بين أمراء الدولة وتدبيرهم الفتن وإقامتهم الدسائس بعضهم لبعض ، لعدم وجود سلطان قوى

يردع هؤلاء الأمراء عن غيهم ويقفهم عند حد لا يتعدونه . فكانت عهود أولئك السلاطين لا تخرج عن سلسلة من المؤامرات التى تولدها المنافسات والمشاحنات بين أمراء تقتضيهم مصالحهم أن يلتفوا حول شخص السلطان القائم وبين أمراء ينافسونهم فى مصالحهم هذه ويرون ان فى خلع السلطان وإقامة غيره خير وسيلة للنكاية بأعدائهم . ولذا كان يصحب خلع السلطان وتولية سلطان آخر مكانه اضطراب وفوضى لم تهدهما مصر فى عهد سلاطين المماليك الأقوياء .

وفى عهد سلطنة أولاد الناصر لم يفكر أحد الأتابكة فى الوصول إلى العرش . فقد قنعوا إذ ذاك بخلع السلطان والحجر عليه أو تدبير أمر قتله ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يرغبون فيه فى التخلص من السلطان ، ثم يعمدون إلى تولية أحد إخوته مكانه . وكان من الغريب حقاً عدم وصول أحد الأتابكة إلى عرش السلطنة فى تلك الفترة التى اعتلى فيها العرش سلاطين لم يبلغوا سن الرشد . على أنه يظهر أن فكرة وصول الأتابكة إلى عرش السلطنة قد جالت فى أذهان بعضهم ، ولكنها لم تستمر طويلا ، وسرعان ما اختفت لخوف هؤلاء الأتابكة من عدم تأييد الأمراء لهم فى تنفيذ فكرتهم ، لما كان بينهم من عوامل الحقد والتنافس على النفوذ ، فلم يكونوا يرضون أن يسودهم أحدهم خوفا من أن يستبد بهم ، بل كانوا يفضلون كثيراً أن يكون سلطانهم ممن لا شخصية له ولا إرادة ، حتى يتمكنوا من أن يصلوا فى عهده إلى تحقيق كل أمانيهم . وهذه الصفات التى تطلبوها فى السلطان قد توافرت فى أولاد الناصر .

ولكن بتعيين برقوق سنة ٧٨٣ هـ أتابكا للسلطان الملك الصالح زين الدين حاجى (٧٨٣ — ٧٨٤ هـ = ١٣٨١ — ١٣٨٢ م) حفيد الناصر محمد ، يعود عهد طموح الأتابكة إلى عرش السلطنة ، وذلك على نحو ما كان متبعاً منذ قيام دولة المماليك حتى وفاة السلطان الناصر محمد . فقد عمل برقوق منذ أن أصبح أتابكا على اعتلاء العرش ، ولم يمنعه من تنفيذ ذلك إلا خوفه من عدم تأييد الأمراء له . ولما اطمأن إلى زوال ما كان يخشاه ، خلع الملك الصالح حاجى من السلطنة وجلس مكانه على العرش . وبعزل الصالح حاجى وتولية أتابكه برقوق العرش ، ينتهى عصر أولاد الناصر وأحفاده . ويزول الملك عن بيت قلاوون ، بعد أن حكم مصر مائة وثلاث سنين ، قبض فيها قلاوون وابناه الأشرف صلاح الدين خليل والناصر محمد على زمام الأمور بأنفسهم ، بينما حكم الباقون من ذرية قلاوون حكما صوريا ، ولم يكن كل منهم أكثر من ألعوبة فى أيدى الأمراء .

الرقم	أسماء السلاطين	السن عند اعتلاء العرش	ابتداء السلطنة	نهاية الحكم	سنوات التولية والعزل بالهجرة والميلادى	مدة حكم كل منهم	الأمراء القابضون على زمام السلطة
١	المنصور سيف أبو بكر	٢٠ سنة	٢١ ذو الحجة سنة ٧٤١ هـ	٢٠ صفر ٧٤٢ هـ	٧٤١ — ٧٤٢ هـ ١٣٤٠ — ١٣٤١م	٣ أشهر	الأمير قوصون
٢	الأشرف علاء الدين كجك	٥ أو ٧ سنوات	١١ صفر سنة ٧٤٢ هـ	أول شعبان سنة ٧٤٢ هـ	٧٤٢ هـ و١٣٤١ م	٥ أشهر وعشرة أيام	الأمير قوصون
٣	الناصر شهاب الدين أحمد	٢٤ سنة	١٠ شوال سنة ٧٤٢ هـ	١١ المحرم سنة ٧٤٣ هـ	٧٤٢ — ٧٤٣ هـ ١٣٤٢ م	شهران و ١٢ يوما	بلمغا اليحياوى وبلكتمر الحجازى
٤	الصالح عماد الدين اسماعيل	١٧ سنة	١٢ المحرم سنة ٧٤٣ هـ	٤ ربيع الثانى ٧٤٦ هـ	٧٤٣ — ٧٤٦ هـ ١٣٤٢ — ١٣٤٥م	سنة وعدة أيام	آقسنقر السلارى
٥	الكامل سيف الدين شعبان	سنة	٤ ربيع الثانى ٧٤٦ هـ	٣ جمادى الآخر سنة ٧٤٧ هـ	٧٤٦ — ٧٤٧ هـ ١٣٤٥ — ١٣٤٦م	سنة وشهر و ٢٨ يوما	أرغون العلائى
٦	المظفر زين الدين حاجى	١٥ سنة	٤ جمادى الآخر سنة ٧٤٣ هـ	٢٧ جمادى الآخر سنة ٧٤٨ هـ	٧٤٧ — ٧٤٨ هـ ١٣٤٦ — ١٣٤٧م	سنة و ٣ أشهر	الأمير شيخو
٧	الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن (سلطنته الأولى)	١١ سنة	١٤ رمضان سنة ٧٤٨ هـ	١٧ جمادى الآخر سنة ٧٥٣ هـ	٧٤٨ — ٧٥٢ هـ ١٣٤٧ — ١٣٥١م	سنة ٣ شهر ٣ يوم ١٤	
٨	الصالح صلاح الدين صالح	١٤ سنة	٢٨ جمادى الآخر سنة ٧٥٢ هـ	٣ شوال سنة ٧٥٥ هـ	٧٥٢ — ٧٥٥ هـ ١٣٥١ — ١٣٥٤م	سنة ٣ شهر ٣ يوم ١٤	شيخو وطاز وصرغتش
٩	الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن (سلطنته الثانية)	١٥ سنة	٨ شوال سنة ٧٥٥ هـ	١٢ جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ	٧٥٥ — ٧٦٢ هـ ١٣٥٤ — ١٣٦١م	سنة ٦ شهر ٧ يوم ٧	

obeikandl.com

الرقم	أسمـــاء السلاطين	السن عند اعتلاء العرش	ابتداء السلطنة	انتهاء السلطنة	سنوات التولية والعزل بالهجرى والميلادى	مدة حكم كل منهم	الأمير أو الأمراء القابضون على زمام السلطة
١	المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر سيف حاجى ابن الناصر محمد بن قلاوون	١٤ سنة	٩ جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ	شعبان ٧٦٤ هـ	٧٦٢ — ٧٦٤ هـ ١٣٦١ — ١٣٦٣م	سنتين وأربعة أشهر	قشتمر المنصورى
٢	الأشرف زين الدين أبو المعالى بن شعبان ابن حسن بن الناصر محمد بن قلاوون	١٠ سنة	شعبان ٧٦٤ هـ	٣ ذى القعدة ٧٧٨ هـ	٧٦٤ — ٧٧٨ هـ ١٣٦٣ — ١٣٧٦م	١٤ سنة	يلبغا
٣	المنصور علاء الدين على بن الأشرف شعبان ابن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون	٦ سنة	٨ ذى القعدة ٧٧٨ هـ	١٣ صفر ٧٨٣ هـ	٧٧٨ — ٧٨٣ هـ ١٣٧٦ — ١٣٨١م	٦ سنة	أينبك البدرى وقرطاى وبرقوق
٤	الصالح زين الدين أمير حاج بن الأشرف بن ابن حسين بن الناصر محمد ابن قلاوون	١١ سنة	١٤ صفر ٧٨٣ هـ	١٩ رمضان ٧٨٤ هـ	٧٨٣ — ٧٨٤ هـ ١٣٨١ — ١٣٨٢م	سنة وتسعة أشهر	برقوق وبرخ

obeikandl.com

الباب الخامس

السياسة الداخلية

علاقة السلاطين بالمصريين

سياسة سلاطين المماليك قبل الناصر ازاء النصارى واليهود :

قاسى الأقباط ، قبل ظهور الاسلام ، كثيرا من أنواع الاضطهاد ، كغيرهم من المسيحيين : فقد اضطهدهم حكام رومه وأباطرة الدولة الرومانية الشرقية . إلا أن ظهور الاسلام أعطاهم فترة من الهدوء والاستقرار تحت حكم الخلفاء الأول الذين اتبعوا معهم سياسة عمر بن الخطاب . ومما يسترعى النظر أنه على الرغم من الاضطهاد الذى ناله الأقباط ، فان أفكارهم الدينية لم تقاوم ، بل تقدمت ، وأصبح للكنيسة القبطية القدرة على أن تعيش حرة وتحيا حتى الآن .

وفى مصر الاسلامية ، لم يتبع كل حكامها وولاتها سياسة واحدة فى معاملة الأقباط ، بل اختلفت هذه السياسة لينا وشدة ، ورأفة وعنفا . وأحسن معاملة رأوها ، كانت فى عصر الفاطميين ، فقد اتخذوا منهم الوزراء وأرباب المناصب العالية الذين جمعوا ثروة كبيرة وأصبحوا ذوى نفوذ وسلطان . وفى العصور الوسطى ، ظهر الأقباط فى مصر كطائفة محايدة ، وخاصة فى الحروب التى قامت بين المسلمين والصليبيين ، إذ لم يثبت أنهم مدوا يد المساعدة للمحاربين من الجانبين . لذلك تمتعوا بحماية الولاة الذين منحوهم أنواع الحرية الدينية .

ولكن فى عصر المماليك قاسى القبط كثيراً تحت حكمهم وان لم يتعرض المماليك لآرائهم الدينية ، وكانت الحروب الصليبية التى قامت فى أوربا ومصر فى القرنين السادس والسابع الهجرى (أى الثانى عشر والثالث عشر الميلادى) من العوامل التى ساعدت على عدم معاملة المماليك للأقباط المعاملة الطيبة التى عاملهم بها الفاطميون ، فان هزيمة قوات المماليك أمام قوات غرب أوربا ، كانت تستتبع انتقام المماليك لأنفسهم من أقباط مصر (١) .

كذلك لم يكن انتصار المماليك على الصليبيين خيراً ونعيما فى كل الأحوال للمسلمين فى مصر . فقد كان ينسب إليهم فى بعض الأحوال أنهم يشعلون النار فى أحياء القاهرة ، وكان المماليك والشعب ينتقمون منهم أشد الانتقام ، حدث ذلك مثلا لما انتصر السلطان الظاهر بيبرس على الفرنج وانتزع منهم أرسوف وقيصرية وطرابلس ويافا وأنطاكية (٢) ، فى بعض الأحيان

---

(١) A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 272 — 274.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٨ . Marcel ; Histoire de L'Egypte, p. 163.

كانت الحرائق تنسب إلى المسيحيين فى مناسبات أخرى (١)

وكانت طائفة الأقباط المنتشرة فى مصر فى عصر المماليك هى طائفة المسيحيين اليعاقبة . ولم تكن سياسة سلاطين المماليك فى معاملة هؤلاء واحدة ، بل اختلفت ليناً وشدة . والحق أن القبط كانوا ذوى نشاط ظاهر فى دواوين الحكومة المملوكية بل كانوا يديرون إقطاعات الأمراء المماليك فى معظم الأحيان ، فكانوا لازمين لحسن سير الأمور المالية فى البلاد . وكانت الحكومة تعرف ذلك ولكنها كانت تقصيهم عن الوظائف بين حين وآخر تحببا إلى الشعب وارضاء لروح التعصب . غير أن هذا الاقصاء كان قصير الأمد لأن وجودهم فى تلك الوظائف كان ضرورياً . وقد تكرر هذا الاقصاء فى عصر المماليك : فحدث سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) و سنة ٦٨٢ (١٢٨٣ م) و سنة ٧٠٠ (١٣٠١ م) و ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) و ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) و ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) و ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) و ٨٢٥ هـ (١٤١٢ م) و ٨٥٢ هـ (١٤٤٧ م) (٢) .

ومما ذكره المقريزى وما أخذه عنه ميور يتضح مثلا أن سياسة بيبرس فى معاملة النصارى واليهود لم تكن تنطوى على شىء من العطف . وأن السلطان قلاوون أبا الناصر قد حرم المسيحيين الالتحاق بالوظائف العامة ، وكان ينزل بهم أقسى أنواع العقاب (٣) . ويقول المقريزى عن معاملة قلاوون للنصارى : « فى سنة ٦٨٢ هـ كانت واقعة النصارى ، ومن خبرها أن الأمير سنجر الشجاعى كانت حرمته وافرة فى أيام الملك المنصور قلاوون ، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير فى أوساطهم ولا يجسر نصرانى يحدث مسلما وهو راكب واذا مشى فينزله وله يقدر أحد منهم يلبس ثوباً مصقولا » (٤)

وفى عهد السلطان خليل بن قلاوون قل اضطهاد النصارى ، وسمح لهم بالانخراط فى سلك الوظائف الحكومية والأهلية . ويظهر أن التفكير فى عودة هؤلاء إلى أعمالهم بعد إقصائهم كان يرجع إلى أنهم كانوا الفئة الوحيدة التى تصلح لادارة أعمال الدولة المالية حتى أن حكام مصر من المماليك كانوا يشعرون بخلل الأداة الحكومية بعد ترك الأقباط لها . وكان شعور المماليك يثور على رعاياهم من الأقباط بسبب استمرار ذلك العداء الذى قام بين المماليك والصليبيين .

وقد ذهب الأستاذ ڤييت إلى أن بعض ما كان يصيب القبط من اضطهاد وما كان يصدر

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) راجع مقال الأستاذ ڤيت (wiet) عن القبط فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٢ .

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 31—38.

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٩٧ .

من أوامر تقيد من حريتهم كان يحدث عند ما تكون الحكومة فى أزمة مالية وكان يقصد به أن يدفعوا الأموال للتخلص من تلك القيود (١) ويلوح كذلك أن المسلمين كانوا لا يثقون تماماً فى إخلاص القبط لهم ولا سيما حين يسدون اليهم النصح بشأن علاقتهم مع الأمراء المسيحيين (٢) . كما يظهر أن سخط المسلمين على القبط كان ينشأ أحياناً من نجاح الأخيرين فى جمع الثروات وفى وقف قسم كبير من أراضى مصر على الكنائس والأديرة (٣) وفى التسلط على عقول السلاطين والأمراء (٤) .

بيد أن سياسة السلطان الأشرف خليل التى كان قوامها الود وحسن التفاهم مع الأقباط سرعان ما تبدلت . فقد روى المقريزى عبارة نستدل منها أن كتّاب النصارى الذين التحقوا بخدمة الأمراء الخاصكية أساء بعضهم معاملة مرءوسيهم من المسلمين وأثاروا بذلك شعور الكراهية نحو أبناء هذه الطائفة . ولقد حدث أن أحد هؤلاء الكتاب — وكان بخدمة أحد أمراء الخاصكية ويعرف باسم عين الغزال — سب سمسار شونة الأمير وتوعده وأغلظ له القول لأنه تأخر فى تسليم بعض المال المستحق عليه من ثمن غلة الأمير وأمر غلامه بقيده ولم يصغ لاعتذار السمسار . وأثار بذلك سخط العامة فألقوه عن حماره وأطلقوا السمسار ثم ساروا إلى القلعة وقدموا الاحتجاجات للسلطان على ما وقع من الكاتب وما حدث للسمسار على يده (٥) . وبلغ من غضب السلطان أنه أمر بأن « ينادى فى القاهرة ومصر أن لا يخدم احد من النصارى واليهود عند أمير . وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام (٦) » .

وعلى أثر وقوع ذلك الحادث أسلم كثير من النصارى وأخذت عليهم إقرارات عرضت على السلطان فاعتمدها . على أن السلطان خليل لم يرد أن يتمادى فى إنزال العقاب بأهل الذمة من أجل تلك الحادثة فأمر بعدم نهب بيوت النصارى واليهود ، وهدد والى القاهرة كل من تعرض لهم بسوء بالشنق وقبض على عدد كبير من العامة وأمر بهم فشهروا وخمدت الفتنة .

عطف الناصر على النصارى واليهود :

ولكن الناصر كان أكثر عطفاً على النصارى ممن سبقه من سلاطين المماليك حتى إنه أمر باعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته وحباهم عطفه ومنع عنهم الضر والأذى . فتمتعوا فى

---

(١) راجع مقال الأستاذ ڤيت (Wiet) عن القبط (Kibt) فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) العمرى : التعريف جـ ١ ص ٦٣ — ٦٤ . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٦ .
(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٩ .
(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٩٧ .
(٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٩٨ .

عهده بالهدوء والطمأنينة وراحة البال، اللهم إلا إذا استثنينا بعض حوادث عارضة كانت تؤدى إلى تغير السلطان والعامة عليهم . ولكن تلك الحوادث كانت تزول بزوال الدافع إليها .

استمر الأقباط يتمتعون بتلك الطمأنينة حتى كانت سنة ٧٠٠ هـ ، إذ قدم فى شهر رجب من تلك السنة إلى القاهرة وزير أبى عنان فارس المرينى ملك مراكش استرعى نظره رجل يركب فرساً ، ويلبس عمامة بيضاء ، وفروجية مصقولة ، ويسير فى ركابه جماعة من الناس . يتضرعون إليه ، ويقبلون رجليه ، وهو يعرض عنهم وينهرهم ويأمر غلمانه بأن يطردوهم وهم يصيحون : « يا مولاى الشيخ ! بحياة ولدك النشو ، تنظر فى حالنا » . فلم يزده ذلك إلا تجبراً وعتواً . فتساءل هذا الوزير عمن يكون هذا الرجل الذى يحاط بكل مظاهر التبجيل والتعظيم . ولما علم أنه نصرانى غضب ، وسار إلى القلعة حيث قابل الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير ، وقص عليهما ما رآه ، وهو يبكى ، ووعظ الأمراء وحذرهم نقمة الله إن هم تمادوا فى حسن معاملتهم ، وأبان لهم أنهم فى بلاد المغرب يعاملون معاملة قاسية : فلا يسمح لهم بلبس الثياب الفاخرة ولا ركوب الخيل والبغال ، ولا العمل فى الدواوين السلطانية ، وذلك كله على عكس ما رأى فى مصر (١). وأشار عليهم بضرورة التزام « العهد العمرى » فيما يختص بمعاملة النصارى سواء من حيث الزى أو الاشتغال فى الوظائف .

هذا ما رواه المقريزى فيما يختص بالسبب الذى حدا بوزير ملك مراكش إلى إثارة حماسة الأهلين على النصارى . إلا أن كلا من أبى المحاسن وابن إياس قد روى هذه القصة على وجه آخر ، فقد ذكرا أنه بينما كان ذلك الوزير جالساً بباب القلعة ، إذ حضر بعض الكتاب النصارى ، وعلى رءوسهم العمائم البيض ، لعرض الأوراق على الأمير بيبرس الجاشنكير فقام إليهم الوزير المغربى وحياهم أحسن تحية وبالغ فى تعظيمهم ، على اعتبار أنهم من المسلمين . فلما قيل له إن هؤلاء من النصارى دخل على السلطان الناصر ، وتكلم معه فى ضرورة تغيير زيهم ليتميزوا عن غيرهم من المسلمين ، وتعود مصر إلى التزام « العهد العمرى (٢) » .

وقبل أن نتكلم عن المرسوم الذى أصدره الناصر وما انطوى عليه من شدة فى معاملة النصارى يجب أن نلاحظ أنه إنما صدر بتحريض رجل لا يمت إلى المصريين بصلة . ومن المؤكد أن نفس هذا الرجل لم تتشرب روح العدل والمساواة بين الأهلين مهما اختلفت أديانهم وتباينت نحلهم . تلك الروح التى سادت عهود حكم العرب منذ ظهور الإسلام والتى كانت من العوامل التى جعلت « المصريين » — وكان السواد الأعظم منهم من القبط — يرحبون بفتح مصر على يد عمرو بن العاص ليخلصهم من الاضطهادات الدينية التى حلت بهم إبان حكم الرومان . ومن الغريب أن ذلك التحريض وذلك الانقلاب قد حدث فى وقت كان فيه المصريون يعيشون

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٩٨ ؛ كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٠٩ — ٩١٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٢ . ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٣

جميعاً فى سلام ووئام وخاصة فى قرى مصر . أما فى المدن فان المنازعات التى قامت بين المسلمين والأقباط لم تعد أن تكون حوادث فجائية لا تؤثر فى تلك الحقيقة الواضحة الملموسة ، وهى أن المصريين قبطاً ومسلمين كانوا يعتبرون أنفسهم جنساً واحداً يشترك فى تحمل عسف بعض أمراء المماليك .

مرسوم رجب سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) [١] :

ومما يدعو الى الأسف أن الناصر والأمراء تأثروا بكلام وزير مراكش . فأمر السلطان فى ٢٠ رجب سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) بعقد مجلس فى المدرسة الصالحية بين القصرين حضره حكام مصر وقضاتها وفقهاؤها . واستدعى بطرك الأقباط وديان اليهود (رئيسهم الدينى) وجماعة من الأساقفة وأكابر الكهنة وأعيان الملة المسيحية واليهودية . وندب قاضى القضاة شمس الدين احمد السروجى الحنفى لينوب عن المسلمين فى هذا المجلس . وطال الجدل بين المسلمين من جهة وبين النصارى واليهود من جهة أخرى فى مدى الشروط التى يصح أن تفرض على أهل الذمة .

وقد وردت القيود التى فرضت على النصارى واليهود بايجاز فى كتب المقريزى وابى المحاسن وتاريخ سلاطين المماليك ، كما أخذ عنهم المؤرخون المحدثون أمثال ميور Muir ولينبول Lane-Poole [٢] . على أن النويرى قد ذكر هذه القيود بالتفصيل فقال :

« وبحث الفقهاء فى ذلك ، فاقتضت المباحث الشريفة بين العلماء أن يميز النصارى بلبس العمائم الزرق ، واليهود بلبس العمائم الصفر ، وتميز نساء أهل كل ملة كذلك بعلامة تظهر ، ولا يركبوا الخيول ، ولا يحملوا سلاحا ، ويركبون الخيول الحمر بالأكف عرضاً من غير تميز لها ولا قيمة . ويتجنبوا أوساط الطرق للمسلمين فى مجالسهم عن مراتبهم ، ولا يرفعوا أصواتهم على أصوات المسلمين ، ولا يعلوا بناءهم على بناء المسلمين ، ولا يظهروا شعانينهم ، ولا يضربوا بالنواقيس ، ولا ينصروا مسلماً ولا يهودوه ، ولا يشتروا من الرقيق مسلما ، ولا من سباه مسلم . ولا ما جرت عليه سهام المسلمين ، ومن دخل منهم الحمام يميز نفسه بعلامة عن المسلمين بجرس فى حلقه ، ولا ينقشوا فصوص خواتيمهم بالعربى ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا

---

(١) بخصوص هذا المرسوم راجع Journal Asiatique, Serie IV, tome 18, pp. 425 et Seq.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ٤٩٨ — ٤٩٩ . السلوك جـ ١ ص ٩١٠ — ٩١١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٢ .

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 60—61.

Zetterstéen, p. 87.

Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 301.

يستخدموا فى أعمالهم الشاقة مسلما ، ولا يرفعوا النيران ، ومن زنا منهم بمسلمة قتل » . (١)

ومما زاد هذه الحالة سوءا ذلك المرسوم الذى صدر فى ٢٠ رجب من تلك السنة (٧٠٠ هـ) يحرم استخدام أحد من النصارى أو اليهود بديوان السلطان أو بدواوين الأمراء الا من أسلم منهم . ونودى فى القاهرة بأن كل من خالف أحد هذه القيود كان جزاؤه القتل . وقد حاول النصارى واليهود التحرر من هذه الشروط أو من بعضها وبذلوا الأموال الوفيرة . فلم تلق هذه الالتماسات أذناً مصغية من السلطان الذى أمر باغلاق الكنائس بمصر والقاهرة حتى اضطر كثير من النصارى الى اعتناق الاسلام ليتخلصوا من هذه القيود ويحتفظوا بوظائفهم (٢). ولم يقتصر الأمر على أفراد هاتين الطائفتين المقيمتين بديار مصر بل أمر الناصر باذاعة هذا المرسوم فى جميع الأراضى الممتدة فيما بين النوبة والفرات عدا الكرك والشوبك لقلة عدد المسلمين فى كل منهما ولذلك لم يغير النصارى لون عمائمهم (٣) .

والظاهر أن السلطان أمر بغلق كل الكنائس فى مصر ، إلا كنائس الاسكندرية . ولعله استثناها كى لا يترك مجالا لأهلها فى طلب توسط بعض الدول الأجنبية ، ومع ذلك فان المسيحيين الملكانيين أصابتهم قيود المرسوم السلطانى . وسنرى أن سفراء من امبراطور بيزنطة وملك أرجون سيفلحون فى تخفيف تلك القيود والحصول على قرار بفتح بعض الكنائس .

ويظهر أن تدخل الوزير المراكشى قد فعل فعله فى نفوس أمراء مصر حتى إننا نرى أن هذا المرسوم الذى صدر يكاد يكون صورة طبق الأصل مما أشار به هذا الوزير . وكان إصغاء أولى الأمر من المسلمين فى مصر لنصيحته ، غريبا فى بابه إذ أنهم لم يراعوا ظروف كل من البلدين من حيث درجة المدنية وموقف الطوائف بعضها من بعض وموقفها من الهيئات الحاكمة ، فان المسلمين والأقباط كانوا مصريين قبل كل شىء . يضاف إلى ذلك أن طائفة القبط كانت هى الطائفة التى درجت على إدارة شئون الدولة بوجه عام وإدارة الشئون المالية بوجه خاص ، حتى إن العرب قد أقروهم فى وظائفهم اعترافا منهم بكفايتهم لتولى مناصب الدولة . قال أحد المؤرخين المحدثين فى هذا الصدد : « وخوفا من عدم فهم الحقيقة التى دفعت المماليك إلى طرد الأقباط من الوظائف ومعاملتهم هذه المعاملة السيئة ، نرى أن ذلك لم يكن كله نتيجة التعصب الدينى . فان المسلمين من المصريين الوطنيين كثيرا ما كانوا يقاسون ما يقاسيه القبط على يد الطبقة الحاكمة من المماليك (٤) » .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٣٠ أ . راجع أيضا القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٧٧ — ٣٨٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩١١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩١٢ .

(٤) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 61.

A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 274—275, footnote. 2.

وقد أثر صدور هذا المرسوم تأثيراً سيئاً فى حالة الأمن العام فى مصر : فقد اتخذه الغوغاء ذريعة لنهب الأقباط وسلبهم واغتصاب أموالهم والتحرش فى الطرقات بكل من يرى منهم بغير الزى الذى رسم له أن يظهر به ، وعمد بعض العامة فى الاسكندرية الى تخريب كنيستين من كنائس النصارى بتلك المدينة (١) . وسار الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المسيطر على شئون مصر مع الأمير سلار نائب السلطنة اذ ذاك على سياسة اضطهاد النصارى واليهود . فأمر باغلاق الكنائس بمدينة القاهرة . وذكر المقريزى أن بيبرس أمر كذلك بابطال عيد الشهيد بمصر . إذ جرت عادة الأقباط بأن يلقوا فى النيل فى كل عام تابوتا من خشب بداخله إصبع من أصابع أسلافهم الموتى . وكانوا يعتقدون أن النيل لا يزيد إلا إذا ألقى فيه هذا التابوت كما كانوا يفدون من جميع جهات القطر إلى شبرا لمشاهدة رمى الاصبع . ويخرج أهالى مصر والقاهرة على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيام على شاطىء النيل وفى الجزائر القريبة منه . وأضاف المقريزى إلى ما تقدم أن إبطال هذا العيد قد شق على النصارى وأن شكواهم لم تلق من بيبرس الجاشنكير أذنا مصغية لاعادة الاحتفال به . وغدا ذلك الأمر من العوامل التى أثارت النصارى على المسلمين فى عهد سلطنة الناصر محمد الثانية (٢) . على أن الناصر لم يكن مسئولا عن كل ما نال القبط من اضطهاد فى تلك الفترة ، فانه فى الواقع لم يكن له إذ ذاك من الأمر شىء ، وكان المسئول عن تلك الحركة كلها هما الأميران سلار وبيبرس .

مفاوضات دول أوربا بشأن النصارى واليهود :

على أن تأثير قرارات رجب سنة ٧٠٠ هـ قد أخذ يتضاءل شيئا فشيئا على مر السنين والأيام وتناسى الناس كثيرا من القيود التى وردت فى ذلك المرسوم حتى كاد يهمل ويبطل العمل به . وعاد الناصر إلى العمل على تسوية المسيحيين واليهود بالمسلمين فى تقلد مناصب الدولة العامة وسمح لهم بركوب ما يشاءون من دواب . ولكن مساعيه فى السماح لهم بلبس العمائم كما كانوا من قبل ذهبت أدراج الرياح ، وخاف إن هو فعل ذلك أن يناوئه المسلمون ويدبروا له الفتن والدسائس .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩١٢ .
Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٨٧ — ٨٨ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٩ وجـ ٢ ص ٥٠٠ راجع أيضاً العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٣٦١ . السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ١٢ .

وأعيد عيد الشهيد فى أواخر عهد الناصر محمد سنة ٧٣٨ هـ ، وما لبث أن ألغى ثانية سنة ٧٥٥ هـ فى عهد السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد ، ولم يعد هذا العيد مرة أخرى منذ ذلك العهد. راجع المقريزى : السلوك جـ ٣ (مخطوط) ص ١٥ — ١٧ .

إلا أن العامل الأساسى الذى حدا بالناصر إلى إنصاف المسيحيين يرجع إلى مفاوضات مباشرة فى مصلحتهم من عدة جهات :

(الأولى) من جانب امبراطور القسطنطينية الذى أرسل إلى السلطان الناصر السفراء يحملون الهدايا ، كى يعامل المسيحيين الشرقيين من أبناء مذهبه فى مملكته معاملة تنطوى على العطف واللين . ويظهر أن توسط الامبراطور كان له أثره الطيب فى موقف الحكومة المصرية ازاءهم بوجه عام ، وفى مصلحة الاغريق الملكانيين بوجه خاص ، وكان هؤلاء يكوّنون أقلية بين مسيحى مصر (١) .

(الثانية) من جانب البابوات . فانهم طلبوا من الناصر أن يعامل رعاياهم النصارى برفق ، ليعاملوا المسلمين المقيمين فى بلاد الغرب بمثل تلك المعاملة (٢) . وكانت النتيجة المباشرة لجميع المحاولات التى بذلها البابوات فى هذه السبيل الحصول على بعض المزايا التى قد تتمتع بها طائفة المسيحيين فى الشرق .

(الثالثة) فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، أرسل ملوك أرغونه بعض الرسائل إلى السلطان الناصر بالتوصية على جميع المسيحيين المقيمين فى المملكة المصرية . مع إعادة فتح الكنائس فى مصر والأراضى المقدسة .

ويهمنا من هذه المفاوضات تلك الرسائل التى تبودلت بين أحد ملوك أرغونة (برشلونة) المدعو يعقوب الثانى Jaime II والسلطان الناصر محمد خلال سلطنتيه الثانية والثالثة ما بين سنتى ١٢٩٢ — ١٣٢٧ م . وقد بلغ عدد هذه الرسائل ستا ، كتبت فى سنى ١٣٠٣ و١٣٠٥ و ١٣١٤ و ١٣١٨ و ١٣٢٢ و ١٣٢٧ م ، على حين بلغ عدد الرسائل التى بعث بها الناصر إلى يعقوب ثمانيا (٣) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن أخلاق الناصر محمد قد ساعدت على تقريب وجهة النظر بين أرغونة ومصر ، فيما يختص بمعاملة الحكومة المصرية للمسيحيين ، على الرغم من عداوة المصريين التقليدية للجنس اللاتينى منذ قيام الحملات الصليبية الأولى . ولا غرو فقد كان الناصر ملكا مستنيرا ، وسياسيا محنكا ، يميل إلى المسالمة التى لا تنقص هيبته أو تخفض مكانته . ومالك هذه سجاياه ، لا يرفض توثيق العلاقات الودية بينه وبين الممالك الشرقية أو الغربية ،

---

(١) Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, p 375.

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 73.

(٣) تناول الدكتور عزيز سوريال عطية رسائل ملك أرغونة The Aragonese Letters بالتفصيل فى مؤلفه Egypt and Aragon .

راجع أيضا فى موضوع الناصر وأهل الذمة خلال سلطنته الثانية

Weil : Abbasidenchalifat in Egypten, pp. 269 et seq.

الاسلامية والمسيحية على السواء . ومن ثم نرى الناصر يشجع إيفاد بعثات من تلك الأمم إلى بلاده حتى لقد أصبح بلاطه مركزاً للسفراء الأجانب الذين حملوا إليه أطيب أماني ملوكهم . وساعد على ذلك تمتع مصر فى سلطنة الناصر الثالثة بشىء كثير من الاستقرار والطمأنينة . هذا إلى أن هذه البعثات التى أوفدها يعقوب الثانى إلى بلاط الناصر قد ضمنت لسلطان مصر حليفا عظيما ، ساعده على فض التحالف الذى عقده البابوات وأنصارهم لاقامة العراقيل فى سبيل تجارة المماليك والحيلولة دون وصول المواد الحربية والمماليك الجدد إلى مصر (١) .

ويمكن تلخيص الغرض من هذه البعثات فيما يلى : إيجاد علاقات صداقة وحسن تفاهم بين مصر وأرغونه ، والحصول على ميزات تجارية لتجار أرغونه فى المملكة المصرية ، وتسهيل سبيل الحج إلى الأراضى المقدسة لأهالى الغرب ، وإطلاق سراح المسجونين المسيحيين فى مصر وخاصة الذين ينتمون إلى أصل أرغونى . وأهم من هذا ، وهو المحور الذى تدور عليه هذه البعثات ضمان حسن معاملة الأقباط ومسيحيى الشرق (٢)

وبينما اعتبر يعقوب نفسه فى مراسلاته مع الناصر ، حامى مسيحى الشرق ، فان الناصر قد اعتبر نفسه أيضا مسئولا عن رفاهية المسلمين المقيمين تحت حكم المسيحيين فى اسبانيا . وهنا نرى لزاما علينا أن نوضح سلسلة هذه المراسلات الرسمية التى تبودلت فى تلك الفترة بين الملكين : الناصر ويعقوب .

بدأ الناصر الاجابة عن أولى هذه المراسلات بكتاب مؤرخ فى ١٣ من شوال سنة ٦٩٩ هـ (٦ من أبريل سنة ١٣٠٠ م) . وليس فى رده ما يدل على أن الملك يعقوب فاتحه فى معاملة النصارى واليهود فى مصر ، وانما يدل رده على أن الناصر قد أجاب ملك أرغونة إلى طلبه فى توثيق عرا الصداقة بينهما مما عد تمهيداً لارسال رسائل أخرى . يقول الناصر فى هذا الصدد « وعلمنا من مضمون كتابه ومشافهته ما قصده فى معنى التجار والمترددين من بلاده بالبضائع وما سأله من أن يكونوا يترددون من بلاده إلى بلادنا آمنين مطمأنين وأجبناه إلى ما قصده فى ذلك . . . وفى معنى من يختار الحضور من بلاده لزيارة بيت المقدس الشريف وما سأله من تمكينهم من ذلك وأن يكونوا آمنين مطمأنين ، فقد علمنا بذلك وأجبناه إلى قصده من هذا الأمر . . . وإنا قد أجبنا سؤاله إلى ما طلبه فى الصحبة والمودة فنحيط علمه ونواصل بكتبه وأخباره » (٣) .

وفى أول يونية سنة ١٣٠٣ م وصلت إلى الناصر رسالة ثانية من الملك يعقوب يرجو منه

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon, pp. 11—12.

(٢) A. S. Atiya : Egypt and Aragon, pp. 67—68

(٣) A. S. Atiya : Egypt and Aragon, pp. 18—19.

فيها إعادة فتح الكنائس ، مقابل حرية العبادة لجميع الطوائف فى إسبانيا المسيحية ، وإطلاق سراح المسجونين من أهل أرغونة .

وقد رد السلطان الناصر على رسالة الملك يعقوب فى ١٣ شوال سنة ٧٠٣ هـ (١٩ مايو سنة ١٣٠٤ م) ، وقد خصص معظم كتابه للرد على مسألة معاملة الأقباط وإعادة فتح بعض الكنائس . وهاك رد الناصر على هذا الكتاب :

« فأما ما ذكره بسبب الكنائس بالديار المصرية ، وأنه بلغه أنه أغلقت أبوابها ومنع النصارى من الصلاة فيها ، وما ذكره فى هذا الفصل وما يتعلق به ، وكذلك حديث الأسرى الذى قصد قبول شفاعته فى الافراج عنهم وإطلاقهم ، فقد أحطنا على جميع ما ذكره فى هذه الأمور وسيّرنا الآن رسولنا الأمـــير فخر الدين عثمان الناصرى فيشافه الاعتماد على ذلك . ولأجل منزلته ومودته الأكيدة عندنا أجبنا سؤاله فى أمر الكنائس ورسمنا بفتح كنيستين بمدينة القاهرة المحروسة ، مع أن أمر الكنائس الرجوع فيه إلى الشرع الشريف ، ومقتضى الشرع الشريف أن لا يبقى منها شيء مفتوحا إلا ما هو من العهد العُمرى ، وكلما تجددت بعد العهد العمرى يقتضى شرعنا ودِيننا ألا يفتح واتفق أنه تجددت بعد العهد العمرى كنائس كثيرة ، والملك يعلم أنكم كما يجب عليكم الوقوف عند شرعكم وأحكام دينكم ، كذلك نحن أيضاً يجب علينا أن نقف عند شرعنا وأحكام ديننا ، وقد سيرنا له الهدية » (١) .

ويظهر أن رأى الناصر محمد فى مسألة اغلاق الكنائس التى استحدثت بعد عمر بن الخطاب اتفق مع رأى الغلاة من مفتى الديار المصرية . ولذا يجب أن يذكر بالشكر والامتنان توسط يعقوب وجهوده فى هذا السبيل ، وأن تقدر سياسة الناصر الحكيمة وآراؤه المستنيرة ، إذ أنه على أثر هذه المراسلات التى تبودلت بين الملكين ، أمر الناصر باعادة فتح كنيستين هما : كنيسة اليعقوبيين فى حارة زويلة ، وكنيسة القديس نقولا الملكانية ، وفتح الأقباط حرية العبادة(٢) . كذلك يتضح من إرسال أحد المصريين رسولا إلى بلاط أرغونة يحمل اليه الهدايا من السلطان الناصر قد أجاب مطالب الأرغونيين وأن ذلك قد أدى إلى إيجاد علاقات ودية متينة بينه وبين ملكهم .

ولم تمض على هذه الرسالة غير سنة واحدة ، حتى أرسل الملك يعقوب فى أول سبتمبر سنة ١٣٠٥ م رسولا يدعى Neymerich (Eymerich) فى بعثة ثالثة إلى السلطان الناصر وافتتح يعقوب كتابه باعلان سروره واغتباطه بوصول الأمير فخر الدين إلى برشلونة ، ثم تقدم إلى السلطان فى هذه المرة يرجوه إجابة هذين الطلبين الخاصين بالرعاية المسيحيين فى مصر : أولهما حماية المسيحيين المقيمين فى المملكة المصرية ، وثانيهما إطلاق سراح الأسرى المسيحيين

---

(١) Atiya : Egypt & Aragon, p. 22.

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩١٢ .

فى مصر . وقد رد الناصر على تلك الرسالة فى أول شعبان سنة ٧٠٥ هـ (١٦ فبراير ١٣٠٦ م) وكان رده من أقوى الأدلة على توثيق علاقات الود بين سلطان مصر وملك أرغونة . أما الأمر الأول فقد أكد الناصر ان المسيحيين الذين يرغبون فى السفر إلى الأراضى المقدسة لاداء فريضة الحج ، سيؤدون هذا الحج فى أمن وطمأنينة . وأما عن الأمر الثانى فقد أجاب الناصر طلب يعقوب وأبلغه أنه أمر باطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين فى مصر . وقد أشار هنا إشارات لطيفة ليبين أنه لم يكن بين هؤلاء الأسرى أحد من أهل أرغونة ، مما يدل على أن تلك المراسلات التى تبودلت بين المملكتين قد أحدثت تأثيراً طيباً من حيث معاملة رعايا أرغونة فى مصر . وقد أوحت روح الود والوئام إلى الناصر فأبلغ ملك أرغونة أنه أمر والى الاسكندرية بضمان سلامة تجار أرغونة المقيمين بتلك المدينة ، مما كان له أحسن الأثر فى نفس الملك يعقوب ، حامى المسيحيين فى مصر . وكان لهذا الروح أثره فى نفوس رعايا السلطان من الأقباط (١) .

وانتهز الملك يعقوب فرصة ذلك التحسن الملحوظ فى أحوال المسيحيين فى مصر أثراً لتلك المراسلات ، فعزم على أن يخطو خطوات أخرى فى هذا السبيل ، فأرسل فى ٨ ديسمبر سنة ١٣١٤ م إلى الملك الناصر رسولين يحملان كتاباً يطلب اليه فيه إطلاق الحرية الدينية لجميع الرعايا المسيحيين فى أراضى السلطان وحماية الحجاج إلى الأراضى المقدسة وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين فى مصر .

وفى ١٠ من ذى الحجه سنة ٧١٤ هـ (١٧ مارس سنة ١٣١٣ م) استقبل الناصر رسل الملك يعقوب بالحفاوة والترحيب ، وبعث إليه برد لم يجبه فيه بوضوح إلى طلبيه الأولين الخاصين بمنح الحرية الدينية للمسيحيين ، وحماية الحج إلى بيت المقدس ، ولكنه تناول مسألة الأسرى المسيحيين بشىء من التفصيل والايضاح ، وخص بالذكر اثنين من هؤلاة الأسرى هما : فريركليام ifrir Killiam وفرير دالماط Ifrir Dalmàt . وهاك رد الناصر على مطالب يعقوب :

« محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون »

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك الجليل المكرم الخطير ، الباسل الضرغام الزير (تقرأ الزائر) ، يعقوب (Jaime) العالم فى ملته ، العادل فى مملكته ، عز الأمة المسيحية ، نصرة دين النصرانية ، فخر الملة العيسوية . عمدة بنى المعمودية ، صاحب أرغون وبلنسية وجزيرة سردينية وكرسقة وكومسن ، وبرجلونه ، ومقدم البحر ، وأمير علم كنيسة رومية . . . فأما ما ذكره من محبته لنا ، وتقربه إلى خواطرنا ، وإثاره العمل بما تقتضيه آراؤنا الشريفة ، فقد علمنا جميع ما ذكره من ذلك وأقبلنا على إخلاص محبته ، وشكرنا هذا القصد الجميل والنية

(١) Atiya : Egypt & Aragon. pp. 26—28.

الصالحة ، وتحققنا بذلك حسن مودته وعمله على التقرب من خواطرنا وإن كان بعيداً عنا ، وصار له بذلك عندنا المكانة الجيدة والمحل الذى يسره ، فيستمر على ما وضعه من موالاته وإخلاصه فى المحبة لأيامنا الشريفة ، ويواصل بكتبه وأخباره ، وما لعله يعرض له من المقاصد والمطالب . وأما ما ذكره فى مشافهته التى تحملها رسله عنه من أمر الأسرى الذين قصد إطلاقهم بمقتضى الورقة التى أحضروها صحبتهم فقد علمنا ذلك . والذى نُعْمِلُه به أن هؤلاء الذين حصل طلبهم من المفسدين وممن كانوا يوافقون على الأذية فى البلاد ، وإنما لأجل خاطر كلام حضرة الملك وإرساله بسببهم ، وسؤاله فى معناهم ، أطلقنا الموجودين منهم فى هذا الوقت ، وهم الأكابر المعتبرين (صحتها المعتبرون) منهم الأعيان وهم : فرير كليام وافرير دالماط ورفقتهم ستة نفر . . ، وأما ما جهزه مع رسله من الهدية المباركة المسيرة بذلك ، فقد وصل صحبة رسله ، وعرض بين أيدينا ، وقابلناه بالقبول وحسن موقعه من إقبالنا . — وقد سيرنا لحضرة الملك من أبوابنا الشريفة على سبيل البركة ما تضمنته المسيرة . . . مثالنا هذا من الخزائن العالية لما للملك أبقاه الله فى خواطرنا من علو المكانة والمنزلة ، فيحيط علمه بذلك . (١) » .

ومهما قيل من أن هذه الوثيقة لم تتضمن رداً صريحاً على مطالب الملك يعقوب الأولين فان اللهجة التى كتبت بها تدلنا بوجه عام على أن الناصر كان موافقاً على مبدأ منح الحرية الدينية للمسيحيين وعلى حماية الحجاج اللاتين عند سفرهم الى الأراضى المقدسة ، كما تدلنا على نمو علاقات الصداقة والمودة بين الملكين كما يتضح من تبادل الهدايا بينهما وحسن استقبال الرسل من الجانبين ، مما يدل دلالة واضحة على أن السلطان الناصر لم يكن من المتعصبين على المسيحية عن اعتقاد وإيمان . فالحق أنه لم يشتد فى معاملتهم إلا حين تدخلت ظروف خارجية أملت عليه هذه المعاملة .

وفى ٢٧ أغسطس سنة ١٣١٨ م بعث الملك يعقوب برسالة خامسة إلى السلطان الناصر يطلب فيها تسريح الأسرى من المسيحيين وأشار يعقوب على رسله بأن يحاولوا إقناع الناصر باطلاق سراح المسيحيين من أهل أرغونه إذا حدث أنه تردد فى إطلاق سراح الأسرى المسيحيين كلهم (٢) . وليس لدينا الوثائق التاريخية التى نستطيع منها أن نعرف نتيجة هذه السفارة معرفة دقيقة . ولكن الراجح أن الناصر لم يحمل الرسل رداً على تلك الرسالة كما كان يفعل قبل ذلك

مرسوم سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) :

كان النصارى يتمتعون بعطف الناصر الذى كان يبذل قصارى جهده فى سبيل إنصافهم وإقامة العدل بينهم . وقد عوملوا فى عهده أحسن مما عوملوا به من قبل . ولا غرو فقد حاول

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon, pp. 36—38

(٢) Egypt and Aragon, p. 43.

التخفيف من وقع المرسوم المذل الذى صدر فى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) حتى كاد يصبح فى زوايا النسيان ، وحمى الكنائس من التخريب وأعاد فتح كثير منها ، ورفض أن يصدق الوشاة بأن كل حريق أو تدمير أو إضرار يقع للأهلين يكون ناشئاً عن المؤامرات التى يثيرها النصارى (١) .

على أن بعض فقهاء المسلمين قد بدءوا يعلنون تذمرهم من المبالغة فى التراخى مع المسيحيين . وعلى الرغم من كل المجهودات التى بذلت لتهدئة خواطر المتذمرين ، فان العامة قد اقتحموا بعض الكنائس وخربوها ونهبوا أموالها (٩ ربيع الثانى سنة ٧٢١ هـ = ١٣٢١ م) . ويهمنا أن نتبين موقف السلطان الناصر إزاء تلك الحوادث ، فان ما ذكره المقريزى تعليقاً على ما أتاه العامة يدلنا على أن الناصر لم يكن راضياً عن تلك الأعمال : « فلما خرج الناس من الجامع رأوا غباراً ودخان الحريق قد ارتفعا إلى السماء . . . فبهتوا وظنوا أنها الساعة قد قامت . . . فأنكر السلطان ارتفاع الأصوات بالضجيج وأمر الأمير ايدغمش بكشف الخبر فلما بلغه ما وقع انزعج لذلك انزعاجاً زايداً ، وتقدم الى ايدغمش أمير آخور فركب بالوساقية ليقبض على العامة ليشهر بهم » (٢) .

وحاول العامة مرة أخرى القيام على النصارى . وهنا يعود المقريزى إلى توضيح موقف الناصر من تلك المحاولات بما لا يجعل مجالا للشك فى أن العامة إنما قامت بذلك العمل من تلقاء نفسها وأن السلطان وحكومته وأمراء مصر لم يكونوا راضين عن أعمالهم وأن ثورة العامة تطورت لا بدافع التعصب الدينى بل بقصد النهب والسلب والتخريب . يقول المقريزى « فلشدة ما نزل بالسلطان من الغضب همّ أن يركب بنفسه ثم أردف ايدغمش بأربعة أسرى ساروا إلى مصر وبعث بيبرس الحاجب والماس الى موضع الحفر وبعث الخيال الى القاهرة ليضع السيف فيمن وجدوه . فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرت النهابة . فلم يدرك الأمراء منهم الا من غلب على نفسه بالسكر من الخمر » (٣) .

ومما لا يترك مجالا للشك فى أن الناصر برىء من كل ما أتاه العامة وأنه لو علم بأمر تلك المؤامرات التى دُبرت ضد النصارى لاتخذ كل احتياط يكفل منعها ، أن المقريزى عاد مرة ثالثة فبين ذلك فى عبارة واضحة : « وصار السلطان يشتد غضبه من العامة ، والأمراء تسكن غضبه . . . وهو يشتد على العامة ويريد البطش بهم فهرب كثير منهم » (٤) .

كان من الطبيعى أن تثير هذه الحوادث شعور المسيحيين فعمدوا إلى إشعال النيران فى

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 212.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢١٧ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

القاهرة ومصر واندلع لهيبها من ١٥ جمادى الأولى سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) إلى نهاية ذلك الشهر ، حتى كاد لا يخلو منها موضع فى القاهرة ومصر . وشاع أن النصارى هم مدبرو هذا الحريق (١) ، انتقاماً من المسلمين الذين هدموا الكنائس وخاصة أن الجوامع ودور العبادة قد أصابها ما أصاب غيرها من الكنائس (٢) . ومن ثم أعيد تنفيذ القرار الذى أصدره السلطان الناصر فى رجب سنه ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) خاصا بمعاملة النصارى .

وقد أورد العينى المرسوم الذى أذيع بين سكان مصر وأرسل إلى ولاة الأقاليم ، وهاك نصه بعد البسملة : « وبعد فاننا لما أقدمنا الله لنصرة الاسلام وأهله وصرّفنا فى كل عقد وحله ، وأيدنا بنصره ، وعصمنا بحبله ، لم يزل يعلى كلمة الايمان ، ويظهر شرائع الاسلام فى كل مكان ونقف عند الأوامر الشرعية ، لتكون كلمة الكفر هى السفلى ، وكلمة الله هى العليا . وكانت جماعة من مفسدى النصارى قد تعدوا وطغوا ، وتمادوا فى المخالفة إلى ما يقتضى نقض العهود ، وبغوا ومكروا مكراً كبارا ، فأدخلوا نارا ولم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . اقتضى رأينا الشريف أن نأخذهم بالشرع الشريف ، ونجدد عليهم عهود النبوة ، وأن نقرر على من شمله عفونا منهم أن يكونوا تحت سيوفنا مرتهنة ، وأن يلبسوا العمائم الزرق والجباب الزرق ، وأن يشدوا الزنانير ، وأن لا يستخدم أحد منهم إلا أن يثبت إسلامه ويصح إيمانه »(٣) .

بذلك عاد الحال بالنسبة للنصارى إلى ما كان عليه فى سنة ٧٠٠ هـ فمنعوا من أن يتزيوا بزى المسلمين وطردوا من دواوين السلطان والأمراء وأغلقت الأديرة والكنائس حتى إن كثيراً من النصارى اعتنقوا الاسلام كما فعلوا سنة ٧٠٠ هـ ليحتفظوا بوظائفهم ويتخلصوا من تلك القيود التى فرضت عليهم (٤) .

---

(١) قال أبو المحاسن (النجوم الزاهرة ، مخطوط ج ٤ القسم الأول ص ٢٣٠ — ٢٣٣) ان الناس استمروا فى شك ممن دبر هذا الحريق حتى عثروا فى ليلة ٢١ جمادى الأولى على راهبين خارجين من المدرسة الكهارية وقد أشعلا فيها النار فقبض عليهما وجيء بهما إلى علم الدين سنجر والى القاهرة ، فرأى أن رائحة الكبريت والزيت تفوح منهما . فأحضرهما فى اليوم التالى إلى حضرة السلطان الناصر ، وبينما هما كذلك إذ أحضر العامة نصرانيا آخر قبضوا عليه وهو خارج من جامع الظاهر بالحسينية ، بعد أن وضع النفط والقطران بجانب المنبر . ودل هذا الرجل على جماعة ممن عملوا النفط وورعوه عليه وعلى زملائه ليشعلوه فى المساجد ، كما اعترف الراهبان الآخران بأنهما من دير النعل وأنهما أحرقا سائر الأماكن التى أحرقت تشكاية فى المسلمين الذين هدموا الكنائس ، كما اعترفا باشتراك أربعة عشر راهبا بدير النعل معهم فى هذا الأمر . وكانت نتيجة هذا الاعتراف أن اشتد سخط العامة على الأقباط وأهانوهم .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 73—75.

(٣) العينى : عقد الجمان ج ٢٣ القسم الثانى ص ٢٩٦ .

(٤) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٣٥ .

على أنه لا يخامرنا الشك فى أن الناصر إنما أُكره على إصدار هذا القانون ردعاً لجماعة من « مفسدى النصارى » كما ذكر فى مرسومه الجديد الخاص بهم وتسكيناً لثورة العامة عليهم وأن ذلك لم يكن نتيجة لتعصب دينى . ويستدل على ذلك مما ذكره ستانلى لينپول تعليقاً على هذه الحوادث : ورضخ الناصر لهذا النداء وأعيد القانون السابق وأقفلت كنائس المسيحيين الذين لم يجرءوا على الظهور الا متخفين ... ومع ذلك فقد استعمل السلطان نفوذه فى مصلحتهم وكان بعض وزرائه من النصارى الذين تظاهروا بالاسلام كما أن الناصر استخدم كثيراً من أبناء هذه الطائفة فى وظائف الدولة العامة لأنهم كانوا رجال أعمال مبرزين ولأنهم كانوا أقل خطراً على عرشه من المسلمين »(١) . ويقول ميور فى هذا الصدد : « أما الناصر ووزراؤه فقد وقفوا موقفاً يذكر لهم بالثناء والحمد إذ أنهم حاولوا صد هذا التيار الجارف ولكنهم حين أخفقوا لم يروا بدا من تنفيذ القوانين بكل صرامة ... وقد هجم جماعة من المماليك على وزير كان قد انتحل الاسلام حديثاً بزعم أن ميوله لم تزل مسيحية . وفى هذا ظهر الناصر أيضاً بمظهر الثبات وأعاد المشاغبين إلى حظيرة القانون . ومما يدل على أن الناصر قد وقف من العامة موقف الحزم بعد وقوع هذا الحادث بزمن يسير، أن أحد الصوفيين المتعصبين رأى أحد المسلمين يقبل يد أحد كتاب السر المسيحيين بدمشق فهجم عليه وقتله . فأمر السلطان بشنق هذا الصوفى وتعليق جسمه على باب المدينة غير مبال بصياح العامة وحماستهم لتخليصه »(٢) .

وفيما نقلناه عن اثنين من مؤرخى الفرنجة يتبين أن الناصر قد أحسن معاملة النصارى حتى بعد هذه الحوادث . ولولا ما أبداه من الحكمة وما أظهره من الحزم بسبب ما أبداه العامة من عثت فى تنفيـــذ ذلك القانون الجديد لتفاقمت حال النصارى ، وعمت الفتن وانتشرت الحروب الأهلية فى كل أرجاء دولة الناصر .

ومع أن الناصر عين بعض وزرائه من النصارى فانه كان لا يتردد فى أخذهم بالشدة واغتصاب أموالهم وإزهاق أرواحهم إذا أساء أحدهم التصرف أو داخله الشك فى أعمالهم . ولم تكن معاملة الناصر لوزرائه النصارى مقصورة عليهم ، بل أن تلك المعاملة كان يجرى عليها مع من يحيد عن الصراط المستقيم من أمراء مصر وكبار الموظفين وغيرهم من المتصلين به لا فرق فى ذلك بين مسلم ونصرانى ويهودى .

وفى خلال هذه الحوادث التى قامت بين النصارى الساخطين وبين العامة المتحمسين ظهر على مسرح السياسة المصرية بعض النصارى الذين وقفوا حياتهم للذود عن أبناء جلدتهم ودفع الأذى عنهم . ومن هؤلاء الوزير عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصرى ويلقب « كريم الدين » الكبير أبا الفضائل وزير الناصر ومدير الدولة الناصرية »

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 310.

(٢) Muir ; The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 73—75.

أسلم هذا الوزير فى سنة ٧٠٨ هـ وهو فى سن الشيخوخة ، وذلك فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير الذى اتخذه كاتبا لسره . ويقول ابن أياس أن نفوذ هذا الوزير قد بلغ مبلغا كبيراً حتى أن السلطان الناصر كان لا يستطيع — فى تلك الفترة التى ضيق فيها عليه سلار وبيبرس الجاشنكير — الحصول على شىء من نفقاته إلا بعد موافقة الوزير كريم الدين .(١) واستمرت الحال على ذلك حتى هرب بيبرس الجاشنكير وعاد الناصر إلى القاهرة وجلس على عرشه للمرة الثالثة ، فقبض على هذا الوزير وصادر أمواله التى قيل إنها بلغت مائة ألف دينار . إلا أن جماعة من أمراء مصر شفعوا له عند السلطان حتى عفا عنـــه وعينه فى وظيفة « ناظر الخاص » التى استحدثت فى عهد الناصر ، فكان كريم الدين بذلك أول من عين فى تلك الوظيفة .

عظم شأن كريم الدين بعد ذلك حتى صار يركب فى موكبه سبعون من المماليك والأمراء . وقد بالغ فى إظهار إسلامه فعمر كثيراً من المساجد ، وكان يبذل أموالا ضخمة فى أعمال الخير ويتصدق على الفقراء الذين كانوا يزدحمون ببابه ، فيتناول كل منهم نصيبه منها(٢). وبرغم هذا كله ، لم ينل هذا الوزير رضا العامة الذين كرهوه وحاولوا اغتياله مرات لسوء معاملته لهم ، ولأنه لم يلتزم جانب الحياد فى أثناء هذه الفتنة التى قامت بينهم وبين الأقباط ، ولما جمعه من الأموال الهائلة من الشعب بكافة الطرق مشروعة وغير مشروعة (٣).

لذلك أمر السلطان فى سنة ٧٢٣ هـ بمصادرة دوره وأمواله وأمره بأن يلازم داره بالقرافة ثم بعث به إلى الشوبك ثم إلى بيت المقدس حيث أعيد إلى القاهرة وأرسل الى أسوان حيث قتل ، ولا بأس من أن نذكر عبارة الشوكانى لنتبين مدى ثروة هذا الوزير « لما أمر السلطان بنقل موجوده إلى القلعة على بغال . كان أولها بباب بيته وآخرها بباب القلعة . . . وكان عدد الصناديق التى فيها أصناف العطر من العود والعنبر والمسك أحداً وأربعين صندوقا » (٤) .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٣٥ — ٢٣٦ . الشوكانى : البدر الطالع جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٣) تدلنا الحادثة الآتية على مبلغ كره العامة للوزير كريم الدين . يقول أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٣٣) إن كريم الدين لما خرج إلى الميدان على ما جرت به عادة السلطان ووزرائه رآه العامة ، وصاحوا : « كم تحامى للنصارى » وسبوه ورموه بالحجارة . فعاد إلى الميدان واستشار الأمراء فى أمر العامة ، فأشار عليه نائب الكرك بعزل الكتاب النصارى من الدواوين تسكينا للفتنة . فلم يرضه ذلك وطلب من الناس الحاجب أن يخرج فى أربعة أمراء ويضع السيف فيهم حتى ينتهى إلى باب زويله ويمر إلى باب النصر ولا يرفع السيف عن أحد . وأمر والى القاهرة أن يتوجه إلى باب اللوق وباب البحر ويقبض على من يجده من العامة ويحمله إلى القلعة ، ثم تقدم إلى السلطان والتمس منه إجابته فى القبض على العامة . وعلى الرغم من التفاف الجند حوله فإنه لم يستطع الخروج من الميدان والسير فى الطريق المعتاد إلى القلعة ، بل تحول إلى ما وراء السور حتى انتهى إليها .

(٤) الشوكانى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٤ .

ولسنا نعرف أين كان بيته ولا بعده عن القلعة ، ولكن ظاهر رواية الشوكانى أن ثروة هذا الوزير كانت طائلة جدا .

ومن وزر للسلطان الناصر من القبط الذين أسلموا رجل يقال له « شرف الدين النشو » وقد أجمع المؤرخون على أن مدة حكمه لم تكن سوى سلسلة من الفظائع ، لما ارتكبه من أعمال القسوة والوحشية فى معاملة الناس حتى أثار حنق الأهلين وسخطهم عليه(١). وقد قيل إنه كان يبتز الأموال من الناس متظاهراً بالمقر والاملاق حتى أنه كان يقترض من الواحد مبلغا يتراوح بين ثلاثين درهما وخمسين درهما . ولم يلبث أن ضخمت ثروته وكثرت أمواله حتى قاربت الأربعة والعشرين ألف دينار .

فلما اتصل بمسامع السلطان الناصر شدة عسف هذا الوزير وتلك الثروة الطائلة التى استحوذ عليها والأساليب التى اتبعها فى جمعها أمر بالقبض عليه . وقد روى أبو المحاسن أنه وجد فى بيته وخمسة عشر ألف دينار من الذهب العين وألفان وخمسمائة حبة لؤلؤ تتراوح قيمة الحبة الواحدة منها من ألفين إلى ألف وسبعمائة درهم . . . وقطعة زمرد فاخر زنتها رطل ، ونيف وستون قطعة من اللآلئ الكبيرة زنة كل لؤلؤة منها أربعمائة مثقال ، ومائة وسبعون خاتما ذهبا وبفصوص مثمنه وكف مريم مرصع بجوهر وصليب ذهب مرصع وعدة قطع مزركشة عداعدة حواصل لم تفتح » . (٢)

وهكذا آل أمر هذا الوزير الذى قتل مع أمه وأخيه فى ٢ ربيع الثانى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤١م) ودفن بمقابر اليهود تحقيراً لشأنه وأقيم الحراس على قبره أسبوعا خوفا من نبش العامة له وإحراق جسده . وكانت مدة وزارته سبع سنين وسبعة أشهر .

استئناف المفاوضات لمصلحة المسيحيين :

وقفنا بالمفاوضات التى دارت بين يعقوب ملك أرغونة وبين الناصر فى صالح المسيحيين عند سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨م) . والآن بعد أن تطورت الحوادث فى مصر ضد المسيحيين وصدر مرسوم سنة ٧٢١ هـ مجدداً الشروط التى اشتمل عليها ذلك المرسوم الذى صدر فى سنة ٧٠٠ هـ والذى حوى كثيراً من القيود والشروط التى تقلل من حرية الأقباط ، نرى يعقوب يجدد مساعيه لمصلحة هذه الطائفة ويجد من السلطان الناصر قبولا لمطالبة مما عده الناس فألا حسناً وبداية طيبة لعهد وئام وسلام بين المسلمين والأقباط .

بدأ يعقوب بعثاته الجديدة فى سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) . فطلب من الناصر جعل أمر حماية مقبرة المسيح عليه السلام وإدارتها من اختصاص الاخوان الدومنيكان التابعين لمملكة

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egygt, p. 75.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٦١ .

أرغونة ، وأن يكون مسكن البطريرك تابعاً لتلك الادارة لقربه من القبر المقدس . كما رجا يعقوب السلطان الناصر أن يسلم رسله بعض بقايا قيل إنها فى حوزة الناصر وتشمل بعض أجزاء من الصليب الأصلى ، وجسم القديسة بربارة Barbara عربوناً لهذه الصداقة المتبادلة بينهما. وتلك المطالب تبين لنا أن الملك يعقوب اعتبر نفسه حامى المسيحيين فى دولة المماليك . إلا أن الناصر رد عليه فى ١٥ صفر سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) رداً غامضاً غير صريح فيما يتعلق بهذين الطلبين ، على الرغم من أنه أدخل فى قلبه الطمأنينة من ناحية النصارى ووعد بحسن معاملتهم .

وأهم ما ورد فى ذلك الرد هو « وأما النصارى فهم عندنا موقرو الجانب على ما يسره لأنهم رعايانا . . . وبحمد الله ما يكون أحد من رعايانا الا موقر (وصحتها موقرا) من جميع المكاره آمناً من كل ما يسوءه (وصحتها يسوؤه) أو يشوش عليه ، فيكون مستقر الخاطر بهذا السبب . . . ونحن نعرفه أنه بلغنا أن جماعة من المسلمين الذين فى بلاده الذين استقروا بعد ما استفزت عليهم أحوالهم ، لهم عوايد متقدمة بالكرامة والرعاية وعدم المقارضة فى المساجد المستقرين بها وأنهم الآن ربما تغيرت عوائدهم فى ذلك وصاروا لا يتمكنون من التأذين فى مساجدهم وإقامة الصلاة بها . والمراد من محبته الصادقة أن يتقدم بالوصية التامة بجميع من فى بلاده وإجرائهم على أكمل عوائدهم وأكمل قواعدهم ، ولا يغير عليهم مغير فى مساجدهم ، والاعلان بصلاتهم ، وكف الضر عنهم ورعاية جانبهم ، فهو يعلم أننا قد ألقى الله علينا مقاليد سائر أهل الاسلام حيث كانوا وأين كانوا ، فأى مكان وجد به أحد المسلمين كانوا متعلقين بنا ويتعين علينا رعايتهم ، فيفعل فى أمرهم ما نتخذ له به أكمل المودة وأجل الصحبة » (١)

وفى هذا الخطاب اتضحت نيات الناصر إزاء النصارى . وكأنه أراد أن يكون إكرام الأقلية من الجانبين ، وألا تكون المعاملة الطيبة لرعاياه من النصارى فحسب ، بل أن تقابل بمثلها للرعايا المسلمين فى أرغونه ، وأن يبين أن مصر قد أصبحت فى عهده مركز الجامعة الاسلامية وان المسلمين سواء منهم المقيمون فى مصر أو فى أرغونة أو فى سائر أقاليم العالم يجب أن يعيشوا فى أمن وطمأنينة ورخاء فى كنف الناصر باعتباره حامى الاسلام فى الشرق والغرب . وتثبتاً لهذه الفكرة حج الناصر فى أثناء سلطنته ثلاث حجات : أولاها سنة ٧١٢ هـ وثانيها سنة ٧١٩ هـ وفيها كسا الكعبة كسوة حريرية صنعت فى الاسكندرية ونظف مكان الطواف بيده وأنعم على فقراء مكة وزار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ووزع على فقراء المدينة المنورة خمسين ألف دينار (٢). والحجة الثالثة كانت فى سنة ٧٣٢ هو وفيها صنع للكعبة باباً مصفحاً بالفضة أنفق عليه خمسة وثلاثين ألف درهم وأمر بتعبيد طريق الكعبة . (٣)

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon p, 49.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ .

وجملة القول أن السلطان الناصر قد أحسن — فى أثناء مدة حكمه الطويل — إلى كل من الأقباط والمسلمين ، وهم الذين كانوا يعرفون باسم « المصريين » ، وعمل على إرضاء كل فريق منهم اللهم إلا اذا استثنينا هذه الظروف التى أدت إلى معاملة احدى هاتين الطبقتين معاملة فيها شيء من الشذوذ . كما أنهم عاشوا جميعا فى عهده فى أمن وطمأنينة وهدوء نسبي . ولا غرو فقد بادله المصريون حبا بحب ووفاء بوفاء وعضدوه فى محنته التى مر بها وبخاصة فى غضون هذه الحوادث التى أثارها بعض أمراء مصر فى وجهه .

وسار أولاد الناصر محمد وأحفاده على سياسة أبيهم فى العطف على المسيحيين ، إلا أنه فى عهد ابنه السلطان الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢ — ٧٥٥ هـ = ١٣٥١ — ١٣٥٤ م) وقعت بضع حوادث أدت الى إصدار السلطان فى ٢٢ جمادى الآخر سنة ٧٥٥ هـ مرسوما يشبه مرسوم رجب سنة ٧٠٠ هـ نص فيه على أنهم « يمنعوا من الخدم فى جميع الأعمال ، ولا يستخدم نصرانى ولا يهودى فى ديوان السلطان ولا فى شيء من دواوين الأمراء . وأن تكون عمامة النصرانى واليهودى عشرة أذرع ويلزموا بزيادة صبغها وأن لا يستخدموا مسلماً ، وأن يركبوا الحمير بالاكف واذا مروا بجماعة من المسلمين نزلوا عن دوابهم وأن تكون قيمة حمار واحد منهم أقل من ماية درهم وأن يلجئوا الى أضيق الطرق ولا يكرموا فى مجلس وأن تلبس نساؤهن مغيرة الزى اذا مررن فى الطرقات حتى أخفافهن تكون لونين ولا يدخلن حمامات المسلمين مع المسلمات » (١) . وتبع ذلك هدم بعض كنائسهم ومساكنهم . ولكن ما لبثت الحال أن عادت الى مجراها الطبيعى ودخل كثير من النصارى فى الاسلام وعادوا الى مباشرة أعمالهم ثم تزوجوا من المسلمات وصار من بين أولادهم « قضاة وشهوداً وعلماء » .(٢) ولم تقع بعد ذلك حوادث من هذا النوع تستحق الذكر فى البقيـــة الباقية من عصر دولة المماليك البحرية وهدأت الأمور واستقرت الاحوال .

سياسة السلاطين ازاء المصريين عامة : حب الشعب للناصر .

كان سلاطين المماليك محاطين بفئة كبيرة من الأمراء على جانب عظيم من الثروة وكثرة الأتباع . ومما درسناه من حوادث عصر المماليك خاصة وعصر الناصر فى عصر سلطنتيه الأولى والثانية يتبين لنا أن خلع السلطان لم يكن دواماً عن طريق الأتابك بل كان يحدث أحياناً على يد أمراء الدولة الأقوياء إذا لم يحز السلطان القائم رضاءهم . لذلك لم يكن السلطان يأمن على نفسه من غدر أمراء مصر ، وخاصة أنه كان موقناً بقدرتهم على الدس لمن لا يردعهم :

---

(١) راجع هـذا المرسوم فى المقريزى : السلوك ج ٣ (مخطوط) ص ١٧ . والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ القسم الأول ص ١٣٣ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٧ .

وكانت قوة شكيمة الأمراء وضعف السلطان أمامهم من الأمور الظاهرة فى عهد سلطنتيه الأوليتين ، بل لقد اتضحت للعيان رغبته فى جلب رضاهم صيانة لعرشه وتثبيتا لملكه وكانت صفة الغدر التى تأصلت فى نفوس المماليك تجعل كل فريق منهم لا يأمن جانب الفريق الآخر .

وقد رأينا سهولة اغتصاب عروش أولاد السلاطين فيما فعله الأمير قطز مع المنصور على ابن أيبك سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧م) وما قام به الأمير قلاوون مع سلامش بن بيبرس سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، وما فعله الأمراء كتبغا ولاچين وبيبرس الجاشنكير مع الناصر محمد بن قلاوون . ولكن هؤلاء المغتصبين الأولين الذين اغتصبوا عرش ابن أيبك وابن بيبرس لم يمكنوا السلاطين المعزولين من العودة إلى عروشهم ، على حين نجد أن مغتصبي عرش الناصر انهار ملكهم بعد فترة قصيرة عاد الناصر بعدها إلى عرشه .

ولعل السبب فى انتصار الناصر محمد بن قلاوون على مغتصبي عرشه ، أنه كان محبوباً من الشعب وأن هؤلاء المغتصبين لم يوفقوا فى إرضاء زملائهم من الأمراء ولم يوفقوا فى إرضاء الشعب . فكان الأمراء الآخرين وأفراد الشعب يحنون إلى الناصر ويعملون على نصرته . ولسنا ننكر أن الرأى العام لم يكن له أثر كبير فى ذلك الوقت ، ولكن حب الشعب للناصر كان يؤيده فريق كبير من الأمراء مما ظهر أثره فى إخفاق المغتصبين ورجوع الناصر إلى عرشه . والملاحظ أن هذا الحب المتبادل بين الناصر وشعبه يمكن أن يعد عاملا جديداً لم يظهر أثره بوضوح الا فى ذلك العهد .

وان استقبال الشعب للناصر عند عودته من الكرك إلى القاهره فى جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨م) بعد أن ذاقوا الأمرين فى أثناء حكم كل من كتبغا ولاچين — مغتصبي عرش الناصر — لأكبر دليل على تقديرهم لبيت قلاوون ومحبتهم للسلطان الناصر . يقول أبو المحاسن :

« فخرج الأمراء وجميع الناس قاطبة للقائه وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بهما أحد فرحاً بقدومه . وكان خروجهم فى يوم السبت ، وأظهر الناس لعودته إلى الملك من السرور ما لا يوصف ولا يحد . وزينت القاهرة ومصر بأفخر زينة ، وأبطل الناس معايشهم وضجوا له بالدعاء والشكر لله على عودته إلى الملك . وأسمعوا حواشى الملك العادل كتبغا والملك المنصور لاچين من المكروه والاستهزاء مالا مزيد عليه ، واستمروا فى الفرح والسرور إلى يوم الاثنين ، وهو يوم جلوسه على تخت الملك »(١)

ويتضح أمامنا من سلسلة الحوادث التى أرغمت الناصر على الخروج من مصر فى نهاية سلطنته الثانية سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) مقدار حب الشعب له وعدم رضائهم عن اعتلاء

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١١٦ .

المغتصبين عرش مصر ورغبتهم فى دوام حكم بيت قلاوون لهم .

ولا غرو فقد غلا الأميران سلار وبيبرس فى التضييق على الناصر كما بينا ، فعزم على التخلص منهما ، واتصل ذلك بعلمهما فأخذا حذرهما منه ، وحاصر أعوانهما الناصر فى القلعة بضع ساعات . ويمكننا أن نتصور مقدار احترام الشعب المصرى لأسرة قلاوون ومحبتهم للسلطان من مسلك عامة الشعب حين انتشرت بينهم الاشاعة بعزم الأمراء على الغدر بالناصر بقتله أو إقصائه عن مصر ، فقد عز ذلك على الأهالى لما كانوا يكنونه له ولأبيه من حب وولاء . وساروا فى جموع غفيرة إلى القلعة واجتمعوا أمامها وعلا صياحهم وأعلنوا أنهم لا يريدون أن يلى الملك أحد من غير بيت قلاوون .

وكان من هتاف العامة الدال على ما كانوا يكنونه للناصر من حب ولأبيه قلاوون من ود قولهم : « يا ناصر يا منصور ! » ، تلك العبارة التى ابتهلوا فيها إلى الله أن ينصر السلطان الناصر على أعدائه الأمراء الذين حاولوا اغتصاب عرشه.. وليس من شك فى أن اجماع العامة على مؤازرة الناصر على أمرائه قدزاد فى هلع هؤلاء الأمراء حتى اضطربت أحوالهم واشتد خوفهم إذ أنهم لم يتوقعوا أن تصل حماسة الشعب فى تأييده للناصر إلى هذا الحد . فانه لما ندب سلار وبيبرس من يقمعهم بالقوة تعذر عليهم الأمر إذ أيقنوا أن حماسة الشعب كفيلة بهزيمتهم وأنهم لا بد هالكون إذا تصدوا لهذا التيار الجارف . وكان من هتافهم المدوى قولهم : يا ناصر يا منصور الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » (١)

ويمكننا أن نتصور مدى حماس الشعب فى حماية شخص الناصر والذود عن ملكه إذا علمنا أن الأمراء قد خضعوا لمشيئتهم وخطبوا ودهم حين اشتد عنف المتظاهرين . فقد تكلم فيهم الأمير بتخاص (٢) ، قائلا : « طيبوا خاطركم ، فان السلطان قدطاب خاطره على أمرائه ! » واذ ذاك لم يجد كل من سلار وبيبرس بدا من الاذعان والخضوع للسلطان . فبعثا إليه من يبلغه أنهما « من مماليكه وفى طاعته » (٣) . وأشارا باخراج من عمل على إيقاد نار الفتنة بينهما وبين السلطان من مصر . فأخرج السلطان على كره منه عدداً من مماليكه . وعقب ذلك دخل الأمراء على السلطان وقبلوا الارض ثم قبلوا يده .

وبذلك انتهى هذا النزاع بانتصار السلطان . وهو أمر كان بعيد الوقوع قياسا على الحوادث التى كانت تجرى فى مصر إذ ذاك . إلا أن اخماد الفتنة لم يؤد إلى تصافى الفريقين ، وإعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، بل أننا نرى تحكم كل من سلار وبيبرس فى أمور المملكة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣ .

(٢) رئيس القوة التى أرسلها سلار وبيبرس لقمع ثورة العامة .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٧٣ .

يشتد ، حتى اضطر الناصر إلى مغادرة مصر والاستقرار فى الكرك . ونرى حب الشعب له واضحاً جليا ، حين خرج لتوديعه فى أثناء رحيله من القاهره سنة ٧٠٨ هـ كما نرى أن الشعب كان موقنا بعداوة الأمراء للناصر ورغبتهم فى الفتك به إذا حانت لهم الفرصة . يقول أبو المحاسن عن خروج الناصر من القلعة وما أظهره العامة فى أثناء ذلك من محبة لشخصه وكراهية لأعدائه من الأمراء : « ونزل من القلعة ومعه جميع الأمراء وخرج العامة حوله وحاذوا بينه وبين الأمراء وهم يتباكون حوله ويتأسفون على فراقه ويدعون له » (١).

ومما يدلنا على مبلغ حب الشعب المصرى للسلطان الناصر ، أنه لم يهتم بزوال عهد السلاطين الذين اغتصبوا عرشه . أما الناصر فان كبار الأمراء وقفوا فى صفه . من ذلك ما أعلنه بعض أمراء الشام من رفض موافقتهم على سلطنة بيبرس الجاشنكير ، وكان أولئك الأمراء من أكبر الشخصيات بين أمراء الشام ويعد وقوفهم بجانب الناصر فى محنته من أشرف المواقف ، لأنهم صمموا على ألا يحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها له بالاخلاص لشخصه والالتفاف حول عرشه . ويعتبر ذلك الحادث الاول من نوعه ، كما يعتبر تأييد الشعب المصرى لعرشه الأول من نوعه كذلك . ومن أقوالهم التى أوردها المؤرخون بصدد امتناعهم عن الحلف لبيبرس الجاشنكير ، والتى أوردنا نصوصها فى الباب الثالث تتبين مدى تأييدهم له وتفانيهم فى حبه ونياتهم إزاء عرشه .

كذلك لما اشتد الحال على بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وعلم أن اسم الناصر قد ذكر فى خطبة الجمعة على منابر دمشق ، أراد أن يثبت عرشه وجددت له البيعة وحث الخليفة الناس على طاعة بيبرس والولاء له وقرأ الخطباء هذا العهد بالمساجد يوم الجمعة . وهنا يبين لنا العينى بعبارة جلية مدى حب الشعب للناصر وتلهفه لعودته . فانهم « لما شرعوا فى قراءتها بعد الصلاة وثبت العامة عموما وصاحوا جميعا : لسنا لهذا الكلام سامعين ولا لقول من قاله طائعين ولا نعرف لنا سلطانا إلا الملك الناصر »(٢). لذلك أبطلت قراءة الخطبة واضطر بيبرس الجاشنكير أن يعلن أنه خلع نفسه من الملك وفر هاربا . وهنا يبرهن لنا كل من العينى وأبى المحاسن على ذلك الحب المتبادل بين الناصر والشعب المصرى . فيذكر كل منهما أنه لما اتصل بالعامة خبر هرب بيبرس أدركوه وهو خارج من القلعة وتبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة .(٣)

لذلك لا نعجب اذا رأينا الناصر يحكم فى سلطنته الثالثة حكما مطلقا ، حتى أنه لم يجرؤ أحد من أمراء مصر — الذين أقلقوا باله فى سلطنتيه الأولين — على مخالفة أوامره . وأصبح

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٦ .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ القسم الأول ص ١٥٢ .

(٣) العينى : نفس المصدر والجزء والقسم ص ١٦٨ . أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٧١

طول تلك المدة مهيباً فى نظر الأمراء حتى أن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يفوه بكلمة واحدة إذا كان بحضرته وحتى أنهم كانوا لا يلتفت بعضهم إلى بعض خوفا منه بل لا يستطيع أحد أن يذهب إلى بيت الآخر لزيارته أو يلبي دعوته إلى وليمة إلا باذن منه . وقد بلغ من شدة حرص الناصر أنه إذا صدرت من أحدهم هفوة كان مصيره القبض عليه والنفى من الديار المصرية(١). وكذلك كانت معاملته لكل أمير ظهر بمظهر القوة أو شق عصا الطاعة أو حاول القيام بالثورة . بذلك صفا له الجو فى سلطنته الثالثة وأتيح له أن يقوم بكثير من الاصلاحات كما سيأتى .

(١) المقريزى : الخطط ج ص ٣٠٥ .

الباب السادس

السياسة الخارجية

حروب مصر وعلاقاتها بمختلف الدول

بعد أن تكلمنا على السياسة الداخلية فيما يتعلق بعلاقات السلاطين بالمصريين بوجه عام وعصر الناصر بوجه خاص ، ننتقل الى الكلام على علاقات مصر فى ذلك العصر بمختلف الدول والحروب التى قامت بها لنتعرف ما كان بينها وبين تلك الدول من ود وصفاء أو عداوة وجفاء وسيتضح لنا من سياق هذا البحث ما تمتعت به مصر فى عصر المماليك عامة وعصر الناصر خاصة من مركز ممتاز بين دول العالم الهامة : شرقية كانت أو غربية فقد نشأت بينه وبين مغول فارس ومغول الهند ومغول القفجاق علاقات عدائية أو ودية ، كما أنه أخضع أرمينية ، وبسط نفوذه على بلاد اليمن والحجاز . ووسع ملكه فى إفريقية ، وأصبح بلاطه مركزاً لسفراء الدول الأوربية الذين حضروا إلى مصر حاملين الهايا والكتب المرسلة من ملوكهم يطلبون فيها من الناصر حسن معاملة المسيحيين ويعبرون عن تقديرهم لسلطان مصر ويعترفون باتساع نفوذه ويؤكدون حبهم وإخلاصهم له .

١ — علاقات مصر بمغول فارس [1]

معرفة المغول بالمماليك قبل الناصر :

كانت إغاره المغول على بلاد فارس فى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) ، إحدى الغارات التى أثرت تأثيراً عظيما فى تاريخ الأمم والبلاد الواقعة فى أواسط آسيا وجنوب شرقى أوربا ، والتى اكتسحها المغول بجحافلهم وأنزلوا بها من الويلات ما يفوق حد التصور .

---

(١) ظهر المغول فى عالم التاريخ حولى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، فى الجهات الشمالية من بلاد الصين فى الأراضى التى نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك وهم يمتون إليهم بصلة قوية . ويطلق على المغول اسم « التتر » أو « التتار » أيضا . وقد اختلفت تسميتهم باختلاف العصور . ويظهر أن الشعوب التى كانت مغولا فى الأصل واللغة كانت تسمى نفسها باسم « التتر » (أو التتار) . إلا أن تلك التسمية قد غيرت رسميا بعد چنكيزخان — وهو الثامن من سلالة مؤسس هذه الأسرة — بكلمة « مغل Moghul أو Moghol » فى بلاد منغوليا وفى أواسط آسيا وكذا فى بلاد الهند فيما بعد . الدكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام بين المغول (صحيفة الجامعة المصرية ، مايو سنة ١٩٣٣ ، ص٢٣)

وكانت بلاد الفرس من البلاد التى دخلت فى حوزة المغول (١) . ولم يأت عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) حتى سقطت بغداد فى يد هولاكو ، وصحبه ابنه أباقا (٢) الذى اشترك معه فى فتوحه . وخلفه بعد وفاته وتوج فى ١٩ يونيه سنة ١٢٦٥ م عاهلا على دولة أبيه ، فكان بذلك ثانى إيلخانات المغول فى فارس .

وقد أحسن أباقا خان معاملة المسيحيين وقرّبهم إليه . وبالغ بعض المؤرخين فقالوا إنه تعمد فى صباه واعتنق المسيحية إجابة لرغبة عروسه دسپينا Despina المسيحية ابنة الامبراطور ميخائيل پاليولوجس Michael Palaeologus . إلا أن الأستاذ براون نفى هذه الدعوى وبين أن العلاقة الودية التى قامت بينه وبين البابا وملوك أوربا وصليبيى الشام هى التى دفعت هؤلاء المؤرخين إلى الاعتقاد بانه اعتنق المسيحية ، وأن عطفه على المسيحيين إنما يرجع لحد كبير إلى زواجه من أميرة مسيحية (٣) . وسواء أكانت هذه النظرية صائبة أم خاطئة ، فان ما يهمنا فى هذا الصدد هو أن العلاقات الودية بين المغول والمسيحيين زادت المغول قوة ضد دولة المماليك ، التى هى أقوى الدول الاسلامية وألد أعداء المغول .

وكان من حسن حظ المماليك فى مصر أن أتاح الله لهم رجلا قوى الشكيمة واسع الحيلة ، استطاع أن يدرأ عن بلاده خطر التحالف المسيحى المغولى ، ذلك الرجل هو بيبرس الذى

---

(١) نثبت فيما يلى إيلخانات فارس فى العهد المملوكى نقلا عن لينپول :

١	— هولاكو	٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م .
٢	— أباقا	٦٦٣ هـ = ١٢٦٥ م .
٣	— أحمد تكودار	٦٨٠ هـ = ١٢٨٢ م .
٤	— أرغون	٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م .
٥	— جيخاتو	٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م .
٦	— بيدو	٦٩٤ هـ = ١٢٩٥ م .
٧	— غازان محمود	٦٩٤ هـ = ١٢٩٥ م .
٨	— أولجاتيو خدابنده	٧٠٣ هـ = ١٣٠٥ م .
٩	— أبوسعيد	٧١٦ هـ = ١٣١٧ م .
١٠	— أرپا	٧٣٦ هـ = ١٣٣٥ م .
١١	— موسى	٧٣٦ — ٧٤٥ هـ = ١٣٣٦ — ١٣٤٤ م .

راجع E. de Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam, p. 244.

Lane-Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 220.

والمصادر المذكورة فى مقال Olcaitu بدائرة المعارف الاسلامية .

(٢) ويسميه بعض المؤرخين أبقاخان . أنظر مقال الأستاذ بارتولد Barthold عن أباقا Abaka فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia Under Tartar Dominion, Vol. II. pp. 264—268

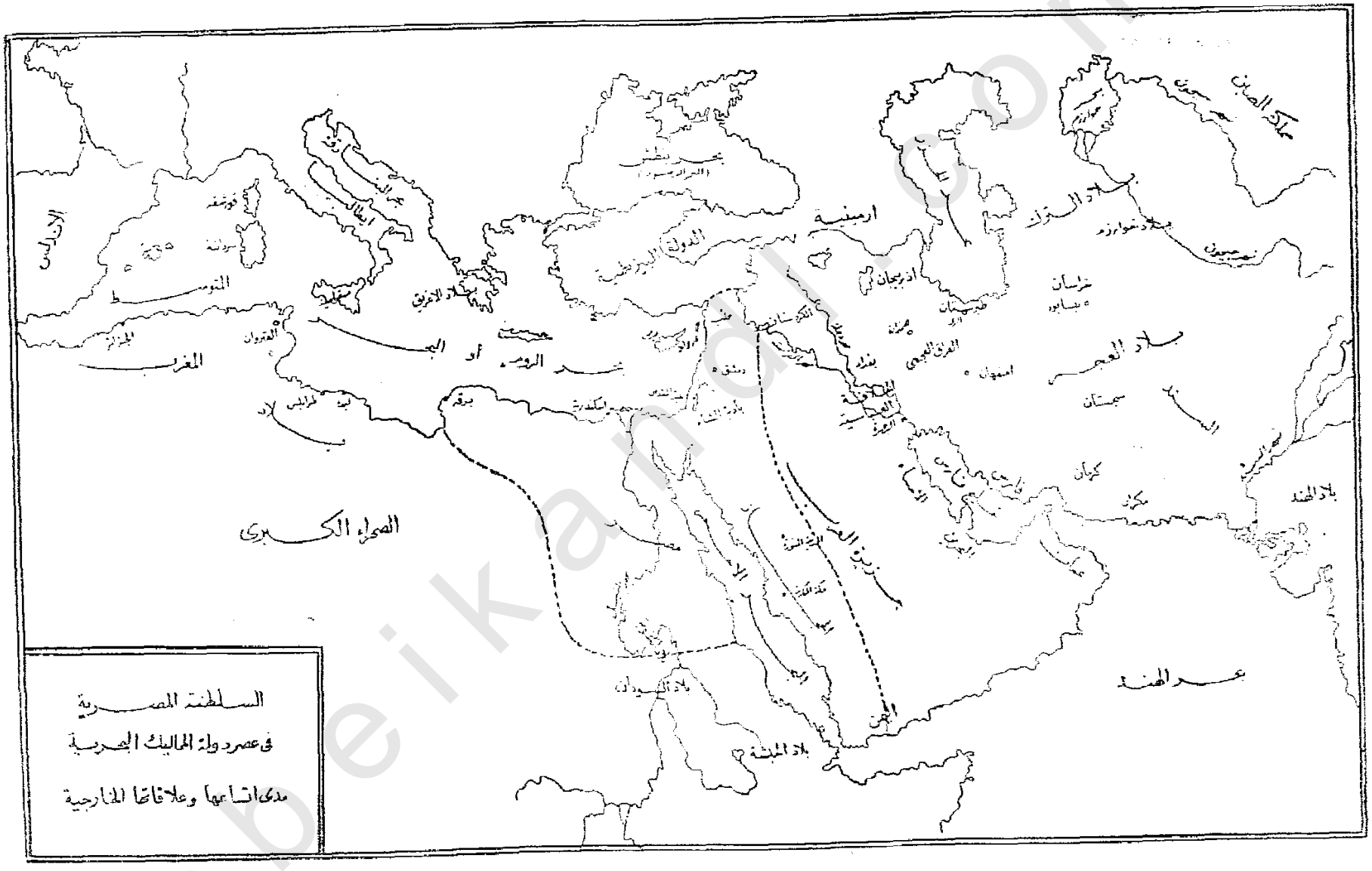

obeikandl.com

هزم جند هولاكو المغولية قبيل اعتلائه العرش سنة ١٢٦٠ م وطردهم من غزة وشتت شملهم في عين جالوت — خلال سلطنة قطز — كما طرد الصليبيين من سورية وبطش بالحشيشيين[١] في لبنان بطشاً ذريعاً .

ولا شك أن موقعة عين جالوت كانت ضربة عنيفة للمغول الذين لم يعرفوا معنى الهزيمة من قبل . وذلك لعظم ما فقدوه من الرجال وما خسروه من السمعة التي طبقت الآفاق حتى كانت نساؤهم تسير وسط الشوارع نائحات صارخات مرسلات شعورهن لاذكاء نيران الحماسة في قلوب الرجال . وقد عول هولاكو على إعادة الكرة على المماليك غير أن المنية عاجلته فلم يكن بد اذاً من أن يعمل ابنه وخليفته أباقا على إرضاء شعور قومه وإرضاء روح أبيه وإعادة سمعة المغول الحربية والأدبية إلى ماكانت عليه . ولا غرو فقد كان المغول منذ أيام هولاكو ينظرون إلى مصر الفتية ويتطلعون إلى فتحها لتصبح درة في جبين امبراطوريتهم . ورأى سلاطين المماليك بدورهم أن يعملوا على كسر شوكة المغول وإذلالهم والانتقام منهم دفاعاً عن مصر والشام ولما حل بالاسلام من الخطوب والويلات على أيديهم .

لذلك استحكم العداء بين إيلخانات المغول وسلاطين المماليك في مصر طوال هذا العصر ، ونفر بعضهم من بعض كل النفور لا سيما المغول الذين كانوا يبطشون بكل من حامت حوله الشكوك في الاتصال بالمماليك وهو أشد الجرائم السياسية في نظرهم . وقد اتخذ بعضهم من هذا الشعور وسيلة للايقاع بكثير من رعايا المغول المسلمين[٢] . ومن الأمثلة المعروفة في هذا الصدد ما حدث لأسرة الجويني العريقة ، التي ذهب أفرادها ضحية هذه الريب ، بعد أن علا نجمها في أفق السياسة والادارة في فارس[٣] ، واشتهرت بالجود والكرم الذي يعيد للذهن ذكرى أسرة البرامكة وما نزل بها في بغداد . وكان الناقمون من المماليك في عصر الناصر يتصلون بالمغول ، كما كان الناقمون على حكومة الاخشيديين في مصر في القرن العاشر الميلادي يتصلون بالفاطميين في شمال افريقية .

ولما مات أباقا خان وقع الاختيار على أخيه تكودار[٤] ونودي به سلطاناً في سنة ٦٨١هـ (٦ مايو سنة ١٢٨٢م) . وهو ثالث إيلخانات المغول في بلاد الفرس ، وأول من أسلم منهم . وقد شب على المسيحية وتعمد في صباه وتسمى باسم « نيقولا » ، ثم دخل في الاسلام عند ما بلغ سن الرشد . وذلك على أثر اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم ، ورغب في أن يسمى أحمد

---

(١) يطلق عليهم أيضا اسم « الحشيشة » . انظر السلوك للمقريزي ج ١ ص ١١٦٥ .

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. p. 446; Vol. III. pp. 18—20;

(٣) بحث الأستاذ مرزا محمد قزويني تاريخ هذه الأسرة ومأساتها بحثا مستفيضا مبنيا على النقد الدقيق في مقدمة كتاب جهان جشا Juhan-gushà (ج ١ ص ١٩ — ٩٢) .

(٤) أو نيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة . وقد سمي احمد بعد اعتناقه الاسلام .

خان . وبذل قصارى جهده فى حمل المغول على الاسلام . فأسلم على يده كثير منهم بفضل ما منحهم من العطايا وألقاب الشرف[١] وأرسل تكودار احمد كتاباً الى فقهاء بغداد ، أعلن فيها رغبته فى حماية الاسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه . كما أظهر رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين . ثم بعث بنبأ إسلامه إلى قلاوون سلطان المماليك فى مصر فى كتاب مؤرخ فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ هـ (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) . مع رسولين هما قطب الدين شيرازى وأتابك بهلوان[٢] .

ولكن عهد تكودار لم يطل ، فقد قتل فى سنة ٦٨٣ هـ (أغسطس سنة ١٢٨٤ م) . وخلفه فى اليوم التالى أرغون ابن أخيه أباقاخان ، وحكم الدولة الفارسية نحواً من سبع سنين (٦٨٣ هـ — ٦٩٠ هـ = أغسطس ١٢٨٤ — مايو ١٢٩١ م) أى بعد موت أرغون بأربعة أشهر ونصف . وكانت أيامه مليئة بالاضطرابات إلى أن قتل فى سنة ٦٩٥ هـ (٢٣ أبريل سنة ١٢٩٥ م) . وخلفه ابن أخيه بيدو الذى توج فى همذان (ابريل — اكتوبر ١٢٩٥ م) فآثر الدين المسيحى وجهد فى وضع العقبات فى سبيل انتشار الاسلام بين المغول . وسرعان ما تغلب عليه غازان بن أرغون وقتله .

علاقة الناصر بغازان (٦٩٥ — ٧٠٤ هـ = ١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) :

غازان هو إيلخان المغول الذى تحارب معه الناصر . لذلك آثرنا أن نأتى بكلمة تبين أخلاقه وصفاته حتى نتعرف مدى ما صادفه الناصر فى حروبه من صعاب . كان غازان أكبر أحفاد هولاكو والسابع من أسرة إيلخانات المغول فى فارس وقد انتصر الاسلام الذى اعتنقه وجعله الدين الرسمى للدولة انتصاراً مبيناً على الوثنية المغولية وهى الشامانية كما بدأت الدولة الفارسية فى عهده تستعيد استقلالها .

وقد ولد غازان سنة ٦٧٠ هـ (٢٤ ديسمبر سنة ١٢٧١ م) . وكان يصحب جده أباقاخان منذ نعومة أظفاره فى رحلاته للصيد . ولما بلغ العاشرة من عمره ولاه أبوه أرغون إمرة خراسان تحت وصاية الأمير نوروز بن أرغون أغا الذى تولى كثيراً من الأقاليم الفارسية فى عهد چنكيز خان وخلفائه من بعده مدة تسع وثلاثين سنة . وإلى نوروز يرجع الفضل فى إسلام غازان . وكان غازان قد وعده بالدخول فى هذا الدين إذا وهب الله له النصر على خصمه بيدو . ولما تم له ذلك بر بوعده ، فأسلم فى ٤ شعبان سنة ٦٩٤ هـ (١٩ يونيه سنة ١٢٩٤ م) وأسلم معه عشرة آلاف من المغول[٣] .

---

(١) D'Hosson, Histoire des Mongols, Vol. III. p. 553 seq.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ — ٦٨ .

(٣) قص الشيخ صدر الدين خبر اسلام غازان فى كتاب تاريخ سلاطين المماليك لزتسين Zetlesstéen ص ٣٢ — ٣٦ .

على أن كثيراً من المغول والأمراء والأشراف وغيرهم نظروا إلى تحول غازان إلى الإسلام نظرة السخط والكراهية وأدى ذلك إلى قيام المؤامرات وتدبير الدسائس . بيد أنه تمكن من القضاء عليها بغير رحمة ولا شفقة حتى لقد قيل إنه قتل فى شهر واحد عدد لا يقل عن خمسة من أمراء المغول وسبعة وثلاثين من حكامهم ، ولحق بهم نوروز نفسه لاتهامه بالتآمر سراً مع سلطان المماليك فى مصر ، وجمال الدين دستاجردانى Dastájirdáni (١)، وأخوه قطب جهان ، واستوزر غازان الطبيب والمؤرخ المشهور رشيد الدين فضل الله صاحب كتاب جامع التواريخ(٢). ومن النادر أن ترى صفحة فى كتاب رشيد الدين خالية من ملاحظة خاصة باعدام موظف فى ذلك العهد ، مما يؤيد قول السير هنرى هورث إن غازان كان حاكماً قاسياً وان دولته قد امتازت بقائمة سوداء من الضحايا (٣).

ولقد قضى غازان قسماً كبيراً من حكمه فى محاربة المماليك فى مصر . وكانت حالة الضعف التى سادت مصر فى أثناء اغتصاب عرش الناصر على يد كل من كتبغا ولاچين ، عقب سلطنته الأولى ووصاية الأميرين بيبرس وسلار فى أثناء سلطنته الثانية ، مما شجع غازان على التفكير فى الاغارة على بلاد الشام وفتح دمشق وعزمه على فتح مصر وضمها إلى أملاكه . ولا غرو فان هذه الحالة لم تخف على غازان ، بل انتشرت فى سائر الأقطار (٤).

ومن أهم العوامل التى ساعدت على إغارة المغول إكرام السلطان كتبغا عصاة المغول الذين فروا من وجه غازان . ذلك أن انتصار غازان على بيدو واعتناقه الدين الاسلامى أدى إلى مهاجرة عدد كبير من جند بيدو إلى الديار المصرية . ويعرف هؤلاء باسم « المغول الأويراتية أو العوايرتية » . ويقول أبو الفدا أن عدد الفارين من وجه غازان زاد على عشرة آلاف بيت ولوا وجههم شطر مصر ، بزعامة صهر منكوتمر بن هولاكو ويرجع سبب هجرتهم إلى ماذكره أبو الفدا من أن قائدهم طرغية صهر منكوتمر قد ناصر بيدو وعلى جيخاتو بن أباقاخان فلما دارت الأيام دورتها واستطاع غازان أن يعتلى عرش المغول فى فارس أراد أن يأخذ بثأر عمه من منكوتمر ففر هو وجماعته يريدون مصر وأظهروا رغبتهم فى اعتناق الاسلام لكى يسمح لهم بالدخول . (٥)

ولما وصل هؤلاء إلى نهر الفرات كاتب نواب الشام كتبغا يخبرونه بأمر العوايرتية ويطلبون منه الإذن بدخولهم مصر . فجمع السلطان أمراء الدولة واستشارهم فى هذا الأمر . فاتفق

---

(١) ويلقب صدرى جهان ويشبه رئيس الوزراء .

(٢) ترجمه كترمير بعنوان Histoire des Mongols

(٣) Sir Henry Howorth : History of the Mongols, part III. pp. 426—427

(٤) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٥ .

(٥) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ .

الرأى على إنزال عامتهم بساحل بلاد الشام وحضور رؤسائهم إلى مصر . فبعث إلى نائب الشام يأمره باكرامهم وتوجه بنفسه لمقابلة رؤسائهم وأحضرهم معه إلى مصر وأنعم عليهم بالأراضى وخلع عليهم وآثرهم على أهل مصر(١) . وكان كتبغا مغولى الجنس ، فلا عجب إذا مال اليهم واحتضنهم واهتم بأمرهم اهتماماً أثار فى قلوب أمراء الدولة الإحن والأحقاد عليه . وخصوصا عند ما ظهر أنهم قد عدلوا عن الدخول فى الاسلام وتمسكوا بعقائدهم الوثنية (٢) . ولكن كتبغا قد رفض أن يتعرض لهم بسوء ، إذ كان يرمى إلى اتخاذهم عونا له على البقاء فى كرسى السلطنة .

ومن العوامل الجوهرية التى شجعت على إغارة المغول هرب سيف الدين قبجق نائب دمشق مع جماعة من الأمراء فى خمسمائة من الجند إلى غازان وإخباره بما آلت اليه حالة سورية فى نهاية حكم لاچين مما دفعه إلى العمل على امتلاك هذه البلاد ومواصلة السير إلى مصر(٢). ويمكننا أن نتصور أهمية ذلك الحادث وما كان له من أثر فى علاقات الناصر بغازان إذا علمنا أن غازان لم يكن حتى ذلك الوقت يعلم حقيقة الحال فى سورية ، وأنه كان يتهيب المماليك بعد ما رآه من شجاعتهم وانتصارهم على ملك أرمينية . وكانت رغبة غازان متجهة إلى الاعتداء على دولة المماليك . وكان يظن أن أحوال هذه الدولة ستساعده على تحقيق مطامعه ، ولذا تلمس سببا لبدء مشروعه وأتيح له الوصول إلى ذلك حين أرسل الأمير بلبان الطباخى نائب حلب جيشاً إلى ماردين عاث فيها فساداً فاتخذ غازان ذلك حجة فى غزو الشام(٣) .

أرسل غازان جيشاً يبلغ خمسة وعشرين الف مقاتل بقيادة سلامش . وأمره بالتوجه الى بلاد الروم السلاچقة بآسيا الصغرى ، على أن يسير هو على رأس جيش آخر نحو ديار بكر . واذا ما تلاقى الجيشان فى حلب أغارا على بلاد الشام(٤) . وسرعان ماشق سلامش عصا الطاعة على غازان واستولى على بلاد الروم السلاجقة . غير أنه حدث — عندما التقى جيش سلامش بجيش لولاى قائد غازان فى آخر شهر رجب سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) أن انضم التتار الذين كانوا تحت إمرة سلامش إلى لولاى . فلم ير سلامش بدأ من المسير إلى دمشق ثم إلى مصر حيث استقر بها . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أعد غازان جيشاً آخر بلغ عدده مائة ألف مقاتل لغزو سورية (٦٩٩ — ٧٠٠ هـ = شتاء ١٢٩٩ — ١٣٠٠ م)(٥).

ولما اتصل بالسلطان الناصر خبر عبور غازان نهر الفرات ، جهز جيشاً لمقابلة المغول .

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٧ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٤٤ .

(٤) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٢٢ — ٦٣٣ و Zetterstéen ص ٥٤ .

(٥) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر ص ٦٣٤ .

الا أن سوء الحظ قد لازم المصريين فى سيرهم من بادىء الأمر . فان العوايرتية الذين انضووا تحت لواء الناصر ما كادوا يصلون إلى غزة حتى دبروا مؤامرة خطيرة لا غتياله هو وقواده . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إعادة كتبغا المغولى إلى العرش والأخذ بثأر إخوانهم الذين قتلوا فى عهد لاچين . وكان من أثر تفاقم هذه المؤامرة أن تأخر زحف الجيش المصرى ، وعمت الفوضى والارتباكات صفوف المماليك وفقد كثير من آلات الحرب . على أن قواد جيش الناصر أظهروا نشاطاً عظيماً وكياسة وحكمة فى احباط هذه المؤامرة وإعادة النظام الى وحدات الجيش ، ولقى المتآمرون جزاء ما فعلوا . ويقول المقريزى : « شنق منهم نحو الخمسين ، ونودى عليهم : هذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك » (١).

موقعة الخازندار :

ومن ثم استأنف جيش الناصر سيره حتى دخل عسقلان فى ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) . وما كادت تصل إليه الأخبار بكثرة عدد العدو حتى وقع الرعب فى قلوب الجند ، وخاصة عند ما رأوا أنواعاً من الجراد محلقة فى الجو ، فاعتبروها نذيراً بالهزيمة . ثم تقدم الجند وقد خارت قواهم وضعفت قلوبهم . والتقى الفريقان فى مجمع المروج فى وادى الخزندار بين حماه وحمص . وكان عدد المماليك عشرين ألفا ، بلغ المغول خمسة أضعافهم (٢). وكان جيش المماليك يجمع أكفأ الأمراء والقواد وبعض رجال الدين لبث روح الحماسة والجهاد وحب النصر فى الجنود . أما غازان فقد رتب جيشه بحيث وضع الخيل فى المقدمة وأقام من ورائها الفرسان راجلين بقصد حماية رجال جيشه من هجمات العدو . ولم يحط هؤلاء الفرسان خيولهم الا بعد أن حمى وطيس القتال .

وقد بيّن ابو المحاسن فى عبارة جلية كيف دار القتال بين المصريين والمغول فى موقعة الخازندار . فقال : « وعدى غازان والتتار الفرات وخرج السلطان [الناصر] لتلقى العدو وساق إلى حمص وركب بكرة الاربعاء سابع عشرين الشهر وساق إلى وادى الخازندار فكانت الوقعة والتحم القتال واشتد الحرب وثبت عسكر الاسلام إلى العصر ولاح لهم النصر ثم تكاثر عساكر التتار وحمل على ميمنة السلطان فانكسرت الميمنة وجاءهم مالا قبل لهم به . وكان عسكر السلطان يومئذ نحو عشرين ألفا وعسكر التتار قريبا من مائة ألف فشرع المسلمون فى الهزيمة وأخذ الأمراء السلطان وتخيروا به وحموا ظهورهم وساروا على درب بعلبك والبقاع وبعض العسكر عبر دمشق واستشهد فى المصاف جملة من الأمراء » (٣) .

---

(١) كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٢٧

(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩ .

(٣) المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٤٥ أ .

كان النصر فى واقعة الخزندار حليف المغول ، على الرغم من انتصار المماليك أولا . وقد وصف مفضل بن أبى الفضائل كيف انتهت تلك الموقعة فقال : « صارت الأخبار مضطربة وأخبر قوم بأن التتار عزموا على الهروب وشنوا أعنتهم للرجوع . فأشير على السلطان (الناصر) بسرعة المسير اليهم فركضت العساكر بعد أن أقاموا على ظهور خيولهم ثلاثة أيام بعددهم وأسلحتهم ولما التقى الجمعان حملت الميسرة المنصورة على ميمنة العدو فكسرتهم وساقت العساكر خلفهم إلى خلف أثقالهم وحملت ميسرة العدو على ميمنة العساكر المنصورة فكسرتها . والتقوا على السلطان والقلب وفوقوا نحوهم سهاما كدفعة المطر أو كجرية السيل المنهمر . ثم حصل تخاذل أوقعه الله تعالى بمشيئته (فى جيش الناصر) فهربت الميمنة وهرب من كان وراء السناجق السلطانية وانفل الجيش وانفصل الأمر بعد العصر . وساق السلطان بطائفة يسيرة نحو بعلبك وبقيت الغنائم والأموال والعدد والأثقال ملقاة ملو الأرض ورموا الجند سائر عددهم ليخففوا عن خيولهم لينجوا بأنفسهم »[1] .

كانت موقعة الخزندار التى هزم فيها الناصر من أعظم المواقع التى دارت بين المماليك والمغول . وعلى الرغم من أن قبجق يعد من المحرضين على إغارة المغول ، فانه يرجع اليه الفضل فى رد غازان — بعد انتصاره — عن مطاردة جيوش المماليك المنهزمة خشية أن يكونوا قد وضعوا لهم كمينا كعادتهم فى الحروب .

فتح دمشق :

زحف المغول بعد ذلك الى حمص فنهبوا مافيها من خزائن السلطان والمؤن والذخائر . ثم رحلوا إلى دمشق فوقع الرعب فى قلوب الأهلين وخرجت النساء سافرات وترك الناس حوانيتهم وأموالهم وازدحموا على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ، ودفعوا الأجور الغالية لأصحاب الخيل والحمير لحمل من عجز منهم عن السير ، واعتصم بعضهم بالقرى ورءوس الجبال ، وسار البعض الآخر إلى مصر . وقد اتفق جماعة على اختيار وفد من كبرائهم وعلمائهم لمقابلة غازان والتماس الأمان منه . ومن هؤلاء ابن جماعة وابن تيمية وغيرهما من القراء والفقهاء والأعيان ولما مثلوا بين يديه قبلوا الأرض وسألوه الأمان وقدموا له طعاماً على سبيل الهدية فاعتذر عن قبوله وأخبرهم أنه أرسل الأمان لأهل دمشق مع أربعة من المغول [2] فعادوا اليها واجتمعوا بالمسجد الأموى وتلا عليهم رجل من المغول صورة الأمان فى ٥ ربيع الثانى سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩) . ويتضمن هذا الكتاب تأمين الأهلين جميعاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم والعمل على إيجاد حكومة رشيدة تقر العدل والنظام إذا ضمت مصر إلى حوزة المغول .

---

(١) النهج السديد ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .

(٢) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٣٦ — ٦٤٠ .

وقد ورد فى هذا الفرمان بعض عبارات تشير إلى أن سلاطين مصر وحكامها قد حادوا عن جادة العدل والانصاف حتى اضطربت أحوال البلاد فى عهدهم وأن الله تعالى قد أرسل المغول إلى أهل الشام ومصر لتخليصهم مما هم فيه . وهاك بعض ما جاء بتلك الوثيقة :

« بقوة الله تعالى وإقبال دولة السلطان محمود غازان ليعلم أمراء الطومان والألوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة ممن هوداخل تحت ربقة طاعتنا ، أن الله لما نوّر قلوبنا بنور الاسلام وهدانا إلى ملة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، أفمن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه . . فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين . ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام ، وكان أحدهم إذا تولّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وشاع عن شعارهم الحيف على الرعية ، ومد أيدى العادية إلى حريمهم وأموالهم ، والتخطى عن جادة العدل والانصاف . . . حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية على أن توجهنا إلى تلك البلاد لازالة هذا العدوان وإماطة هذا الطغيان مستصحبين الجم الغفير من العساكر . ونذرنا على أنفسنا إن وفقنا إلى الله تعالى بفتح تلك البلاد أزلنا العدوان والفساد ، وبسطنا العدل والاحسان فى كافة العباد ، ممتثلا للأمر الالهى (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) . . . »[1] .

على أن الوعود التى تضمنتها هذه الوثيقة لم تكن إلا سراباً . فسرعان ما نزل غازان بظاهر دمشق وعاث جنده فساداً فى بلاد الشام وفلسطين واشتطوا فى أعمال النهب والتخريب وخاصة فى بيت المقدس والكرك . كما تعرضوا لأنفس الآثار فخربوا بعضها وأحرقوا بعضها الآخر ، ولم ينج من أيديهم إلا قلعة دمشق المنيعة التى اعتصم بها واليها أرجواش وحال دون استيلاء المغيرين عليها[2]

واقعة الصالحية

سار المغول بعد ذلك إلى الشمال ونزلوا فى ١٥ ربيع الثانى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) بالصالحية ونهبوها وأخذوا ما فى مدارسها وجامعها من البسط والقناديل[3] وقتلوا من

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٤٠ — ٦٤٤ . وازن بين هذا المنشور والعهد الذى قطعه جوهر القائد على نفسه حين فتح مصر (جوهر الصقلى للدكتور على ابراهيم حسن ص ٤٠ — ٤٢) .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٣ — ٩٣٤ و Howorth, part III. pp. 444—445 و Browne, Vol. III. p. 41.

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٥ .

أهليها زهاء تسعة آلاف . وخاف أهل دمشق أن يعود إليهم غازان بجموعه فطلبوا منه أن يفرض عليهم ضريبة فى مقابل عتق المسلمين ، ولكنه صمم على أخذ قلعة دمشق . وبالغ المغول فى أعمال النهب والسلب والاحراق فى دمشق وفى غيرها من بلاد الشام واشتطوا فى جمع الأموال وعجز الناس عن أداء ما فرض عليهم من الضرائب(١) . وأهدرت الدماء البريئة بغير ماشفقة ولا رحمة حتى إن المقريزى يقول إنه قتل فى دمشق من الجند والفلاحين والعامة مائة ألف (٢) . واشتد الغلاء فى هذه المدينة حتى بلغ ثمن الشىء سبعة أضعافه (٣) . ولم ينج من قسوة غازان وإهداره الدماء وتخريبه البلاد أحد من الناس ، لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء والصبيان والفقهاء والقراء والعلماء حتى بلغ من شدة خوف الناس أن قطعت صلاة الصبح والعشاء من المساجد أياماً كما عطلت صلاة الجمعة . ويقول مفضل بن أبى الفضائل بهذا الصدد : « وعادوا المغل يضربون الناس على ظهورهم ويمسكون أكمامهم ، وفعل ذلك بابن صصرى القاضى . وكثر النهب فى البلد وعظم الأمر وتسلقوا من الأسطحة وكسروا الأبواب . وكان ذلك فى يوم الجمعة ثامن وعشرين الشهر [ربيع الثانى] لا سيما وقت الصلاة وتهاربت الناس من سطح إلى سطح ووقعوا وتكسرت أيديهم وأرجلهم وجبى على الرءوس وعلى الدور . وكان المطلوب شيئاً كبيراً لا تحمله البلد فعسر الأمر على الناس جداً » (٤) .

عودة سورية الى سلطان المماليك :

كان الظاهر من سير الأمور وقتئذ أن البلاد السورية أصبحت فى قبضة المغول . وبلغ الضيق والشدة من الناس كل مأخذ حتى عزم غازان على العودة إلى بلاده وخلف على سورية قطلوشاه التتارى نائباً عنه ومعه ستون ألفاً من جند المغول وهدد المماليك بالعودة إلى بلاد الشام وغزو مصر فى فصل الخريف (٥) . وخرج غازان من دمشق قاصداً بلاد فارس فى ٩ جمادى الأولى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) بعد أن كتب الى سيف الدين قبجق عهداً بنيابة الشام وفيه يقول :

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٧١ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ج ١ ص ٩٣٧ — ٩٤١ .

(٣) قال بعض الشعراء فى ذلك :

رمتنا صروف الدهر منها بسبعه ... فما أحد منا من السبع سالم

غلاء وغازان وغزو وغاره ... وغدر وأغبان وغم ملازم

Zetterstéen : نفس المصدر ص ٧٢ .

(٤) النهج السديد ص ٦٥٧ .

(٥) Zetterstéen ص ٧٥ .

« ... فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم ومن فيها من غاصب وظالم هاجرنا لنصرة الله تعالى ونصرة الدين وبادرنا لانقاذ من فيها من المسلمين وأرسلناهم وأنذرناهم وكاتبناهم وزجرناهم ووعظناهم فلم تنفع فيهم العظة وأيقظناهم فلم يكن عندهم يقظة . فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرناهم وقلعنا آثارهم وملكنا الله تعالى أرضهم وديارهم وتبعناهم إلى الرمل وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادى النمل فلم ينج منهم الا الفريد ولا سلم الا البريد . فلما استقر تملكنا للبلاد وجب علينا حسن النظر فى العباد . فأحضرنا الفكر فيمن تقلده الأمور وأنعمنا النظر فيمن نفوض اليه مصالح الجمهور فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم ويقيم ما انآد من قوامها القويم . . . فرأينا أن الجناب العالى الأوحدى المؤيدى الكفيلى المشيرى المجاهدى الأميرى الهمامى النظامى السيفى ملك الأمراء فى العالمين ظهير الملوك والسلاطين قفجق هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة . . فلذلك رسمنا أن نفوض اليه نيابة السلطنة الشريفة . . » (١).

انفرد قبجق بحكومة دمشق ، إذ لم تمض عشرة أيام على خروج غازان حتى لحق به قطلوشاه . وغدر قبجق بالتتار وقتلهم وتتبع المفسدين وبطش بهم (٢). فاستبشر أهل دمشق بذلك وعادت الطمأنينة الى نفوسهم ، وأبلغ قبجق السلطان الناصر نبأ خروج غازان وقطلوشاه من دمشق وعودة سورية إلى حوزة المماليك (٣) .

وهكذا نرى أن قبجق قد خان الناصر أولا ثم خان غازان ثانيا . ولسنا ندرى كيف قابل الناصر رجوع قبجق إلى حظيرة المماليك بعد أن خانهم وانضم إلى العدو . ويظهر أن الناصر قد رحب بتوبته ليكون عضداً له ضد المغول ألد أعدائه إذ ذاك . ولعل سماع قبجق بخبر الاستعدادات الحربية الهائلة التى كان يقوم بها الناصر وتوقعه انتصار المغول على المماليك كان من العوامل التى أدت إلى خيانته غازان بعد رحيله وإلى عودته إلى حظيرة المماليك .

وهنا نقف قليلا لنتعرف العوامل التى أدت إلى عودة غازان إلى بلاده بعد هذا النصر المؤزر الذى أحرزه على المماليك فى بادىء الأمر . ذلك أنه بعد أن عاد الناصر إلى مصر أخذ

---

(١) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٤٨ — ٦٥٠ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٤٦ — ٩٤٩ .

(٣) يقول ابن أبى الفضائل (نفس المصدر ص ٦٦٩ — ٦٧٠) :

« وفى ذلك اليوم [الاربعاء ٢٨ ربيع الثانى سنة ٧٠٠ هـ] نودى بالبلد : طيبوا قلوبكم وافتحوا دكاكينكم وتهيئوا للقاء سلطان الشام سيف الدين قبجق بالشموع . وفى المناداة أيضا قد دفع الله عنكم العدو المخذول . . وفى عشية السبت رابع الشهر (رجب) اشتهر أنه لم يبق فى الطرقات ولا فى ضواحى دمشق أحد من التتار ونودى بذلك . . وفى يوم الأربعاء خامس عشر رجب خرج الأمير سيف الدين قبجق من دمشق وطلب الأبواب السلطانية الناصرية هو وأصحابه بكتمر السلحدار ومن معهم . . . (وفى) يوم الجمعة أعيدت الخطبة بجامع دمشق للسلطان الملك الناصر صاحب مصر وباسم الخليفة على جارى العادة . وكان قد أسقط اسمهما من الخطبة من سابع ربيع الآخر إلى ذلك اليوم . فكانت المدة مائة يوم » .

يجمع الجيوش ويعد العدة ويجهز الأسلحة لمحو هذا العار وإعادة البلاد السورية إلى قبضته من يد المغول . وقد أمر بجمع الضرائب وحث الأغنياء على التبرع بالمال لانقاذ سورية ، ولا سيما أن قلعة دمشق صمدت للعدو على الرغم مما أبداه من المهارة فى أساليب الحرب ووسائل الترغيب فى تسليمها لغازان لهذه الأسباب إذن خاف غازان عاقبة طول مقامه فى سورية حتى لاتدركه الجيوش المصرية من الغرب وتخرج عليه حامية قلعة دمشق المنيعة فى سورية ، بينما تتعرض حدوده الشرقية لغزو الغزاة ، فتتوزع جهوده بين جهات متعددة فيذهب ضحية أطماعه الواسعة . لذلك نراه يؤثر تركيز قواه فى الشرق وترك سورية إلى المماليك حتى تأتيه فرصة أخرى لاعادة الكرة عليهم .

وقد حدث ذلك فعلا عندما بدأ غازان زحفه إلى الشام من جديد فى شتاء عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) . إلا أن البرد القاسى بها اضطره إلى أن يعود أدراجه بعد أن هجم على أنطاكية وجبل السماق ونهب الأموال وأسر كثيراً من الرجال حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم ، وحالت الأمطار الغزيرة والثلوج المتكاثفة دون دخوله دمشق . وقد عقب صاحب « تاريخ سلاطين المماليك » على هذه الغزوة بقوله : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً »[1] وكان غازان يعتقد أن الدول المسيحية سوف تساعده على انتزاع سورية من يد المماليك ، فتوالى إرسال الوفود المغولية إلى بلاط انجلترا وفرنسا .[2]

المراسلات بين غازان والناصر :

ولما يئس غازان من مناصرة الغربيين له عول على مهادنة المماليك ، فأرسل فى مايو سنة ١٣٠١ م (العشرة الأيام الثانية من شهر رمضان سنة ٧٠١ هـ) إلى الناصر وفداً يحمل رسالة يعيبه فيها هجومه على أطراف بلاده من غير سبب ، ثم يتوعده بالانتقام إذا لم يكف عن عدوانه إذ اتصل بمسامعه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم ومقاتلتهم بنواحى حلب والفرات . وأخيراً ناشده الله والدين أن يعمل على تلافى ما قد يقع ببلاده من الخراب وما يحل بالعباد من البلاء . كما يخبره أن المغول قد عولوا على جمع الجيوش وشحذ الهمم وصنع المجانيق وآلات الحصار والمسير الى بلاده . وأخيراً يطلب إلى الناصر أن يعد له الهدايا والتحف . وختم رسالته بقوله : قد أعذر من أنذر وأنصف من حذر . وحمل هـــذا الكتاب الأمير ناصر الدين على خواجا والفقيه جمال الدين موسى بن يوسف القاضى .

افتتح غازان رسالته بالسلام ، ثم شرح العوامل التى سببت غزوه سورية ، وهى لا تخرج عما ورد فى الكتاب الذى قرىء على أهل دمشق بتأمين أهلها بعد فتحها . إذ أوضح أن ذلك

---

(١) Zetterstéen ص ٨٣ .

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 56 -57.

كان راجعا إلى الظلم الذى عم البلاد المصرية والولايات التابعة لها (ومنها سورية) فى عهد سلطنة المماليك عامة . ثم هدد غازان بغزو الشام وما سيحل بها من تخريب وتدمير (١).

رد الناصر على هذا الكتاب بكتاب طويل ، يفند فيه أقوال غازان ويبرهن بأدلة واضحة أن المغول هم الذين بدءوا بالشر وبادروا إلى العدوان ، وأن رسل غازان جاءوا فى وقت اشتبكت فيه الأسنة والرماح . وأبى الناصر أن يرسل إليه ما طلب من الهدايا والتحف حتى يبدأ هو بارسالها إليه وحينئذ يردها عليه مضاعفة ، كى لا يقوم ذلك دليلا على خذلانه . كما عاب على غازان آباءه وأجداده الوثنيين وما كان من إذلاله المسلمين فى دمشق وما جاورها وتخريبه المساجد والآثار مع منافاة ذلك لتعاليم الاسلام . وأخيراً أكد الناصر لغازان أنه على تمام الاستعداد لقبول مصادقته إذا خفف من غلوائه وصرف الكفار الذين اتخذهم بطانة له ، وأرسل إليه الرسل مؤيدين رغبته فى الصلح وميله إلى المصافاة والعمل على ما يعود على البلدين بالخير . وعند ذلك يجنح الناصر إلى الصلح ، ويصبح الفريقان على حد قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا)(٢).

---

(١) قال غازان فى لهجة حاسمة : « ... وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزائمنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار ، وعازمون بعد الانذار (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . وقد سيرنا حاملى هذا الكتاب ... وقد حملناهما كلاما شافهناهما به ، فلتثقوا بما تقدمنا به إليهما فانهما من الأعيان المعتمد عليهما فى الديوان ، كما قال الله تعالى (فلله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين) فلتعدوا لنا الهدايا والتحف ، فما بعد الانذار من عاذر ، وان لم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدميرهم (كذا) ، ومطلوبة عند الله فى طول تقصيرهم ... » (راجع هذا الكتاب كاملا فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٦٩ — ٧١) .

(٢) أورد القلقشندى (نفس المصدر جـ ٧ ص ٢٤٣ — ٢٥٠) نص هذا الكتاب الطويل . واليك أهم ماورد فيه : « ... أما حديث من أغار على ماردين من رجاله بلادنا المنطرفة وما نسبوه إليهم من الأمور البديعة والآثام الشنيعة ؛ وقولهم : انهم أنفوا من تهجمهم ، وغاروا من تقحمهم ، واقتضت الحمية ركوبهم فى مقابلة ذلك ، فقد تلمحنا هذه الصورة التى أقاموها عذراً فى العدوان وجعلوها سببا إلى ما ارتكبوه من طغيان ، والجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين ، ولم يحصل من المهادنة والمودعة ما يكف يدنا الممتدة ، ولا يفتر هممها المستعدة ؛ وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ماعلمتم من الكفر والشقاق ، وعدم المصافاة للاسلام والوفاق . .

وأما ما تبجحوا به مما اعتقدوه من نصره ، وظنوه من أن الله تعالى جعل لهم على حزبه الغالب فى كل كرة الكرة ؛ فلو تأملوا ماظنوه ربحا لوجدوه هو الخسران المبين ، ولو أنعموا النظر فى ذلك لما كانوا به مفتخرين ... وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التى لو كانت مجتمعة عند اللقاء ما ظهر خبر عنهم ؛ فانا كنا فى مفتتح ملكنا ، ومبتدأ أمرنا ، حللنا بالشام للنظر فى أمور البلاد والعباد . فلما تحققنا خبركم ، وقفونا أثركم ، بادرنا نقد أديم الأرض سيراً ، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً ...

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا ، وأرسلوا به عنان قلمهم وأطلقوا ، وما أبدوا من الاهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكره من التهويل ، فالله تعالى يقول : (الذين قال لهم الناس =

وباستعراض هذه الرسائل الدبلوماسية يتضح أن عقد الصلح بين المغول والمماليك أصبح بعيد الوقوع . إذ نجد أن كتاب الناصر الأخير قد أوغر صدر غازان الذى لم نجد بداً من مواصلة الصراع مع المماليك . غير أن ظروفه الخاصة ألزمته بتأجيل البدء فى الحرب معهم عاماً آخر . وقد أفاد المماليك من ذلك فسنحت لهم الفرصة بتأديب من خرج عليهم من العرب والأرمن ، كما عملوا على جمع صفوفهم وتقوية مركزهم لصد أى اعتداء جديد من جانب المغول .

انتصار المماليك فى موقعة مرج الصفر :

وأخيراً استؤنفت الحرب بين الناصر وغازان فى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) . وسار قطلوشاه فى مائة ألف من التتار والكرج والأرمن لمحاربة المصريين . وعبر غازان نهر الفرات وزار كربلاء التى كان يقدسها بسبب ميوله الشيعية ، ووزع الهدايا فى ضريح الحسين بن علىّ ، ثم تقدم إلى عانة . أما غازان فقد صحب جيشه نحو الغرب ، وعبر الفرات إلى مدينة كشف وتقع على مسيرة يومين من أردبيل التى تعد من أشهر مدن أذربيجان وأقام هنالك ينتظر نتيجة الحملة .

أما الناصر فقد خرج من مصر سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) على رأس جيش كبير لملاقاة المغول فى بلاد الشام ، وقد بلغ الحماس من الجند أشده . وصحب الخليفة العباسى فى القاهرة جيش المماليك ومعه كل من سلار وبيبرس أعظم أمراء مصر إذ ذاك . ويصف المقريزى قتال الناصر للمغول فى الشام . فيقول « مشى السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة ، وصار السلطان يقف ويقول الخليفة : يا مجدون ! لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ والناس فى بكاء شديد ، ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض ، وتواصى بيبرس وسلار على الثبات فى الجهاد وعاد السلطان إلى موقفه ووقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفاً واحداً وقيل لهم : من خرج عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه » (١)

= إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ...

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف ، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها ، ولو أتحفونا بتحفة لقابلناها بأجل عوض عنها . . .

والآن حيث انتهت الأجوبة إلى حدها ، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها ، فنقول : إذا جنح الملك للسلم جنحنا له . . . وأرسل الينا رسولا من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلا ، ويرق خطابه وجوابه حتى يتلو كل أحد عند عوده (يالينتى اتخذت مع الرسول سبيلا) صارت حجتنا وحجته على من خالف ذلك ... »

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٣٣ .

وفى شهر مارس سنة ١٣٠٣ م (رمضان ٧٠٢ هـ) تقابل المغول والمماليك عند مرج الصفر على مقربة من حمص . فهزم جيش الناصر المغول هزيمة شنيعة وهلك معظم جيش المغول ومات كثير منهم من شدة الظمأ . وفر قطلوشاه إلى الفرات وتبعه فلول جيشه ففرق بعضهم ومات بعضهم الآخر فى الصحراء وأسر المصريون عشرة آلاف من المغول وغنموا عشرين الف رأس من الماشية (١) ، ولم تقم لغازان بعد تلك الموقعة قائمة .

وقد وصف النويرى المؤرخ المصرى المشهور الذى اشترك فى تلك الموقعة من أولها بنفسه ، ما شهده فى هذه العبارة : « وكنت يوم ذاك بدمشق ، فخرجت منها بعد أن أعددت لامة الحرب . والتحقت بالعسكر ، ووجدت الجفال قد ازدحموا بالأبواب زحاما شديداً ، وقد ذهلوا عن أموالهم وأولادهم . ووصلت بعد المغرب إلى منزلة العسكر بميدان الحصى ، فوجدتهم قد توجهوا الى مرج الصفر ، فلحقت بالجيوش فى يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر ، وهو سلخه ، وأقمنا بالمرج يوم الخميس والجمعة . فلما كان فى ليلة السبت المسفرة عن ثانى شهر رمضان ، دارت النقباء على العساكر ، وأخبروهم أن العدو قد قرب منهم ، وأن يكونوا على أهبة واستعداد فى تلك الليلة ، وأنه متى دهمهم العدو يركبوا خيولهم ، ويكون الاجتماع عند قريه الهجة قرب خربة اللصوص . فبتنا فى تلك الليلة وليس منا إلا من لبس لامة الحرب ، وأمسك عنان فرسه فى يده ، وتساوى فى ذلك الأمير والمأمور ، وكنت قد رافقت الأمير علاء الدين مغلطاى البيسرى أحد أمراء الطبلخانات بدمشق لصحبة كانت بينى وبينه ؛ فلم نزل على ذلك ، وأعنة خيلنا بأيدينا حتى طلع الفجر ، فصلينا وركبنا . واصطفت العساكر إلى أن طلعت الشمس وارتفع النهار فى يوم السبت المذكور ، ثم أرسل الله مطراً شديداً نحو ساعتين ثم ظهرت الشمس . ولم نزل على خيولنا إلى وقت الزوال وأقبل التتار كقطع الليل المظلم وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية فى ساعة واحدة » (٢) .

وعلى أثر ما أحرزه الناصر فى هذه الموقعة الحاسمة من نصر مؤزر على المغول ، انتقل الى دمشق ، وسار اليها — على ما يقوله المقريزى — « فى عالم من الفرسان والعامة والأعيان والنساء والصبيان ، لا يحصيهم إلا من خلقه سبحانه ، وهم يضجون بالدعاء والهناء ، وتساقطت عبرات الناس ودقت البشائر وكان يوماً لم يشاهد مثله » (٣) .

وبعد أن خلع الناصر على نواب الشام سار الى مصر . وكان أهلها قد استعدوا لاستقباله .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٤٩ — ٥١ . ومما تجب ملاحظته أن أبا الفدا حضر هذه الموقعة بنفسه . المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٣٦ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٣٣٦ ب .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٦ .

فاقيمت الزينات على المنازل والحوانيت وفى الشوارع والميادين العامة ورفعت الأعلام وأقيمت أقواس النصر[١] ابتهاجاً بقدوم السلطان وفرحاً بانتصاره . ودفعت الأجور العالية للحجر المطلة على الطرق التى مر فيها السلطان ، وبلغت أجرة البيت الواحد من خمسين درهماً إلى مائة . وفرشت الأرض بالبسط الحريرية من باب النصر إلى القلعة . ومر السلطان بين الجموع الغفيرة التى استقبلته بالبشر والسرور فى وسط هذه الزينات ، يحوطه حراسه وكبار رجال دولته ، يتبعهم ألف وستمائة من أسرى المغول ، مكبلين بالسلاسل والأغلال ، ويتدلى من رقبة كل منهم رأس مغولى آخر . وحمل ألف رأس من رؤوس قتلاهم على أسنة الرماح تعلوها طبول الحروب المغولية الكبيرة بجلودها الممزقة[٢] .

أما غازان الذى لم يقل غيظه عن فرح سلطان مصر ، فقد صب جام غضبه على قواد المغول ورؤسائهم ، وعدهم مسئولين عن هذه النكبة . ويظهر أن صحة غازان قد ضعفت بسبب هذه الكارثة التى حلت بجيوشه ، وزاد فى حزنه قيام مؤامرة ترمى إلى خلعه وتولية ألفرنك Alafrank ابن جيخاتو عرش المغول فى فارس فمات كمداً وهو فى عنفوان شبابه لم يكتمل الثانية والثلاثين وذلك سنة ٧٠٤ هـ (١٧ مايو سنة ١٣٠٤ م)[٣] .

حزن المسلمون من المغول لموت غازان حزناً عميقاً ، لأنه أعاد الاسلام إلى المكانة التى كان يتبوؤها فى بلادهم قبل غزوات جنكيزخان . كما كبح جماح الوثنية وقضى على الفوضى التى كانت منتشرة فى امبراطوريتهم . وعلى الرغم من قسوته ، فقد كان رحيما إذا ما قورن بأسلافه ، كما اشتهر بكراهته سفك الدماء إلا إذا اعتبر ذلك ضرورياً لإقرار الأمن والسكينة فى ربوع دولته الواسعة . وكان — كما يقول هورث — يحرص كل الحرص على نشر العدل وبسط الأمن بين رعاياه ويعمل على توفير أسباب السعادة لهم[٤] .

وقد أدخل غازان كثيراً من ضروب الاصلاح فى الادارة المالية ، وكان نصيراً للعلم والأدب . فشجع دراسة العلوم الاسلامية ، ونشر الفنون والصناعات والعلوم الطبيعية . وبخاصة فن العمارة وعلم الفلك وفن التعدين وعلم النبات ، ووقف على أحوال الأقاليم الغربية التى استمدها من الرسل الصينيين واليهود والمصريين والاسبان ، والانجليز ، وغيرهم ممن تردد على بلاطه . وكان غازان أول من خرج من بين إيلخانات فارس عن طاعة الخان الأعظم بعد أن تحول إلى الاسلام وأعلن استقلاله بصك نقود جديدة . وكان إيلخانات

---

(١) كانت أقواس النصر تسمى إذذاك القلاع .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٣٧ — ٩٣٨ .

(٣) Browne, vol. III. pp. 42—43.

(٤) Howorth, part III. p. 491.

فارس إلى ذلك الوقت مجرد عمال اقطاعيين تابعين لخاقان منغوليا والصين ، حتى لقد أصبح هذا العهد الجديد الذى بدأ فى ١٣ رجب سنة ٧٠١ هـ (١٤ مارس ١٣٠٢ م)[١] يسمى عهد إيلخانى أو غازانى .

المعركة بين الناصر وأولجايتو خليفة غازان :

خلف غازان على العرش أولجايتو Uljáytù محمد خدابنده بن أرغون (٧٠٥ — ٧١٦هـ = ١٣٠٥ — ١٣١٦ م) فى ٢١ يوليه سنة ١٣٠٥م . وفى عهده خف ذلك العداء الذى استحكم بين المماليك والمغول . فقد أوفد أولجايتو السفراء إلى مصر لاظهار صداقته للناصر وتأكيد حسن نياته نحوه . على أن أولجايتو لم يكن مخلصاً فى تودده هذا إلى سلطان مصر ، فقد اعتنق مذهب الشيعة وغلا فيه وعمل على نشره فى الجهات الغربية من بلاده واشتد العداء بينه وبين المماليك السنيين وطمع فى الاستيلاء على سورية ومصر . وأرسل لذلك السفراء إلى البابا كلمنت الخامس وادوارد الثانى ملك انجلترا وفليب الجميل ملك فرنسا يطلب منهم العون على أخذ مصر وسورية وانزال العقاب بالمماليك . وقد بقى من هذه الكتب كتاباً أحدهما من ادوارد الثانى بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٣٠٧م وثانيهما من كلمنت الخامس بتاريخ أول مارس سنة ١٣٠٨ م[٢] . كما لا تزال هناك بسجلات باريس رسالة الى فليب الجميل يرجع تاريخها الى شهر مايو سنة ١٣٠٥ م .

على أن هذه البعوث لم تأت بطائل على رغم اعتقاد البابا وملوك أوروبا أن أولجايتو كان يميل الى الدين المسيحى . فقد ذكر دوسون أن رسول أولجايتو Philip Ildouchi قد أخفى نبأ اعتناق مولاه الاسلام[٣] حتى يضمن مساعدتهم له فى القضاء على « جماعة المسلمين » وبالأخص المماليك فى مصر .

وفى عهد أولجايتو قام المغول فى سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) بحملة على سورية وحاصروا مدينة الرحبة . ولكنهم اضطروا الى العودة الى بلادهم لحرارة الجو وقلة المؤن . ذلك أن الناصر اتهم قره سنقر[٤] بقتل أخيه وعول على أخذ ثأره . غير أنه رأى أن الفرصة لم تكن سانحة حينذاك فلم يرد بدأ من مطاولته . وفطن قره سنقر لما يراد به ، وكان يتملكه الشعور بجريمته فسار الى دمشق حيث اجتمع بنواب الشام وأخذ يؤلبهم على السلطان الناصر

---

(١) Howorth, part III. p. 486.

(٢) راجع بهذا الصدد الفصل الذى كتبه الدكتور عزيز سوريال عطيه بعنوان :
The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 233—259 فى كتابه Europe & the Tatars.

(٣) D'Hosson, tome I. pp. 450—451.

(٤) أحد الأمراء الذين اشتركوا مع لاچين فى قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

ثم طلب ولاية حلب ولكنه لم يطمئن على نفسه بها ، فطلب الاذن بالحج فأجيب الى طلبه . ولكنه عاد من طريقه خوفا من أن تفتك به الجيوش المصرية ، وعول على شق عصا الطاعة واصطنع بعض العرب بالأموال والهدايا ، وساروا جميعا الى بلاد فارس ، ومثلوا بين يدى أولجايتو وحسنوا له الاغارة على بلاد الشام ، فمنح قره سنقر ولاية مراغة حيث بقى بها إلى أن مات . وفى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) وقعت الحرب بين المماليك والمغول فى ماردين الهزيمة مرة أخرى(١) .

تحسن العلاقات بين الناصر وأبى سعيد ايلخان المغول :

توفى أولجايتو فى ١٦ ديسمبر سنة ١٣١٦ م . فخلفه ابنه أبو سعيد (٧١٧ — ٧٣٥ هـ = ١٣١٧ — ١٣٣٤ م) . وفى عهده تحسنت العلاقات بين الناصر والمغول ، ذلك أنه فى سنتى ١٣١٨ و ١٣١٩ م نزل بآسيا الصغرى قحط شديد ومجاعة مخيفة وتلتها فى سنة ١٣٢٠ م الاعاصير والزوابع . وقد راع هذا أبا سعيد فاستشار علماء الدين عن سبب تلك المحن ، فعزوها إلى انتشار الموبقات والاسراف فى شرب الخمر ، لدرجة أن الحانات كانت فى كثير من الأحيان ملاصقة للمساجد ودور العلم ، ومن ثم أمر أبو سعيد باغلاق هذه الدور واتلاف الخمور . ولم يسمح إلا بابقاء حانة واحدة للرحالة فى كل مركز .

ولعل هذا العمل كان من بين العوامل التى ساعدت على توطيد العلاقات بين أبى سعيد وبين الناصر ، ومن ثم جنح الفريقان للسلم وطرح ما كان بينهما من الاحن والأحقاد القديمة(٢) ويلوح أن أبا سعيد شعر بأنه لا يستطيع مناهضة المماليك لعدم استقرار الأمور فى بلاده ولنقص استعداده الحربى . فرأى من الحكمة وبعد النظر أن يخطب ود المماليك(٣) فأرسل الى الناصر يطلب الصلح (٧٢٢ هـ = ١٣٢٢ م) . وكان يحمل كتابه قاضى نوروز ، فوافق هذا الطلب هوى فى نفس الناصر وبعث مملوكه سيف الدين أيتمش المحمدى يحمل كتابه إلى المغول . وفى سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) تزوجت احدى أميرات المغول من أحفاد باتو Bâtu

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٦٦ — ٦٩
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٢٥ .

(٢) عن تحسن العلاقات بين الناصر وأبى سعيد . راجع المنهل الصافى لأبى المحاسن ج ٣ ص ١٢٥٠

(٣) ظهر أثر هذا التودد للمماليك من جانب التتر فى الهدايا وأهمها الأقمشة الثمينة التى كان يحملها سفراء التتر إلى السلطان الناصر . أبو الفدا : نفس المصدر والجزء ص ٩٥ — ٩٦ و
A. F. Kendrick : Catalogue of Muhammadan Textiles of the Mediaeval Period (Victoira and Albert Museum), pp. 40— 41.

بالسلطان الناصر مما ساعد على توثيق أواصر الود والصفاء بين البلدين (١) . وقد أورد القلقشندى نص كتاب أبى سعيد إلى الناصر (٢) .

بذلك عمل كل من الفريقين — المغول والمماليك — على نسيان الأحقاد القديمة التى كانت بينهما . وظلت مصر بمأمن من غارات المغول إلى عهد تيمورلنك . على أن الفتن والاضطرابات التى تلت موت أبى سعيد قد شجعت الناصر على التفكير فى أخذ بلاد فارس . وظهر أثر هذه السياسة فى مناصرة الناصر لحسن الأكبر على أخيه حسن الأصغر ولدى تيمورتاش بن شُوبان Chúbán حاكم آسيا الصغرى . وأرسل الناصر إلى حسن الأكبر كتابا يعده فيه بالمساعدة مقابل اعترافه بالسيادة له فى بغداد .

ب — علاقات مصر بمغول الهند

فكر العرب فى فتح بلاد الهند منذ أيام عمر بن الخطاب ، حيث وصلوا إلى خور الدَّيْبُل الذى يقع على الساحل الغربى لبلاد الهند ، ويعرف الآن باسم كراتشى . ثم توالت غزوات العرب لهذه البلاد إلى سنة ٤٤ هـ حيث غزا المهلب بن أبى صفرة الذى شملت فتوحه بلاد السند وامتدت إلى الأراضى الواقعة بين كابل والملتان (البوقان والقيقان والدَّيْبل) . وقد صُبغت بعض حملات المسلمين بصبغة الجهاد الدينى ، ولاسيما هذه الحملات التى قام بها محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ = ٩٩٨ — ١٠٣٠ م) الذى غزا بلاد الهند اثنتى عشرة مرة (١٠٠١ — ١٠٢٤ م) والذى ضَمَّ بلاد البنجاب واتخذ لاهور مقراً له (٣) . ويقول ستانلى لينپول إن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقراً لهم يمكن اعتباره بدء حكم المسلمين الحقيقى فى بلاد الهند (٤) .

وقد مهدت الدولة الغزنوية فى لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغورى (٥) وخلفائه الذين تولوا سلطنة دهلى ونشروا نفوذ المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية . ثم أخذت الأسر تتداول حكم مملكة الهندستان حتى استقرّ فى عصر الناصر محمد فى أسرة طُغْلُق Tughliqs (٧٢١ — ٨١٥ هـ = ١٣٢٠ — ١٤١٢ م) . وكان أول ملوكها طغلق نفسه ، وثانيهما ألوك خان الذى تولى العرش فى سنة ٧٢٦ هـ (مارس سنة ١٣٢٥ م) باسم السلطان محمد بن طغلق ، وهو سلطان المغول فى الهند الذى عاصر الناصر محمداً .

---

(١) Browne, Vol. III. p. 53.

(٢) صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٥٣ — ٢٥٦ .

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I., p. 376.

(٤) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 304.

(٥) حكمت الدولة الغورية أفغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣ إلى ٦١٢ هـ (١١٤٨ — ١٢١٥ م) .

وكانت سياسة محمد بن طغلق ترمى إلى وحدة بلاد الهند ، وإلى التوسع فى فارس وبلاد الصين ، وجعل بلاد الهند مركزاً من مراكز الحضارة الاسلامية . واتخذ لتنفيذ مشروعه سياسة الترحيب بالسفراء والرحالة والتجار الذين كانوا يفدون على الهند من شتى الأقطار الاسلامية والمبالغة فى إكرامهم والحفاوة بهم وترغيبهم فى الاقامة فى بلاده ، حتى أصبحت دهلى قريبة الشبه ببغداد فى أيام العباسيين . وكان يرمى من تودده للمسلمين فى سائر البلاد إلى جذب عطف العالم الاسلامى وتأييده له فى مشروعه الجديد(١) .

وقد بدأت علاقة مغول الهند بمصر فى سنة (٧٢٦ هـ = ١٣٢٥ م) حين أرسل محمد بن طغلق إلى الخليفة العباسى بالقاهرة ، وهو المستكفى بالله ، يطلب منه أن يمنحه تفويضاً يجعل حكمه شرعياً فى بلاده ليتمكن بذلك من تسكين الفتن الداخلية التى كانت تقوم ضده بين آن وآخر وليتمكن كذلك من جمع المال عن طريق فرض الضرائب كى يستطيع تنفيذ سياسته الجديدة . فأجابه الخليفة إلى طلبه وبعث التفويض مع رسول خاص وخرج السلطان ابن طغلق بنفسه لاستقبال رسول الخليفة وأحسن مقابلته وأكرم وفادته وأمر بأن يذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبه وينقش على السكة (٢) مما ساعد على إيجاد علاقة ودية بين مصر والهند .

ومن العوامل التى ساعدت على توثيق العلاقات بين مصر والهند فى عصر الناصر ، عامل التجارة . فلقد كانت أهم الطرق الموصلة بين ثغور الشرق الأدنى والهند طريقان : أحدهما طريق البحر من القلزم إلى طور والقصير وعيذاب (٣) وعدن ومنها إلى سواحل السند . وثانيهما من حلب إلى بغداد والبصرة وعبادان وهرمز ومنها إلى السند والهند والصين (٤) . وقد أضرت غزوات المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) بسلامة الطريق بين العراق وسورية . وزادت بذلك أهمية الطريق الثانى . ونشأ تبادل تجارى بين مصر والهند : فكانت مصر تستورد منها جميع المنتجات اللازمة لها كالحمص والحنطة والسمسم والرانج

---

(١) Allan : The Cambridge Shorter History of India, p. 236.

(٢) Lane-Poole : Mediaeval India Under Muhammadan Rule, pp. 137—138.
Arnold : The Caliphate, p. 104.
H. Nelson wright : The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi, pp.168—170.

(٣) عيذاب — بليدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر الآن) كانت من أشهر المراسى تأتى إليها سفن اليمن والحبشة والهند . وكانت فى الماضى طريق الحج المصرى ، تسير إليها الركاب عن طريق قبرص ثم يركبون البحر منها إلى جدة . وكانت ذات شأن عظيم للحجاج ويبدأ منها طريق القوافل إلى أسوان وأدفو وقوص . المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ . رحلة ابن جبير (طبعة دى غويا) ص ٦٥ وما بعدها . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٨٦ — ٨٧ .

(جوز الهند) وغيرها ، كما كانت الهند تستورد من مصر كثيراً من الغلات ولاسيما السكتان(١). وبذا زادت أهمية ثغور كل من الدولتين : مصر والهند وعظم شأنها فقد كانت الاسكندرية لعظمتها تسمى فى ذلك العصر « مخزن العالم »(٢) ولم يكن يماثلها إلا كولم وقاليقوط(٣) ببلاد الهند(٤) .

ولقد ساعدت سهولة المواصلات على وفود عدد من الهنود الى مصر . وبلغ من اهتمام الناصر بهم أن ولى بعضهم مناصب هامة فى الدولة ، وتمتع بعضهم بمكانة محترمة بين أهل مصر وأسند كذلك إلى بعض المصريين مناصب فى الهند . ولا أدل على ذلك من تلك الحكاية التى يرويها ابن بطوطة عند كلامه على علماء الاسكندرية عند مروره بها سنة ٧٢٦ هـ : « ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهاد وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالاسكندرية . وأقمت فى ضيافته ثلاثا . دخلت عليه يوماً فقال لى : أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فقلت له : نعم إنى أحب ذلك . ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين . فقال : لابد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام »(٥). وقال فى موضع آخر عن زيارته لمدينة النحريرية(٦) : « وهى رحبة الفناء ، حديثة البناء ، أسواقها حسنة الرؤيا ، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده فى خدمة ملك الهند » .(٧)

وانتهز ابن طغلق فرصة هذه العلاقات الطيبة القائمة بين مصر والهند . ورغب فى الاتحاد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٨٢ و٩٣ .

(٢) G. Wiet : Trois formules d'Indépendance dans l'Egypte Mediévale, p. 1. (ed. de la Revue du Caire, 1942).

(٣) كولم وقاليقوط — ثغران على ساحل الملبار بالهند .

(٤) وصف ابن بطوطة (تحفة النظار ج ١ ص ٨ و٩) مدينة الاسكندرية أثناء زيارته لها سنة ٧٢٦ هـ فقال « ثم وصلنا فى أول جمادى الأولى إلى مدينة الاسكندرية حرسها الله . وهى الثغر المحروس والقطر المانوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين كرمت معانيها ولطفت مغانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها . . . الزاهية بجمالها المغرب الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب » .

(٥) تحفة النظار ج ١ ص ١١ .

(٦) وصف المقريزى (الخطط ج ١ ص ٢٢٦) النحريرية فقال « النحريرية قرية من أعمال الغربية أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر العدى نقيب الجيش فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وبالغ فى عمارتها »

(٧) ابن بطوطة : نفس المصدر والجزء ص ١٥ .

مع الناصر على عدوها المشترك : مغول فارس . ذلك أن بلاد الهند كانت — قبل أن يجلس محمد بن طغلق على عرشها — فى حرب مع المغول فى فارس . وكان هؤلاء لا يفترون عن الاغارة على إقليم البنجاب الواقع فى الطرف الشرقى للهند . (١) ولم تنقطع تلك الاغارات فى عهد ابن طغلق بل استمرت على ما كانت عليه من قبل . وانتهز مغول فارس فرصة اشتغاله باخماد الثورات الداخلية فى بلاده وجددوا تلك الاغارات التى ازدادت عنفا وشدة . فرأى السلطان محمد بن طغلق أن يتحالف مع الناصر عليهم وبعث اليه فى سنة ٧٣٢ — ٧٣٣ هـ (١٣٣١ — ١٣٣٢ م) رسولا يحمل بعض الهدايا الثمينة ويعرض عليه مشروعا يقضى باتحاد مصر والهند فى القيام بهجوم على عدوهم المشترك . وذلك بأن تشترك معه مصر فى الاغارة على بلاد فارس من ناحية الغرب ، فى الوقت الذى يتقدم هو إلى مهاجمتها من الشرق . (٢)

وكان ابن طغلق يرمى من وراء ذلك المشروع إلى تحطيم قوة مغول فارس لتأمين حدود بلاد الهند من الناحية الشرقية ، وانتزاع خراسان من أيدى المغول . وكان ذلك العزم من أقوى العوامل التى جعلته يرحب بالأجانب عسى أن يمدوا اليه يد المساعدة والمعونة إذا ما بدأ فتوحه ضد مغول فارس (٣).

وعلى الرغم من أن الناصر قد عمل على تنمية علاقات المودة والصداقة بينه وبين ابن طغلق لم يجبه إلى ما طلب من الاشتراك معه فى الاغارة على بلاد الفرس من الناحيتين الغربية والشرقية . والظاهر أن الناصر كان معذورا فى عدم قبول ذلك الطلب لأن ابن طغلق بعث كتابه فى وقت قامت فيه العلاقات بين مصر وفارس على أساس المودة والصفاء إذ كان يجلس على عرش المغول اذ ذاك أبو سعيد الذى بدأ عهده بازالة أسباب العداء القائم بين مصر وفارس وعقد معاهدة صداقة بين البلدين فى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) (٤)

وحاول ابن طغلق بعد ذلك أن يقوم بهذا المشروع وحده ، وجهّز جيشاً كبيراً أعده لفتح خراسان أولا ، ولكن قلة دخل الدولة وسوء حالة بلاده المالية أعجزه عن القيام بحملته بل عن دفع رواتب الجند . فاضطر إلى العدول عن عزمه وتسريح جيشه . (٥)

---

(١) Allan, p. 226, 227, 228.

(٢) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 307.

(٣) Allan, p. 236.

(٤) Lane — Pool : Egypt in the Middle Ages, p. 307.

(٥) Allan, p. 236.

ج — علاقات مصر بمغول القفجاق .

كان للمغول دولتان عظيمتان هما : دولة بنى هولاكو وتشمل بلاد العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، ودولة بنى چوچى بن چنكيز خان فى الشمال ، وتعرف باسم بلاد القفجاق التى ظلت مملكة بدوية ترعى قطعانها وسط السهول الفسيحة الواقعة فى جنوب الروسيا وغربى آسيا القريبة من الروسيا . وكان ملكهم هو خان القبيلة الذهبية Golden Horde التى امتد سلطانها على سيبيريا والجزء الجنوبى من الروسيا . وكثيراً ما قامت الحروب بين هاتين الدولتين ، وكانت سياسة دولة بنى چوچى قائمة على أساس المصافاة والمسالمة لسلاطين المماليك فى مصر ليكونوا عوناً لهم على أعدائهم من بنى هولاكو (١) .

لذلك لما ولى أوزبك خان Uzbeck Khan (١٣١٣ — ١٣٤٠ م) — الذى كان زعيما للقبيلة الذهبية والذى اشتهر بميله للدين الاسلامى (٢) — عرش القفجاق فى سنة ١٣١٣ م عرض قطلغمير نائب بلاد الروم على رسل الناصر مشروع زواج الناصر من إحدى أميرات ذلك البيت ، فوجد الرسل والهدايا تتبادل من الجانبين ستة أعوام ، حضرت فى نهايتها مخطوبته طلبناش القفجاقية (٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م) مع وفد من كبار رجال تلك الدولة ومرت فى طريقها إلى مصر على القسطنطينية فبالغ امبراطورها فى إكرامها هى ومن معها . ولما وصلت العروس إلى الاسكندرية حملت إلى القاهرة على عجلة موشاة بالذهب ومزينة بالطنافس الثمينة فتلقاها الناصر بالبشر والترحيب وأكرم الوفد الذى صحبها وفى اليوم الثالث من وصولها عقد زواجها بين مظاهر الفرح والابتهاج والسرور (٣) .

بذلك توثقت عرا الصداقة بين الدولتين . وانتهز أزبك تلك الفرصة ، فطلب من الناصر العون والمساعدة على خصمه أبى سعيد إيلخان المغول فى فارس وصادف هذا الطلب قبولا من الناصر لأن مصر كانت إذ ذاك فى عداء مستحكم مع مغول فارس . على أن أبا سعيد نهج على سياسة تنطوى على التودد إلى الناصر وأبرم الصلح بينهما وزال ما كان بين المماليك والمغول من عداء مستحكم . لذلك رفض الناصر مناصرة أزبك على أبى سعيد وأوضح له أن إيلخان المغول فى فارس قد اعتنق الاسلام وأنه قد عمل على إزالة أسباب حالة العداء بين

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٣١ .

(٢) أورد ابن بطوطة (تحفة النظار ج ١ ص ٢١٢ — ٢١٣) صفات « السلطان المعظم محمد أوزبك خان » فقال : « وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لأعدائه » .

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر والجزء ص ٤٣١

البلدين وعلى أثر ذلك دارت المفاوضات بين أمير أزبك وأبى سعيد وانتهت بعقد الصلح بينهما ، وأرجع كل منهما ما كان قد أخذه من الآخر وتهادنا (١) .

٢ — علاقات مصر بأرمينية

كانت بلاد أرمينية هدفاً لغارات المصريين الذين غزوها أكثر من مرة واستولوا على حصونها . وقد ظهرت هذه العلاقات بين مصر وأرمينية فى عهد السلطان بيبرس سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) ، وذلك حين أغار ملك أرمينية هيثوم (Hayton II) Hethum على الحدود السورية بتحريض المغول فى فارس ومعاضدة سلطان دولة الروم السلجوقية . فسير بيبرس حملة تأديبية للاقتصاص منه واجتاح بلاد أرمينية من شمالها إلى جنوبها ، والتهمت النيران عاصمتها « سيس » (Sis) بعد أن تعرضت للسلب والنهب . وفى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧م) أعلن الملك هيثوم قبوله حماية مصر ودفع الجزية لسلطان المماليك (٢) .

وظلت أرمينية خاضعة لمصر حتى اعتلى الناصر العرش . وكانت أرمينية قد انتهزت فرصة استيلاء المغول على بلاد الشام وطمعت فى استرداد حصونها التى خرجت عن سلطانها . واستولت على جميع هذه الحصون عدا حصن حجر شغلان . على أن الهدنة التى أبرمت بين المصريين والمغول هيأت للناصر الفرصة للاغارة على تلك البلاد . لكى تأمن بلاد الشام شرهم . فأرسل فى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) جيشاً سار إلى هذه البلاد وأمر كتبغا نائبه على حماه أن ينضم بجنده إلى ذلك الجيش . وتم للناصر ما أراد ، ولم تنج سيس وقلعتها من التدمير والتخريب وعادت الجيوش المصرية ظافرة إلى بلاد الشام (٣) .

على أن الأرمن لم تلن لهم قناة فامتنعوا عن دفع الجزية وانضمت جيوشهم إلى جيوش المغول فى تلك الحملة التى وجهوها إلى سورية سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) ، تلك الحملة التى انتهت بانتصار المصريين انتصاراً باهراً فى موقعة مرج الصفر على ما تقدم ، ولم ير الناصر بداً من إنزال العقاب بالأرمن ، لمالأتهم المغول أعداء المماليك فى ذلك الوقت . فوجه إليهم فى أواخر سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) جيشاً من جند المماليك فى مصر والشام تحت قيادة أربعة من أمهر قواده وهم : بدر الدين بكتاش الفخرى ، وأيبك الخازندار ، وقره سنقر المنصورى ، وسيف الدين قبجق . ودخلت الجيوش مدينة سيس عاصمة أرمينية للمرة الثالثة وحاصروا تل حمدون

---

(١) ابن خلدون : العبر ص ٤٣١ — ٤٣٢ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٥١٠

Muir: The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 23.

(٣) ابو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٣ . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٢٨ — ١٢٩ .

وهدموه كما هدموا وخربوا كثيراً من الحصون الأخرى ولم تترك تلك الجيوش البلاد إلا بعد أن دفع أمير سيس كل ما تأخر عليه من الجزية مضاعفة (١) .

على أن الأرمن لم يفتروا عن مناوأة المصريين وعادوا إلى الامتناع عن دفع الجزية ، فجهز لهم قره سنقر نائب حلب سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) جيشا تحت قيادة مملوكه قشتمر . وكان ضعيفاً يدمن الخمر . وأخفقت هذه الحملة لاتحاد الأرمن والمغول والفرنجة على عدوهم المشترك ووصلت جيوشهم إلى غزة حيث التقوا بجيش قشتمر وهزموه وأسروا عدداً كبيراً من جنده. ولقى جيش قشتمر كثيراً من الأهوال فى أثناء عودته الى سورية (٢) .

وقد أقلقت هذه الهزيمة بال الناصر ، فجهز جيشاً كبيراً بقيادة بكتاش الفخرى ووصل الجيش إلى غزة . ولما اتصل ذلك بعلم هيثوم ملك أرمينية خشى عاقبة الأمر وبعث إلى قره سنقر نائب حلب بالجزية المتأخرة عليه ورجا منه أن يشفع له عند الناصر . فأجابه الناصر إلى ما طلب وأمر بعودة الجيوش المصرية من تلك البلاد . وحرص ملك أرمينية على إرسال الجزية إلى مصر (٣) .

الا أن الأرمن قد عاودوا العصيان فى سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) فأرسل إليهم الناصر فى تلك السنة حملة من جند مصر وأمر الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام بالانضمام إليها ، فخرج بجيش صفد وحماه وحمص وطرابلس فى أول المحرم سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) وتولى هو القيادة العامة . وحاصر ملطية ودخلها فى يوم الثلاثاء ٢٣ محرم من تلك السنة ولم تلق جيوش الناصر مقاومة من نائب ملطية ، الذى كان على اتصال بالناصر من قبل ، كما سلم أعيان ملطية أنفسهم إلى تنكز دون مقاومة . فأحسن إليهم وخلع عليهم ونهى جنده عن دخول المدينة وتخريبها على أن جند تنكز لم تصغ لهذه الأوامر ، فدخلوا مدينة ملطية ونهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها . ولولا ما أبداه تنكز من حزم فى معاملة هؤلاء الجند لساءت الحال وفنى أهل المدينة(٤) . ويذكر لنا المؤرخ أبو الفداء الذى كان نائب حماه واشترك فى هذه الموقعة أنه حاول أن يحول بين الجند وبين ما أرادوه من ارتكاب هذه الشرور . ولكنه اضطر إلى العدول عن ذلك خشية اتهامه بالتشيع لأهل هذه المدينة (٥) . ورحل تنكز بعد ذلك إلى دمشق بعد أن ترك نائب حلب ليشرف بنفسه على هدم أسوارها المنيعة حتى لا تقوم سداً فى وجه المماليك مرة أخرى .

---

(١) Camb. Med. Hist Vol. IV. p. 177.

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٤ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٢٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٤ .

(٥) أبو الفدا : نفس المصدر والجزء ص ٥٤ .

توالت انتصارات جند الناصر محمد بعد ذلك ، ففتحوا مدينة عزقية من أعمال آمد فى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) ، ثم فتحوا مدينة آمد بعد ذلك بسنتين وغنموا منها أموالا عظيمة (١). وقد ساعدت الأحوال السيئة فى بلاد أرمينية الناصر محمداً على غزوها مرة أخرى فقد تولى عرشها الملك ليو الخامس Leo V (٧٢٠ – ٧٤٣ هـ = ١٣٢٠ — ١٣٤٢م) . وكان طفلا قاصراً ، فطمع كثيرون فى عرشه ودسوا له الدسائس . وقد وجد الناصر فى هذه الأحوال فرصة سانحة لضم هذه البلاد إلى أملاكه ، فأرسل اليها (٧٢٢ هـ = ١٣٢٢م) جيشا بحجة جمع الجزية ، ولكنه كان فى حقيقة الأمر يرمى إلى احتلال هذه البلاد . ولما لم يجد ليو من ينصره فى محنته ، لم ير بدأ من التسليم بمطالب الناصر وعقد معه هدنة أمدها خمس عشرة سنة ، على أن تدفع أرمينية لسلطان المماليك جزية سنوية قدرها خمسون ألف فلورين florins ، عدا نصف ما يتحصل من الضرائب الجمركية ، وما تجمعه مدينة اياس Ayas من التجارة البحرية ، ونصف ما يجبى من ثمن الملح . وتعهد الناصر من ناحيته باعادة بناء مدينة اياس وغيرها من الحصون التى هدمت ، على نفقته الخاصة (٢) .

على أن السلام لم يدم طويلا بين مصر وأرمينية . فقد أعلن البابا چون الثانى فى سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) تسيير حملة صليبية إلى مصر بقيادة فليب السادس ملك فرنسا . فظن « ليو » أن الفرصة قد سنحت له ليتخلص من حماية الناصر . وامتنع عن دفع الجزية وأرسل جيشاً للاغارة على حدود مصر من ناحية سورية . ولكن سوء الحظ قد لازم أرمينية ، فمات البابا ، وأغفل مشروع هذه الحملة الصليبية . أما الناصر فقد تغير على ليو وصمم على الانتقام من ملك أرمينية لأنه لم يحرص على الوفاء بما عاهد الناصر عليه ، وسرعان ما اجتاحت الجنود المصرية بلاد أرمينية مرة أخرى ودخلت مدينة سيس Sis سنة ٧٣٦ هـ ، وحاصرت قلعة النقير ، وهدمت مدينة أياس . ولم ير ليو بدأ من التسليم بمطالب الناصر وسلم ما تأخر من الجزية ، وقام بدفع نفقات هذه الحملة . ثم جلت جيوش الناصر عن هذه البلاد بعد أن جمعت كثيراً من الأسلاب والغنائم ، وبعد أن حلف الملك ليو ألا يناصر دولة أوربية على سلطان مصر . (٣)

وعلى هذا أصبحت العلاقة بين مصر وأرمينية علاقة تبعية ، قوامها الاعتراف بسيادة سلطان المماليك ودفع الجزية له بانتظام ، (٤) وحل الوئام والسلام بين البلدين . ولو أن الأرمن

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٧ .

(٢) Camb. Med. History, Vol. IV., p. 180.

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر والجزء ص ٤٣٠ .

Camb. Med. History, Vol. IV. p. 180.

(٤) ضمت أرمينية نهائيا إلى ملك مصر سنة ٧٧٥ هـ (١٢٧٥ م) ، ومن بعدهم إلى الأتراك ، ثم استقلت بعد الحرب العظمى سنة ١٩١٨ .

ظلوا من بادىء الأمر بعيدين عن تحريض المغول فى فارس ووعدهم إياهم بمد يد المساعدة لهم فى محاربتهم للناصر ، لظلوا آمنين مطمئنين فى ديارهم بعيدين عن إثارة غضب المصريين عليهم وتنكيلهم بهم هذا التنكيل الذى أدى إلى اضعاف شوكتهم وتشتيت شملهم(١) .

٣ — علاقات مصر ببلاد العرب

ا — بلاد اليمن

كان اسم سلطان المماليك واسم الخليفة العباسى فى القاهرة يذكران فى الخطبة وينقشان على السكة فى بلاد اليمن وكان هذان الأمران من أهم مظاهر سيادة مصر على تلك البلاد . ولم يعد الأمر هذين المظهرين ، ولكن بعض ملوك اليمن أظهروا رغبتهم فى عدم الاعتراف بسيادة سلطان المماليك على بلادهم . فامتنعوا عن أداء ما فرض عليهم من جزية ، ورفضوا ذكر اسم الخليفة العباسى فى القاهرة فى الخطبة ، كما رغبوا عن إعطاء بلاد الحجاز التى كانت تابعة لمصر إذ ذاك ما اعتادوا إرساله اليها من الغلال ، على أن يرسلوه باسم اليمن — لا باسم مصر — حتى يتقدم اسم ملك اليمن على اسم سلطان مصر فى خطبة الجمعة ، أضف إلى ذلك أنهم كثيراً ما أساءوا إلى التجار المصريين الذين كانوا يفدون على بلاد اليمن وسلبوهم أموالهم(٢).

وظهرت بوادر هذا العصيان والرغبة فى الانفصال عن مصر بجلاء فى عهد الناصر ، عندما منع الملك المؤيد هزبر الدين داود بن يوسف بن رسول الهدية التى اعتاد ملوك اليمن إرسالها إلى سلطان مصر فى كل عام . فأرسل اليه الخليفة المستكفى بالله فى سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) كتابا مسهبا يعد فى الواقع انذاراً من الخليفه إلى ملك اليمن . (٣)

استهل الخليفة كتابه إليه بهذه الآية الكريمة (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وهى تدلنا على أن بلاد اليمن كانت تعتبر من الولايات التابعة لسلطان مصر . وفى هذا الكتاب نرى الخليفة يعدد المخالفات التى ارتكبها ملك اليمن نحو مصر فيقول « قطع الميرة عن البيت الحرام ، انصبابك إلى تفريغ مال بيت المال فى شراء لهو الحديث ، ونقض العهود القديمة بما تبديه من حديث ، وتعطيل أجياد المنابر عن عقود اسمنا » . ومن ذلك نتبين مقدار ما كان لمصر من نفوذ فى بلاد اليمن فى ذلك العصر . ونرى فى نهاية الكتاب تهديداً صريحاً من الخليفة بتسيير جيش من المصريين للقضاء على ملكه ومنعه من « التصرف فى البلاد والنظر فى أحكام العباد » إن لم يذعن لارادة الخليفة والسلطان ويلبى

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 24.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

(٣) أورد القلقشندى (نفس المصدر ج ١٢ ص ٤٢١ — ٤٢٦) نص هذا الكتاب .

مطالبه . قال : « وأشرط على نفسك فى كل سنة قطيعة تدفعها إلى بيت المال وإياك ثم وإياك أن تكون عن هذا الأمر ممن مال ، ورتب جيشاً تحت علم السلطان الأجل الملك الناصر للقاء العدو المخذول التتار » .

ولما لم يجد هذا التهديد نفعاً عول الناصر على ارسال جيش لقتال ملك اليمن بقيادة الأمير عز الدين أيبك الشجاعى وسافرا معاً إلى قوص لاعداد تلك الحملة . على أن وقوع الخلاف بين الناصر من جهة وبين أمراء مصر وعلى رأسهم سلار وبيبرس الجاشنكير من جهة أخرى ورغبة بيبرس فى قيادة هذه الحملة بنفسه ليبتعد عن القاهرة فى أثناء اشتداد تلك الفتنة ، قد أدى الى تأجيل ذلك المشروع .

بيد أن العلاقات بين مصر واليمن قد دخلت فى طور جديد وحل الصفاء والسلام بين البلدين محل النزاع والخلاف . ولعل ذلك راجع إلى رغبة أمير اليمن فى التماس مساعدة الناصر على منافسيه فى إمارة اليمن ووفدت رسل صاحب اليمن إلى مصر يحملون الهدايا إلى السلطان الناصر من حين إلى حين ، تلك الهدايا التى عدها السلطان جزية من ملوك اليمن إظهاراً لخضوعهم لسلطان مصر . ومما يدل على صحة ما نقول أن المجاهد صاحب اليمن أرسل إلى السلطان الناصر من قبله رسلا يطلبون اليه أن ينجده بجيش مصرى يشد أزره على منافسيه فى العرش . فأمر الناصر باعداد جيش بقيادة بيبرس الحاجب وطينال وأنفق الأموال الكثيرة فى سبيل إعداد تلك الحملة . وأرسل الناصر إلى صاحب اليمن ألفا وثلثمائة فارس من مماليكه وكثيرا من عرب الصعيد عدا معدات الحرب من سلاح وخيل وغيرها .

على أن تلك الحملة كان مصيرها الاخفاق ، بسبب عدم تعاون صاحب اليمن مع الحملة المصرية فضلا عن امتناعه عن دفع الجزية الى سلطان مصر بحجة عدم قدرته (٢) . ويظهر أن أمير اليمن قد خامرته الشكوك فى نيات الناصر نحو اليمن وخاف أن يكون ثمن هذه المساعدة أن يضع المصريون يدهم على حكومة اليمن تمهيداً للاستيلاء عليها وقد أثار هذا العمل حنق الناصر ونسب إلى الحاجب تقصيره فى امتلاك بلاد اليمن ، فولاه غزة وأمره بالرحيل اليها . ثم أمر بالقبض عليه هو وحاشيته لعدم إطاعته الأمر ثم عفا عنهم . ولم يحاول الناصر فتح اليمن بعد ذلك .

بذلك انتقلت العلاقات بين مصر واليمن فى عهد الناصر إلى دور جديد ، استحكم فيه العداء . وفى ذلك يقول أبو الفداء عند كلامه على حوادث سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ م) : « وفيه قدم رسول صاحب اليمن بهدية فقيد وسجن لأن صاحب الهند بعث إلى السلطان هدايا . فأخذها

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ القسم الأول ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر ج ٢ القسم الأول ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

Enc. Isl. art. Al-Nasir.

صاحب اليمن وقتل بعض من كان معها وحبس بعضهم » (١)

وعلى الجملة فان اليمن دخلت نظريا تحت سلطان المماليك منذ جاء ذكرها فى التقليد الذى كتبه الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ وفيه يقول . « وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار بكرية . والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً (٢) وفوض أمر جندها ورعاياها اليك حين أصبحت بالمكارم فرداً (٣).

ب — بلاد الحجاز

كان استيلاء المماليك على بلاد الحجاز (٤) راجعاً إلى عوامل سياسية أكثر منها دينية ، وتلك العوامل السياسية تقوم على حقيقتين أساسيتين ورثتهما مصر عن عهد الخلفاء الراشدين وهما : ارسال الغلال والميرة الى بلاد الحجاز كضريبة يجب أن تؤديها نحو البلاد التى تضم الحرمين الشريفين ، وإرسال كسوة الكعبة التى كانت تصنع من أجمل وأنفس منسوجات الشرق واشتهرت بها مصر منذ عهد بعيد . وقد ثبّت الظاهر بيبرس سيادة المماليك فى بلاد الحجاز ، حين قبل أشراف مكة فى سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . واستطاع قلاوون أن يظفر باعتراف أمير مكة بسلطانه وحلف يمين الولاء له . وحصل الناصر بعد ذلك على امتيازات جعلته صاحب الشأن الأول فى بلاد الحجاز ، كما يتضح ذلك من تدخله فى الأمور القضائية بين أمراء البلاد ونبلائها . (٥)

وكان أشراف مكة إذا احتدم بينهم الخلاف على السيادة والنفوذ ، يلجئون إلى الناصر ليحسم خلافهم ، وأظهر الأمثلة على ذلك ، الخلاف الذى وقع بين حميضة بن أبى نمى الحسنى المكى والى مكة وبين أخيه أسد الدين أبى عرارة رميثة ، فقد لجأ الأخير إلى الناصر وأبلغه أن أخاه حميضة قد حذف اسمه من خطبة الجمعة وأحل محله اسم صاحب اليمن ، فجرد الناصر اليه حملة هزمت أتباع حميضة ، وفر هو إلى خدابنده إيلخان المغول فى فارس ، الذى أمده بجيش من خراسان بلغ عدده أربعة آلاف فارس ، سار بهم إلى مكة ، ابتغاء القضاء على سيادة الناصر فى الحجاز . إلا أن الحظ خدم سلطان مصر إذ توفى خدابنده قبل أن يصل هذا الجيش

(١) المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ١٠٤ .

(٢) النجد — ما غلظ من الأرض وارتفع . والغور — ما انحدر منها .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١٣ .

(٤) عن علاقة مصر بالحجاز — راجع

Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 413 — 418

وما ذكره فان برشم من المراجع

(٥) Wiet : Précis de l'Histoire d'Fgypte, tome 2. p. 251

إلى مكة . وكان من أثر ذلك أن حملة حميضة ضد الناصر على مكة لم تعطل فحسب ، بل أن محمد ابن عيسى أخا مهنا بن عيسى الذى كان قد خرج عن طاعة الناصر وانضم إلى قردسنقر فى فارس خرج مع جنده الذين كانوا يتألفون من العربان وهزم جند حميضة وأسره مع مائة من المغول وأعلن بسيادة الناصر على بلاد الحجاز . وكتب اليه بذلك فطلب اليه الحضور إلى مصر فوصل اليها فى ١٣ رمضان سنة ٧١٥ هـ . وأحسن الناصر وفادته وأظهر عطفه عليه وتقديره له وأجزل له العطاء ، وقدم اليه — كما يقول ابن الوردى — فرسا أصيلا وضيعة كما أنعم عليه بمائتى ألف درهم وعفا عن أخيه مهنا وأذن له بالعودة الى مكة (١) .

ومن ثم أعيدت الخطبة للناصر فى المدينتين المقدستين : مكة والمدينة فى سنة ٧١٧ هـ (١٣١٧ م) ، وهنا نشير إلى أن لقب « خادم الحرمين الشريفين » الذى اتخذه الأيوبيون واحتفظ به المماليك من بعدهم كان من ألقاب الملك الناصر ، كما كان من ألقابه أيضاً « صاحب القبلتين » أى صاحب بيت المقدس ومكة (٢) . غير أن سلطة الناصر فى بلاد الحجاز كانت صورية أكثر منها حقيقة واقعة ، وأن نفوذه لم يتعد ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة أحياناً . أضف إلى ذلك أن أمراء مكة والمدينة لم يقبلوا الاعتراف بسلطة الخلفية العباسى فى القاهرة ، حتى أن اسمه لم يذكر فى الخطبة على منابرها ، وقد عزا السير توماس أرنولد (٣) عدم ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة على منابر هذه البلاد إلى أن السلطات الدينية فيها قد اعتبرت العالم الاسلامى محكوماً بغير خليفة وخامرهم الشك فى مبلغ أحقية خلفاء بنى العباس فى القاهرة فى الحصول على ذلك الشرف لأنهم كانوا يعتقدون أن هذا الخليفة صنيعة سلاطين المماليك الذين أقاموه لتثبيت سلطانهم ليس غير . وليس أدل على صحة هذا القول من أن اسم الخلفاء العباسيين فى مصر لم ينقش على السكة وأنه لم يصدر باسم أحد من هؤلاء الخلفاء ، لا فى عهد الناصر ولا فى عهد غيره من سلاطين المماليك ، مرسوم قط ، وإن كان اسم الخليفة قد ذكر فى الخطبة على المنابر ، فان ذلك لم يكن يكسبه نفوذاً فعلياً ، بدليل ذكره بعد اسم السلطان ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الخليفة العباسى فى القاهرة لم يكن له من الشأن ما كان لأسلافه فى بغداد ، وخاصة فى العصر العباسى الأول .

ومما يجدر ملاحظته أن العمرى الذى كتب نحو سنة ٧٣٥ هـ فى حكم الناصر محمد ، أشار إلى الحجاز فى عبارة دقيقة المعنى ، ختم بها كلامه عن اقليم « السكرك » فى كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف » . قال : « وبهذا تم ذكر النطاق بمصر والشامات وما معها من جميع الممالك الإسلامية

---

(١) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٦٥ . Enc. Isl. art. Al-Nasir.

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 127, 497.

(٣) Arnold : The Caliphate, p. 100.

إلا الحجاز ، وهو قطعة من جزيرة العرب وليس أمره بمضبوط ولا بحفظ الثقة منوط » [١] مما يشهد بأن خضوع أمراء الحجاز لمصر لم يكن تاماً فى بعض فترات العصر المملوكى .

٤ — اتساع نفوذ مصر فى افريقية

امتد نفوذ الناصر على جزء كبير من شمال أفريقية ، فذكر اسمه على منابر تونس وطرابلس فقد كان ملكها أبو زكريا يحيى (٧١١ — ٧١٧ هـ = ١٣١١ — ١٣١٧ م) من الحفصيين مديناً بعرشه لمعاضدة الناصر إياه وتأييده [٢] . وقد بلغ من تودد ملك المغرب للناصر أن بعث إليه رسلا يقال إنهم من أصل مراكشى ، يحملون إليه هدية ثمينة من الخيل العربية والبغال محملة بالسروج والذهب المصرى [٣] .

وامتدت غزوات الناصر إلى برقة فى سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) ، وذلك حين امتنع العرب النازلون فيها عن دفع الجزية له وشقوا عصا طاعته ، فجهز لهم جيشاً أوقع الهزيمة بهم وقتل كثيراً منهم وشتت الباقين فى كافة أرجاء بلاد المغرب .

كذلك عمل الناصر على مد نفوذه إلى بلاد النوبة . فانتهز فرصة امتناع ملكها كربيس سنة ٧١٦ هـ (١٣٢٦ — ١٣١٧ م) عن دفع الجزية [٤] التى كان يؤديها من سبقوه من ملوك النوبة ، وجهز جيشاً بقيادة قائد يدعى عبد الله [٥] وأوقع الهزيمة بملك النوبة وساقه إلى مصر واعتنق الاسلام وتسمى عبد الله . إلا أنه ظلم الأهالى فكرهوه وثاروا عليه وقتلوه . ولما اتصل بمسامع الناصر أنهم كانوا يرغبون فى عودة ملكهم السابق كربيس ، حقق رغبتهم وأجابهم إلى طلبهم ، وخصوصاً أنه كان قد اعتنق الاسلام . ومنذ ذلك الحين انتشر الاسلام فى بلاد النوبة ، وأبطلت الجزية التى كانت تؤديها لمصر لدخول أهلها فى الاسلام [٦] ، ثم أخذ ملوك النوبة يعلنون بشعائر ولائهم وإخلاصهم للناصر ويرسلون إليه الهدايا والتحف . فقد ذكر أبو الفداء أن أحد هؤلاء الملوك أرسل إلى الناصر هدايا من الرقيق والهجن والأبقار ، وطلب

---

(١) العمرى : التعريف ص ١٨٤ .

(٢) Enc. Isl. art. Al - Nasir.

(٣) ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٣ . راجع أيضا
Weil : geschichte der abbasidenchalifats, I, pp. 337 et seq.
حيث يستعرض العلاقات المصرية مع تونس .

(٤) كانت تعرف الجزية فى بلاد النوبة باسم « البقط » .

(٥) كان عبد الله أميرا نوبيا . وكان يسمى فى أول الأمر « نشلى » ولكنه تسمى بهذا الاسم (عبد الله) بعد أن حضر من بلاد النوبة إلى مصر واعتنق الاسلام وأقام بها محاطاً بعناية الناصر ورعايته . راجع المقريزى : كتاب السلوك ج ٢ القسم الأول (طبعة القاهرة) ص ١٦١ . Enc. Isl. art. al-Nasir.

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٩ . Enc. Isl. art. Al-Nasir

مساعدته على منافسيه . فلبى الناصر طلب هذا الملك وأرسل إليه جيشاً بقيادة طقصبا نائب السلطنة بقوص (١) .

٥ — غزو جزيرة ارواد (٢)

باستيلاء السلطان خليل بن قلاوون سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) على حصن عكا ، انتهت دولة الصليبيين فى بلاد الشام (٣) ، فاتخذوا جزيرة أرواد مقراً لهم وبنوا لأنفسهم بها سوراً عظيما يتحصنون به من الغزاة . ولكنهم ما فتئوا يغيرون على سكان المدن الساحلية ببلاد الشام وقطعوا الطريق على السابلة ، مما جعل نائب هذا الساحل يستغيث بالسلطان الناصر . فجهز فى أول المحرم سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أسطولا بحرياً انضم إليه جيش طرابلس . وحاصر هذه الجزيرة الجيش والأسطول معاً ، وانتهى القتال بهزيمة الصليبيين وامتلاك الناصر للجزيرة بعد أن قتل من أهلها نحو ألف ، وأسروا نحو خمسمائة (٤) .

٦ — علاقات مصر بأوربا

كذلك كان بين سلاطين المماليك وبين معظم ملوك أوربا علاقات سياسية . وخاصة فى عهد الناصر محمد الذى أصبح بلاطه محط رحال السفراء الذين وفدوا إلى مصر يحملون هدايا ملوكهم وأمرائهم ، ورسائلهم التى يؤكدون فيها صداقتهم ومودتهم ، حتى صار لمصر مركز دولى ممتاز وذاع صيتها بين تلك الدول .

وفى الوقت الذى كانت تلك الكتب تؤكد توثيق عرى الصداقة بين الناصر وهؤلاء الملوك والأمراء ، فان الغرض الأساسى الذى كان يرمى اليه من وراء إرسالها ، يرجع أولا الى استنجادهم بالناصر أو استدرار عطفه على المسيحيين المقيمين فى مصر وحسن معاملته لهم وليس أدل على ذلك من أن البابا (٥) يوحنا الثانى والعشرين John XXII بنفسه أرسل فى سنة ٧٢٧ هـ

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٣ .

(٢) بالفتح ثم السكون وواو وألف ودال مهملة . اسم جزيرة على ساحل بلاد الشام على مقربة من قسطنطينية . فتحها المسلمون سنة ٥٤ هـ . أنظر لفظ ارواد فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) يلاحظ أن انتهاء دولة الصليبيين من الأراضى المقدسة لا يعنى به انتهاء الحروب الصليبية . وقد أثبت الدكتور عزيز سوريال عطية فى كتابه The Crusade in the Later Middle Ages أن تلك الحركة استمرت إلى أواخر العصور الوسطى وأرخ لجميع الحملات الصليبيه التى وقعت بعد سقوط عكا وأرواد فى سنة ١٢٩١ — ١٢٩٢ م .

(٤) أبو الفداء : نفس المصدر والجزء ص ٤٩ . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٠٨ .

(٥) يطلق النويرى فى كتابه نهاية الأرب كلمة « الباب » على البابا عند كلامه على حوادث سنة ٧٢٧ هـ

(١٣٢٦ م) إلى الناصر كتابا يطلب فيه معاملة مسيحي الشرق معاملة تنطوى على العدل والرعاية ، فى مقابل معاملة البابا للمسيحيين بالمثل ، وأن الناصر قد أجابه إلى ما طلب (١) .

كذلك أرسل شارل الرابع charles IV (١٣٢٢ — ١٣٢٨ م) ملك فرنسا فى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) إلى الناصر رسالة يتوسط فيها لمصلحة المسيحيين المقيمين فى دولته ، فرد عليه الناصر رداً جميلا ووعده بإجابة مطالبه . ومما تجب الاشارة اليه أنه لم تصل إلى مصر من ملك فرنسا رسالة بهذا المعنى منذ عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ — ١٢٤٩) (٢) .

وفى ذلك الوقت بعث أندرونيق الثانى پاليولوج Andronicus II Palaeologus امبراطور الدولة الرومانية الشرقية إلى الناصر بعض السفراء يحملون إليه الهدايا ، ويطلبون معاملة المسيحيين المقيمين فى مملكته ، ولاسيما الملكانيين من بنى نحلته ، بالعطف والرعاية(٣) فأجابه الناصر إلى طلبه وأعاد فتح بعض الكنائس المسيحية وسمح باعادة فتح كنيسة بيت المقدس (٤) . وأبرمت بين امبراطور القسطنطينية وبين السلطان الناصر محالفة لصد الأتراك العثمانيين عن بلاده ، ولا غرو فان ابرام هذه المعاهدة على تلك الصورة إنما يرجع إلى أن انتصار الناصر على المغول وصده إياهم ووقوفه بينهم وبين ما كانوا يشتهون قد أدخل فى روع هذا الأمبراطور أن سلطان مصر كان يتمتع بنفوذ مطلق جعل لمصر مركزاً ممتازاً فى نظر ملوك أوربا . (٥)

على أن العلاقات السياسية التى توطدت بين يعقوب ملك أرغونة وبين الناصر سلطان مصر ، كانت أهم العلاقات وأعظمها شأناً . وقد أتينا على بيان تلك العلاقات عند كلامنا على سياسة الناصر الداخلية(٦) وما كان للمراسلات التى دارت بين هذين الطرفين من أثر فى عطف سلطان مصر على المسيحيين فى الشرق . وإذا دققنا النظر فى هذه المراسلات تبين لنا أنهما تبادلا الهدايا ووثقا عرا الصداقة فى كل المناسبات وحرصا على تنمية علاقات المودة والصفاء .

وقد تبودلت هذه المراسلات فى الفترة التى تقع بين سنى ٧٠٣ و ٧٢٨ هـ (١٣٠٣ — ١٣٢٧ م)

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon, pp. 54-55.

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 73.

(٢) Ibid, L. C. وقد ورد فى كتاب Weil : Geschichte der Abbasidenchalifats I, 353. ذكر سفارة فرنسية للقاهرة من عند الملك فيليب السادس فى سنة ٧٣٠ هـ .

(٣) Atiya : The Crusade in The Later Middle Ages, p. 375.

(٤) Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 301 ; Wiet : Histiore de la Nation Egyptienne, t. IV (L' Egypte Arabe), p. 473.

(٥) اقرأ Camb. Med. History, Vol. IV. pp. 735-743 لمعرفة حالة التفكك والضعف التى آلت اليها تلك الدولة إذ ذاك .

(٦) انظر الباب الخامس .

وقد بعث يعقوب ثمانيا من هذه الرسائل ورد الناصر على ست منها على ما بيّنا فيما سبق . ويظهر ذلك واضحاً مما جاء فى ردّ الناصر على رسالة الملك يعقوب الرابعة التى أرسلها اليه فى سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) ، مما سبق أن أثبتناه فى الباب الخامس (١) . ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل أن الناصر أكد فى رسالته السابعة بتاريخ ١٥ صفر سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) أنه يبادل الملك يعقوب حباً بحب ووداً بود . (٢)

بينا قبل ذلك العلاقات التى قامت بين مصر وبين كل من المغول فى فارس ، وصاحب اليمن ، وملكى أرمينية والنوبة . وامتلأ بلاط الناصر برسل هؤلاء وغيرهم ، حتى أن هذه الظاهرة استوقفت نظر المؤرخ المقريزى الذى تصدى لذكرها بعبارة واضحة نقف منها على عظم مركز مصر بين الدول فى عصر المماليك عامة وعصر الناصر خاصة ، فقال :

« وفيه [٢٥ المحرم سنة ٧٢٥ هـ] اجتمع بمصر من رسل الملوك مالم يجتمع مثلهم فى الدولة التركية ، وهم : رسل صاحب اليمن ، ورسل صاحب اسطنبول ، ورسل الأشكرى (٣) ورسل متملك سيس ، ورسل أبى سعيد (٤) ، ورسل ماردين ، ورسل ابن قرمان ، ورسل متملك النوبة ، وكلهم يبذلون الطاعة » (٥) . ويقول أبو المحاسن : « وكان ملوك البلاد الكبار يهادونه ويراسلونه وكان ترد اليه رسل صاحب الهند وبلاد أزبك خان وملوك الحبشة وملوك الغرب والفرنج وبلاد الاشكرى وصاحب اليمن » (٦) .

والخلاصة أنه كان لمصر فى العهد المملوكى عامة وعصر الناصر خاصة علاقات سياسية مع معظم دول الشرق والغرب (٧) . وظهرت فى بلاطه بعوث من القبيلة الذهبية ، وإيلخانات المغول ،

---

(١) راجع الباب المشار اليه فيما سبق ص ١٢٦ — ١٣٨ .

(٢) Atiya : Egypt and Aragon, pp. 47-48

(٣) صاحب اسطنبول والاشكرى شخص واحد ، وهو امبراطور الدولة البيزنطية ، اندرونيق الثانى پاليولوج . المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ ص ٢٥٩ حاشية للدكتور زيادة .

(٤) تناول أبو المحاسن (المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٥٠ أ) الكلام عن رسل أبى سعيد فقال : « وأما بو سعيد ملك التتار فكانت الرسل لاتنقطع بينهما ويسمى كل منهما الآخر أخا وصارت الكلمتان واحدة ومراسيم السلطان تنفذ فى بلاد بوسعيد ورسله يتوجهون بأطلابهم وطبلخاناتهم بأعلامهم المنشورة وكلما بعد الانسان عن بلاده وجد مهابة أعظم » .

(٥) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ و ٢٥٩ .

(٦) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٧) ذكر أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ٢٥٢) أسماء ملوك الشرق والغرب المعاصرين للسلطان الناصر وهم حسب الترتيب الذى أورده هذا المؤرخ : « كيختو بن هولاكو . المستنصر بالله يحيى بن عبد الواحد صاحب أفريقية . الملك المظفر صاحب اليمن . الملك السعيد إيلغازى صاحب ماردين المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه . المنصور حسام الدين لاچين المنصورى . أبو عبد الله بن الاحمر صاحب =

ومن قبل بنى رسول فى اليمن ، وملك الحبشة : ومن قبل الحفصيين فى تونس ، وامبراطور بيزنطة ، وقيصر بلغاريا (١) ، والبابا ، وملك أرغونة ، وفيليب الرابع ملك فرنسا ، ومحمد بن طغلق سلطان دهلى (٢). وهذا أقصى ما يمكن أن تتمناه أمة من مكانة سامية بين الدول . إلا أن هذه العظمة التى شهدتها مصر فى عصر السلطان الناصر محمد ، ما لبثت أن زالت ، بدخول مصر فى عهد حكم أولاده وأحفاده (٣).

= الاندلس . أبو ثمى صاحب مكة . العادل زين الدين كتبغا المنصورى . غازان بن أرغون ملك التتار . أبو يعقوب المرينى صاحب المغرب . المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير . أبو عبد الله محمد بن محمد ابن صاحب الاندلس . أبو عصيدة صاحب تونس . المنصور غازى صاحب ماردين . طقطاى سلطان القبچاق وصاحب جيلان . علاء الدين محمود صاحب الهند . خدبندا بن أرغون ملك التتار . دون بدرو الفرنجى . حميضة صاحب مكة . المؤيد داود صاحب اليمن . ابن الأحمر أبو الجيوش . نصر بن محمد اللحيانى . منصور ابن جماز صاحب المدينة . الطالب بالله صاحب الأندلس . أبو سعيد عثمان صاحب فاس وغيرها . المؤيد اسماعيل صاحب حماة . ابن الأحمر محمد بن أبى الوليد صاحب الاندلس . ترمشتين سلطان بلخ وسمرقند وبخارا ومرو . بوسعيد ملك التتار . أزبكون ملك التتار . صاحب تلمسان أبوتاسفين عبد الرحمن . مهنا بن عيسى أمير العرب .

(١) وردت الاشارة فى كتاب :

Weil : Geschichte der Abbasidenchalifats, I, p. 352, and note 4.

إلى ثمانى سفراء جاءوا مصر من بلغاريا وذلك نقلا عن المقريزى

(٢) انظر Enc. Isl. art. Al-Nasir

(٣) راجع الباب الرابع من هذا الكتاب .